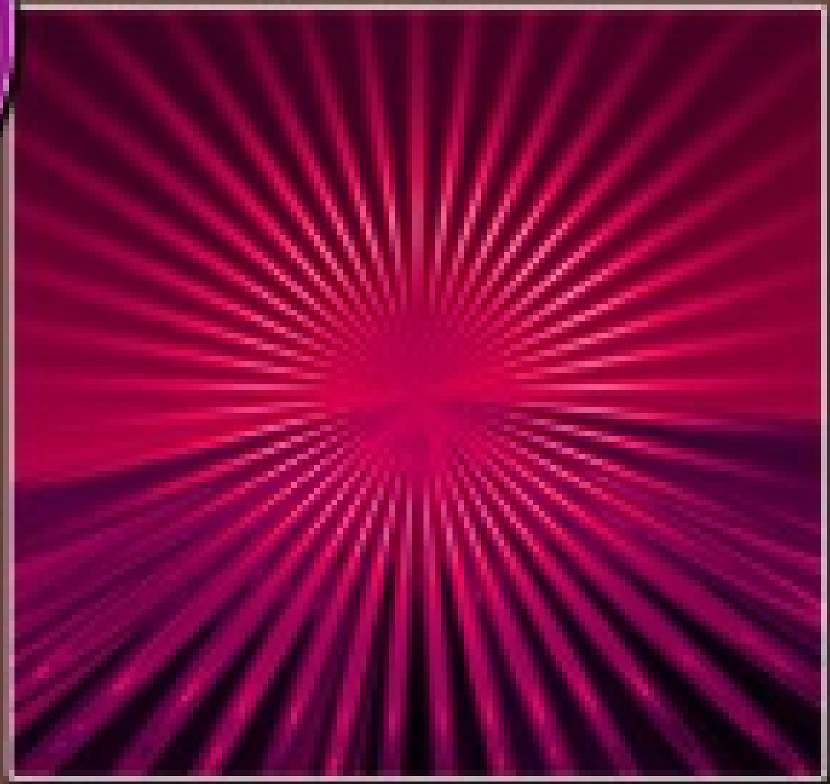
ميقات الحج

مجلة نصف سنوية تعنى بالشؤون الثقافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج

٣٠



بسم الله الرحمن الرحیم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

میقات الحج-المجلد ۳۰

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات‌الحج : مجله نصف سنویه، تعنی بالشوون الثقافیه .....محمد محمدی‌ری‌شهری.
مشخصات نشر : [بی‌جا: بی‌نا، ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵.
مشخصات ظاهری : ۳۰۰ص.:نمونه، عکس.
شابک : ۵۰۰۰ ریال
وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی توصیفی
یادداشت : عربی.
یادداشت : شماره پنج این مجله بنام میقات الحج است.
یادداشت : پشت جلد به انگلیسی: Mighat al - Haj.
یادداشت : کتابنامه.
شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵ -، مدیر مسئول
شناسه افزوده : قاضی‌عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵ -
شماره کتابشناسی ملی : ۱۵۴۲۸۹۶
ص: ۱

ملاحظات

اشارة

یرجی من العلماء و المحققین الأفاضل الذین یرغبون فی التعاون مع المجلة أن یراعوا عند إرسال مقالاتهم النقاط التالیة:

۱- أن تقترن المقالات بذکر المصادر و الهوامش بدقّة و تفصیل.

۲- أن لا تتجاوز المقالة ۴۰ صفحة و أن تکون مضروبة علی الآلة الکاتبة إن أمکن أوأن تکتب بخط الید علی وجه واحد من کلّ ورقة.

۳- أن تکون المادّة المرسلة للنشر فی المجلة غیر منشورة سابقاً و غیر مرسلة للنشر إلی مجلة أخری.

۴- تقوم هیئة التحریر بدارسة و تقییم البحوث و الدراسات المقدمة إلی المجلة، ولها الحقّ فی صیاغتها و تعدیلها بما تراه مناسباً مع مراعاة المضمون والمعنی.

۵- یعتمد ترتیب البحوث و المقالات فی المجلة علی أسس فنّیّة و لیس لأسباب أخری.

۶- تعتذر هیئة التحریر عن إعادة المقالات إلی أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر.

۷- المقالات و البحوث التی تنشر علی صفحات المجلة تمثل وجهات نظر و آراء کتّابها.

۸- ترسل جمیع البحوث و المقالات علی عنوان المجلة فی طهران.

۹- ترحّب هیئة التحریر فی مجلة میقات الحج بملاحظات القرّاء الکرام و مقترحاتهم.

الحج رموز و حکم (۷)

ص: ۲

الله سبحانه وتعالی حکیم، لهذا کان لأفعاله أهداف (۱)، نعم، إنّه تبارک وتعالی منزّه عن الهدف أیضاً بسبب غناه الذاتی، إلّا أنّ العالم نفسه له هدفٌ وجودیّ يناله ويبلغه. والهدف الأسمى والكمال النهائی للمخلوق یکمن فی صیرورته عبداً لله وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْانسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (۲).

ومن الواضح أنّ الله تعالی لیس محتاجاً حتّی یُعبد؛ إنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِی الْارْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِیٌّ حَمِيدٌ (۳) فالعبادة- بظاهرها وباطنها- غایةٌ للمخلوق، ولیست غایة للخالق الغنیّ المحض.

«الحجّ» مثل سائر العبادات، غایة للخلق، لا للخالق، لأنّه عین الغنی ومحض الکمال، وبذلک یظهر سرّ الکلام الإلهی واضحاً حیث یقول: وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَن اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (۴)؛ لأنّ الحجّ عبادة فرضت من الله تعالی علی عبیده، وهم الذین یحتاجون لإقامة الحجّ والعمرة، فإذا کفروا- والحال هذه- فعلیهم أن یعلموا أنّ الله غیر محتاج للعالمین، فکیف یحتاج للخلق من الناس وعبادتهم؟!

العبادة، وسیلة الشهود الوحیدة

هدف الإنس والجنّ فی نظام التشریع هو تکاملهم العبادی، وإذا ما فتق الإنسان صاحب الروح العقلی المجرّد، روحه، فإنّه سوف یصبح هدفاً للکثیر من المخلوقات التی تقع دونه، وإن کان الهدف النهائی هو الله سبحانه وتعالی.

إنّ هدف خلق العالم هو اطّلاع الإنسان علی علم الله وقدرته العظیمین اللهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْارْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْامْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَیْءٍ عِلْماً (۵)، والعلم الحصولی والیقین الاستدلالی وإن کانا کمالًا علمیّاً وهدفاً مقصوداً إلّا أنّهما یعدّان وسیلةً- فقط- مقارنةً بالعلم الحضوری والیقین الشهودی كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ* ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (۶)، أی أنّه یمکن الوصول إلی عین الیقین بعلم الیقین.

بناءً علیه، یمکن اعتبار الیقین الشهودی بالمعارف هدفاً نهائیّاً للخلقة، وهذا الیقین الشهودی یعتمد دائماً علی العبادة التی هی الوسیلة الوحیدة لشهود السالک وظهور الغیب وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (۷)؛ أی أنّه یمکن الوصول إلی عین الیقین بعلم الیقین.

نعم، شکل الاعتماد علی العبادة یتناسب فی کلّ نشأة مع تلک النشأة، ففی الدُّنیا تعتمد علی العبادات التشریعیّة، وفی الآخرة تقوم علی باطن تلک العبادات.

إنّ العبادة وإن کانت- بالمعنی الذی ذکرناه- غایة الخلقة، إلّا أنها فی نفسها مقدّمة للیقین، والیقین هو الغایة وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ، والحجّ أیضاً یمثّل إعداداً لهذا الهدف الرفیع للعبادة، أی الیقین؛ لأنّه نورٌ وبصیرة وشهود، من هنا جاء فی الروایات أنّ تارک الحجّ یحشر أعمی، وأنّه أعمی فی الدُّنیا وفی الآخرة کذلک وأضلّ (۸).

ویُستنتج من الآیة الشریفة: اللهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْارْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْامْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَیْءٍ عِلْماً (۹)، أنّ هدف ظهور العالم، أی ظهور الحقّ فی مرآة الخلق، هو اطّلاع الإنسان السالک علی علم الحقّ وقدرته، وهذا العلم الشهودی یجعل العارف الواصل مظهراً للعلیم القدیر، بحیث إذا أذنَ الله تعالی، یمکنه ببسم الله الرحمن الرحیم أن یفعل ما کان یتحقّق فی الآخرة بصرف الإرادة ... أن یفعله فی الدُّنیا کذلک، وکلّ ما یرید أن یعلمه فإنّه یشاهده.

۱- المؤمنون: ۱۱۵.

٢- الذاريات: ٥۶.

٣- إبراهيم: ٨.

۴- آل عمران: ٩٧.

۵- الطلاق: ١٢.

۶- التكاثر: ۵- ٧.

٧- الحجر: ٩٩.

٨- انظر وسائل الشيعة ٨: ١٧- ١٩.

٩- الطلاق: ١٢.

ص: ٣

كشف سبيل سرّ العبادة

إنّ ما يقع داخل إطار عمل الجوارح أو على مستوى خواطر الجوانح، يكون من أحكام العبادات أو من آدابها، وليس أىّ منهما سرّاً للعبادة، فقط ما يقع فى مدار شهود العقل النظرى وانبعاث العقل العملى .. هو ما يمكن عدّه سرّاً للعبادة.

وكما تجب مراعاة قوانين الفقه الأصغر، دون أن تكفى فى نيل أسرار العبادات، فإنّ مراعاة الفقه الأوسط، أى فنّ الأخلاق الشريف، يظلّ لازماً أيضاً، لكنّه أيضاً لا يكفى، بل المطلوب احترام إرشادات الفقه الأكبر، عنيت العرفان النظرى والعملى، حيث يُتمكّن من العثور على السبيل لمصدر نزول العبادة عبر الضمير الشاهد والسرّ الطاهر، ليتمّ عبر ذلك إنجاز الأمر من خلال السُبل الإدراكيّة والتحريكيّة للمعبود، كما يشير إلى زاوية من ذلك حديثُ قرب النوافل (١). وهناك لا يكتفى السالك الواصل ببلوغ سرّ العبادة، بل يصبح بنفسه فى موقع سرّ المعبود، ومخزن علمه: «هم موضع سرّه، ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حُكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه» (٢).

حقيقة الإنسان الكامل سرّ العبادات كافّة

ثمّة علامات لبلوغ سرّ العبادات، وتوضيح ذلك أنّ ما هو شروط الصحّة والقبول الطولى للعبادات- لا الشرط العرضى- يحسب من أسرارها، فمثلًا الطهارة شرط صحّة الصلاة، إلّا أنّ هذا النوع من الاشتراط وإن اشتمل تقدّماً رتبيّاً، إلّا أنّه على مستوى معرفة السرّ يقع فى عَرْض العبادات المشروطة والموقوفة، لا فى طولها؛ لأنّ الشرط الطولى لقبول الطهارة والصلاة هو الورع والتقوى، قال تعالى: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٣).

إنّ قبول التقوى رهن بولاية الإنسان الكامل؛ لأنّ أىّ عبادة- بل تقوى- ليست مقبولةً دون تولّى المعصومين:، حتّى أنّ القبول بولايتهم دون الاعتقاد بولايتهم التكوينيّة التى هى سرّ كونهم ولاةً، هو الآخر غير مقبول (۴)؛ لأنّ القبول بولايتهم وإدارتهم- كالصلاة والصوم والزكاة والحجّ و ...- من فروع الدِّين (۵)، ولكلّ فرع أصل، يعدّ سرّاً لهذا الفرع، من هنا يُعلم أنّ حقيقة الإنسان الكامل هى سرّ العبادة، وكلّ سالك ينال سرّ العبادة بمقدار بلوغه من الكمال الإنسانى، وأكمل البشر هم المعصومون (عليهم السلام) الواصلون للسرّ النهائى للعبادة؛ لهذا كانوا الصراط المستقيم (۶)، وميزان الأعمال (٧).

وبغية الوصول إلى هذا الهدف السامى، لا مجال سوى بإعمال العقل واليقظة والوعى فى مراقبة حرم القلب الآمن؛ فالحكمة لا تحصل دون تدبّر وتعمّق، وصيرورة الإنسان أهل رأى ونظر لا تحصل دون حمل السرّ وطهارة الضمير وصيانة الذات: «الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأى، والرأى بتحصين الأسرار» (٨).

سرّ الحجّ وثمراته

الصورة الباطنيّة للحجّ

لكلّ عبادة بطنٌ وسرّ، وذلك:

أوّلًا: إنّ العبادات امور تحدّث عنها الله سبحانه فى كتابه.

١- بحار الأنوار ۶٧: ٢٢: «ما تحبّب إلىَّ عبدى بشىء أحبّ إلىَّ ممّا افترضته عليه، وإنّه ليتحبّب إلىَّ بالنافلة حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يُبصر به، ولسانه الذى ينطق به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، إذا دعانى أجبته وإذا سألنى أعطيته ...».

٢- نهج البلاغة، الخطبة: ٢، الفقرة: ١٠- ١١.

۳- المائدة: ۲۷.

۴- انظر: وسائل الشيعة ۱: ۹۰- ۹۶.

۵- انظر: المصدر نفسه: ۷- ۱۹.

۶- راجع: الكافى ۱: ۴۱۶.

۷- انظر: المصدر نفسه: ۴۱۹، ۴۳۳.

۸- نهج البلاغة، الحكمة: ۴۸.

ص: ۴

ثانیاً: لکتـاب الله ظاهر وباطن: «... إنّ لکتاب الله ظاهراً وباطناً» (۱)، وهـذا معناه أنّ کلّ ما جاء فی القرآن- ومنه الحـجّ- له ظاهر یعرفه الناس، وباطن لا یراه إلّا الشهودیّون والعرفاء، ولا یناله غیرهم.

بعبارهٔ اخری: کلّ ما أثنی علیه الوحی الإلهی فله ظاهر یتواصل معه الناس بجسدهم وقوالبهم، وباطن یتّصل به الإنسان بالقلب ویناله به. وتنزل العبـادات- ومن بینهـا الحـجّ- حالهـا حـال سـائر موجودات العـالم الاخری ... من خزائن الغیب الإلهی: وَإِنْ مِنْ شَیْء إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَر مَعْلُوم (۲)، وهی کغیرها من الموجودات تنزل إلی واقعیّات متّکئهً علی مخازن الغیب، وعلیه فمن یعرف هذه الامور العبادیهٔ ویعمل بها یصل إلی اصولها وجذورها فی مخزن الغیب.

وهنـاک روایـات واردهٔ فی الصور الباطنیّهٔ للأعمـال العبادیّهٔ، وهی تنظر إلی هـذه النقطهٔ التی أشـرنا إلیهـا، حیث یتعرّف الإنسان فی البرزخ الصـعودی أو النزولی علی تلک الواقعیّات، وطبعاً عـدد قلیل من الناس یعرفون هـذه الحقائق قبل تنزّل الأعمال لهـذا العالم (فی البرزخ النزولی)، تماماً کمـا یعرف سائر الناس بعـد الموت (فی البرزخ الصـعودی) حقیقـهٔ الصـلاهٔ والحـجّ والزکاهٔ ویفهمونها، ویرون صورها الملکوتیّهٔ.

وکما یقول الحدیث: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه فی قبره سـتّهٔ صور، فیهنّ صورهٔ أحسـنهنّ عن یمینه، واخری عن یساره، واخری بین یـدیه، واخری خلفه، واخری عنـد رجله، وتقف التی هی أحسـنهنّ فوق رأسه؛ فإن أتی عن یمینه منعته التی عن یمینه، ثمّ کذلک إلی أن یؤتی من الجهات الستّ، فتقول أحسنهنّ صورهً: ومن أنتم جزاکم الله عنّی خیراً؟ فتقول التی عن یمین العبد: أنا الصلاهٔ، وتقول التی عن یسـاره: أنـا الزکـاهٔ، وتقول التی بین یـدیه: أنا الصـیام. وتقول التی خلفه: أنا الحـجّ والعمرهٔ. وتقول التی عنـد رجلیه: أنا برّ من وصلت من إخوانک. ثمّ یقلن: مَنْ أنت؟ فأنت أحسننا وجهاً، وأطیبنا ریحاً، وأبهانا هیئهً. فتقول: أنا الولایهٔ لآل محمّد صلوات الله علیهم أجمعین» (۳).

تـدلّ هـذه الروایـهٔ علی أنّ للحـجّ صورهً باطنیّهً تظهر فی صورهٔ ملکوتیّهٔ عنـدما ینتقـل الجمیع من عـالم المُلـک إلی عـالم الملکوت، ویسافرون ویهاجرون حیث تتبدّل الدُّنیا إلی آخرهٔ.

ولأمـاکن الحرم- مکانـاً مکانـاً- وکـذلک لمناسک الحـجّ والعمرهٔ، أسـرار ورموز، لا تنکشف إلّا لزائرین خاصّـین یشاهـدون صاحب البیت فی المجـالی والتمظهرات المختلفـهٔ، وینالون اللِّقاء بربّ البیت وشـهود الآیات الآفاقیّـهٔ والأنفسیّهٔ له، ویمتثلون الحـجّ الإبراهیمی والاعتمار الأصیل الحسینی (علیهما السلام).

ویوضح الإمام الصادق (ع) بعض أسرار الحجّ، والتی تشکِّل الوجههٔ الباطنیّهٔ له، فیقول:

«... ثمّ اغسل بماء التوبهٔ الخالصهٔ ذنوبک، والبس کسوهٔ الصّدق والصـفاء والخضوع والخشوع، وأحرم عن کلّ شـیء یمنعک من ذکر الله ویحجبک عن طاعته، ولبِّ بمعنی إجابـهٔ صافیـهٔ خالصهٔ زاکیهٔ لله عزَّ وجلَّ فی دعوتک، متمسّـکاً بالعروهٔ الوثقی. وطف بقلبک مع الملائکـهٔ حول العرش کطوافک مع المسـلمین بنفسک حول البیت. وهرول هرباً من هواک وتبرّیاً من جمیع حولک وقوّتک. واخرج عن غفلتـک وزلّاتـک بخروجـک من منی، ولا تتمنّ ما لا یحلّ لک ولا تسـتحقّه. واعترف بالخطایا بعرفات. وجـدّد عهـدک عنـد الله بوحـدانیّته، وتقرّب إلی الله واتّقه بمزدلفـهٔ. واصـعد بروحک إلی الملأ الأعلی بصـعودک إلی الجبل. واذبح حنجرهٔ الهواء والطمع عند الذبیحهٔ. وارم الشهوات والخساسهٔ والدناءهٔ والأفعال الذمیمهٔ عند رمی الجمرات. واحلق العیوب الظاهرهٔ والباطنهٔ بحلق شعرک. وادخل فی أمـان الله وکنفه وستره وکلاءته من متابعـهٔ مرادک بـدخولک الحرم. وزُر البیت متحقّقـاً لتعظیم صـاحبه ومعرفـهٔ جلالـه وسـلطانه. واسـتلم الحجر رضاءً بقسـمته وخضوعاً لعزّته. وودّع ما سواه بطواف الوداع. وأصف روحک وسـرّک للقاء الله یوم تلقاه بوقوفک علی الصفا. وکُن ذا مروّهٔ من الله نقیّاً أوصافک عند المروهٔ ...

١- بحار الأنوار ٨٩: ٩٠.

٢- الحجر: ٢١.

٣- بحار الأنوار ۶: ٢٣۴.

ص: ۵

واعلم بأنّ الله تعالی لم یفترض الحجّ ولم یخصّه من جمیع الطاعات بالإضافة إلی نفسه بقوله عزّ وجلّ: وَلِلهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَیْهِ سَبِیلا (۱)، ولا شرع نبیّه (ص) سنّة فی خلال المناسک علی ترتیب ما شرعه، إلّا للاستعداد والإشارة إلی الموت والقبر والبعث والقیامة ...» (۲).

سرّ الحجّ فی السیر إلی الله

کما کان الحجّ لله ووجوبه منه: وَلِلهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَیْهِ سَبِیلا (۳)، کذلک لابدّ أن یکون امتثاله والقیام به لله أیضاً؛ فإذا أراد شخص الحجّ بقصد السیاحة والتجارة وأمثال ذلک فإنّ حجّه هذا لیس له أیّ سرّ من حیث إنّه لیس سیراً إلی الله تعالی، فإنّ أهمّ أسرار الحجّ هو السیر إلی الله سبحانه، تماماً کما طبّقت بعض الروایات الآیة الکریمة: فَفِرُّوا إِلَی اللهِ (۴) علی الحجّ (۵).

إنّ سفر الحجّ فرار من غیر الله إلی الله سبحانه، وحیث الله فی کلّ مکان (۶)، فلیس معنی «السیر إلی الله» هو السیر المکانی أو الزمانی، بل الفرار إلی الله معناه ترک الإنسان ما سوی الله وطلبه لله سبحانه، وعلیه فإذا سافر إنسانٌ إلی الحجّ بقصد التجارة أو الشهرة أو ما شابه ذلک، فقد حقّق «الفرار من الله» لا «الفرار إلی الله».

إنّ مسیرة إقامة الحجّ التی تکمن فی الانقطاع عمّا سوی الله والهجرة إلیه سبحانه، کی یُنال لقاؤه ... کلّها «إلی الله» و «فی الله» و «مع الله» و «لله»، من هنا جاء فی بعض أدعیة الحجّ وأمثاله: «بسم الله وبالله وفی سبیل الله وعلی ملّة رسول الله» (۷).

زاد سفر الحجّ

لم یرد تعبیر «الزاد» فی القرآن الکریم سوی فی الآیة الشریفة: وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزَّادِ التَّقْوَی (۸)، حیث یشتمل صدرها- بل وما قبلها وما بعدها من آیات- علی بیان بعض أحکام الحجّ؛ وسرّ المطلب وجود سفر فی الحجّ: وَأَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجَالا وَعَلَی کُلِّ ضَامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجّ عَمِیق (۹) وحیث کانت هناک حاجة فی السفر للزاد والمؤونة، لذا ذکّر الله سبحانه بذاک السفر الأصلی والأصیل الذی هو الآخرة، فأمر بالتقوی.

إنّ قوله تعالی: وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزَّادِ التَّقْوَی:

أوّلًا: یرشد إلی الطریق، وبدلالته علی تعیین الزاد، وهو التقوی، فإنّه یبیّن أنّ المراد هنا هو السلوک إلی الله تعالی، فإنّ الله هو أهل التقوی، کما أنّه أهل الجود والجبروت.

ثانیاً: یحذّر الناس بأنّهم جمیعاً مسافرون؛ لأنّ التزوّد علامة أنّ الإنسان مسافر.

ثالثاً: یُعلِم بأنّ المسافر من دون زاد لا یمکنه الحرکة ولا التقدّم.

رابعاً: یرشد الجمیع إلی أنّ أفضل الزاد هو التقوی.

خامساً: یبیّن أنّ الحجّ من أبرز مصادیق التقوی.

سادساً: یذکّر بأنّ أفضل نوع من أنواع التقوی هو التقوی الإلهیّة، (فَاتَّقُونِ)، فإنّ زاد السالکین الذین ینشأ ورعهم وتقواهم من الخوف من نار جهنّم أو الشوق إلی الجنّة، ینتهی زادهم فی وسط الطریق، ولا یصلون إلی لقاء الله فی سفر الآخرة؛ لأنّ هدفهم کان الفرار من جهنّم أو الوصول إلی الجنّة، وبعد ذلک یقفون فی حرکتهم، لأنّهم لا زاد معهم لغیرها.

۱- آل عمران: ۹۷.

۲- بحار الأنوار ۹۶: ۱۲۴- ۱۲۵.

۳- آل عمران: ۹۷.

۴- الذاريات: ۵۰.

۵- وسائل الشيعة ۸: ۵.

۶- البقرة: ۱۱۵، الزخرف: ۸۴، الحديد: ۴.

۷- بحار الأنوار ۹۶: ۱۲۰.

۸- البقرة: ۱۹۷.

۹- الحجّ: ۲۷.

ص: ۶

أمّا تقوی الأحرار التی لا تنشأ من خوف النار ولا طمع الجنّة، وإنّما من محبّة الله سبحانه، فإنّها تستمرّ بهم إلی لقاء الله، فیصلون إلیه، لما عندهم من الزاد، فالتقوی التی تنال الله تعالی لیست صفةً منفصلة عن روح المتّقی وذاته، فصاحبها متّق یحظی بلقاء الله.

إنّ سفر الحجّ للزائر الذی وصل للمقصد وعثر علی مقصوده فی ذلک المقصد ثمّ رجع، هو سفرٌ «من الحقّ إلی الخلق بالحقّ»، وهذا المسافر لدیه سفر نفسی إلی جانب السفر الافقی والآفاقی، وهو یدرک أنّ الله تعالی معه: وَهُوَ مَعَکُمْ أَیْنَ مَا کُنْتُمْ (۱)، إنّ مثل هذا الزائر یرجع إلی دیاره ومعه مضیفه نفسه (۲)، بنورانیّة تجعله کأنّه ولد من امّه من جدید «مَن أَمَّ هذا البیت حاجّاً أو معتمراً مبرءاً من الکبر، رجع من ذنوبه کهیئة یوم ولدته امّه» (۳)، والناس مکلّفون بزیارة مثل هذا القادم من سفر الحجّ قبل أن یتلوّث حجّه بأیّ معصیة أو ذنب، فینالون بذلک من النور الإلهیّ لِحجَّتِهِ (۴).

تزکیة الروح فی ضوء معرفة الأسرار

یقع قسم مهمّ من تزکیة النفوس فی ضوء معرفة أسرار العبادات والأحکام الدینیّة، إنّ تعلیم الکتاب والحکمة الوارد فی الآیة الشریفة: یُعَلِّمُهُم الْکِتَابَ وَالْحِکْمَةَ وَیُزَکِّیهِمْ (۵)، مفهوم یستوعب العقائد والأخلاق والأعمال العبادیّة، کما یستوعب أیضاً القضایا الاقتصادیّة، والسیاسیّة، والعسکریّة، وما شابهها، من هنا فالتزکیة المذکورة فی هذه الآیة أتت أیضاً لبیان باطن هذه الامور کافّة، وکما أنّ تزکیة أیّ عمل تکون بنیل أسرار ذلک العمل، فإنّ أیّ عمل له سرّ، یکون الاهتمام به أساساً لتزکیة الروح.

والحجّ مثله مثل سائر العبادات والآداب والسنن والفرائض، جاء لتهذیب النفس، فمحرّمات الحجّ جاءت لتطهیر القوی التی تتورّط أحیاناً بالمعاصی والمهلکات. کما أشارت الآیة الشریفة: (فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِی الْحَجِّ) (۶)، إلی ثلاثة محرّمات فی الحجّ، یتعلّق کلّ واحد منها بتطهیر قوّة من القوی الإنسانیّة، ف- (لا رفث) تنظر إلی تطهیر القوّة الشهوانیّة، و (لا فسوق) لتطهیر القوّة الغضبیّة، و (لا جدال) لتهذیب القوی الفکریّة.

وبطهارة هذه القوی الثلاث تطهر جملة أعمال الإنسان؛ لأنّ أیّ عمل یصدر من الإنسان یرجع بالتحلیل الدقیق إلی هذه القوی الثلاث، وتفصیل هذا البحث موکول إلی علم الأخلاق.

والجدیر بالذّکر أنّ أیّ عمل إنّما یصدر من مصدر خاصّ ویحکی عن خصوصیّاته، فالصدر المشروح یصدر عنه عمل خالص ومشروح، غیر مبتلی بنقص ولا ملوّث بعیب؛ وعلی هذا الأساس فإنّ زائر بیت الله الحرام، یغدو حجّه خالصاً وخلوصاً ومشروحاً أکثر بتبع درجة معرفته بأسرار الحجّ نفسه؛ لأنّ الخلوص الذی هو معیار الاستفادة من الثواب، وشأنٌ من شؤون العقل العملی، مسبوقٌ بالمعرفة؛ والمعرفة من شؤون العقل النظری، فعلی السالک- فی البدایة- أن یفهم المراحل العبادیّة ویعیها، حتّی یکون لدیه فی مقابل فهمه ومعرفته إقدامٌ خالص علی الفعل.

إذن، فبدون التعرّف علی أسرار الأعمال لن یتیسّر طیّ مراحل الإخلاص کاملةً، وهذا الأمر صادق فی حقّ التعرّف علی أسرار سائر العبادات أیضاً.

وعلیه، فعندما یشرع شخص- قبل التعرّف علی أسرار الحجّ- بالسفر إلی بیت الله، فحجّه وإن کان یمکن أن یکون صحیحاً بحسب الظاهر، إلّا أنّه بذلک لم یحقّق الحجّ الکامل والمقبول، ولم تکن الضیافة من نصیبه؛ لأنّ روح إقامة الحجّ لم تتعالی عنده بسبب عدم اطّلاعه علی أسرار هذه الفریضة.

۱- الحدید: ۴.

۲- ورد تعبیر «الضیف» فی حقّ زوّار بیت الله الحرام فی عدد من الروایات، منها: «ثلاثة نفر من خالصة الله عزّ وجلّ یوم القیامة ...

والحاج والمعتمر؛ فهما وفـد الله، وحقّ على الله أن يكرم وفده» وسائل الشـيعة ۳: ۸۴؛ و «إنّ ضـيف الله عزّ وجلّ رجلٌ حـجّ واعتمر فهو ضيف الله حتّى يرجع إلى منزله ...» وسائل الشيعة ۱۰: ۴۵۸.

۳- وسائل الشيعة ۸: ۶۴.

۴- المصدر نفسه: ۳۲۷.

۵- البقرة: ۱۲۹.

۶- البقرة: ۱۹۷.

ص: ۷

ولمزيد من التعرّف على أسرار الحجّ، لابدّ من الرجوع إلى عادات وسيرة الحجّاج الصالحين الحقيقيّين؛ أعنى المعصومين (عليهم السلام)؛ لوضع حجّهم تحت مجهر المطالعة الدقيقة والتأسّي بهم فى ذلك؛ لأنّ هؤلاء كانوا يراعون- مع الآداب والسنن والفرائض والأعمال الظاهريّة للحجّ- العناصر التكوينيّة التى تقوم عليها هذه الأعمال.

ويظلّ استذكار هذا الأمر مفيداً، وهو أنّ سرّ الكثير من العبادات غير مخفىّ ولا مستور عن القائمين بها، إلّا أنّ فهم أسرار مناسك الحجّ يبقى أمراً عسيراً وشاقّاً، فالكثير من أسرار الحجّ يصعب شرحها بالعقل البشرى أو لا يتيسّر ذلك أساساً؛ من هنا احتوت مناسك الحجّ عبوديّة محضة وتامّة، منسجمة مع التعبّد الشديد الزائد عن أمثاله فى سائر الأحكام الدينيّة، تماماً كما قال رسول الله (ص) عند التلبية: «لبّيك بحجّة حقّاً تعبّداً ورقّاً» (۱).

التناغم بين سيرة الحاجّ وسرّ الحجّ

عدّ الله سبحانه الحجّاج والمعتمرين من شعائره؛ فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْىَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً (۲)، فالحاجّ عندما يعزم على زيارة البيت يغدو جزءاً من الشعائر الإلهيّة.

نعم، من الواضح أنّ الذى يقصد من سفر الحجّ والعمرة، السياحة والتجارة والشهرة وما شابه ذلك، لا يكون ضمن الحُرمات الإلهيّة.

إنّ الزوّار المدعوين من جانب الحقّ سبحانه واللائقين بالتكريم الإلهى هم الواجدون للشروط والأوصاف الخاصّة، وقد بيّن القرآن الكريم هذه الأوصاف تارةً بنحو العموم، واخرى بذكر مصاديقها.

أمّا الشرائط العامّة فقد ذكرها فى العهد الذى عهده إلى بانى الكعبة ومساعده- أى إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)- حين قال: وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِى لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (۳).

وطبقاً للآية الشريفة: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِن اللهِ وَرِضْوَاناً (۴)، فإنّ مصداق «الركّع السجود» الذين أمر الخليل والذبيح (عليهما السلام) بتطهير البيت لضيافتهم، هم الامّة الحقيقيّة لرسول الله (ص)، الذين يملكون- إلى جانب الصلاة والركوع والسجود- الصلابة الإبراهيميّة ضدّ النمروديين ورؤوس الكفر والنفاق والطغيان، كما لديهم رأفة خليل الرحمن بالمسلمين المحرومين فى أنحاء العالم الإسلامى.

بناءً عليه، فمَن كان ملوّثاً بالفكر الباطل أو العمل الطالح لن يكون ضيفاً للبيت الطاهر، فليس الساعى وراء الامتيازات والمقامات والمناصب ضيفاً لبيت المساواة والمواساة، وليس عبد الهوى أو عبد المستكبرين والملحدين ضيفاً للبيت العتيق الحرّ، بيت الحرية والأحرار، وليس من لديه مئات الأصنام بضيفٍ على بيت التوحيد، ومن وجّه وجهه للخلف وأدار ظهره للقبلة مصلّياً صلاته لا يكون ضيفاً على قبلة المسلمين، ومن وضع مكان التبرّى من الشرك والنِّفاق والكفر، الولاية لرموز الإلحاد كيف يكون ضيفاً على مطاف العاكفين؟! فليس من يخضع للاستعمار بضيف على بيت الراكعين والساجدين، ليس كلّ حاجّ بعارف لأسرار الحجّ، أو بممتثل للحجّ الكامل، إنّما هم الحافظون للسرّ الإلهى ولمخازن العلوم الربّانية من يطّلع الله على أسراره ليحفظوها، فهم مطّلعون على سرّ الحكم ويصلون لهذا السرّ.

۱- المحجّة البيضاء ۲: ۱۹۷، وقد أسندت هذه الجملة فى بعض النصوص إلى أنس بن مالك.

۲- المائدة: ۲.

۳- البقرة: ۱۲۵.

۴- الفتح: ۲۹.

ص: ۸

السیرة اللاإنسانیة لبعض الحجّاج

تصنع العقائد والأخلاق والأعمال والنیّات حقیقةَ أیّ إنسان، کذلک الحجّ- کما سائر العبادات- یبنی الإنسان، بل یتناغم سرّ الحجّ مع سریرة الإنسان، فیبنی علی أساس ذلک، وإذا لم یوفّق شخص لبلوغ السرّ، فإنّ صورته تکون صورة الإنسان، إلّا أنّ حقیقته وسیرته ستکونان سیرة الحیوان: «فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حیوان» (۱).

یقول أبو بصیر للإمام الباقر (ع): «ما أکثر الحجیج وأعظم الضجیج! فقال (ع): بل ما أکثر الضجیج وأقلّ الحجیج، أتحبّ أن تعلم صدق ما أقوله، وتراه عیاناً؟ فمسح یده علی عینیه، ودعا بدعوات فعاد بصیراً، فقال: انظر یا أبا بصیر إلی الحجیج. قال: فنظرت فإذا أکثر الناس قردةً وخنازیر، والمؤمن بینهم مثل الکوکب اللّامع فی الظلماء ...» (۲).

وفی حدیث آخر: قال علیّ بن الحسین (علیهما السلام)- وهو واقف بعرفات- للزهری: «کم تقدِّر من الناس هاهنا؟» قال: أُقدّر أربعة ألف ألف و [ظ أربعمائة ألف أو] خمسمائة ألف؛ کلّهم حجّاج قصدوا الله بأموالهم ویدعونه بضجیج أصواتهم. فقال له: «یا زهریّ! ما أکثر الضجیج وأقلّ الحجیج»، فقال الزهری: کلّهم حجّاج أفهم قلیل؟ فقال: «یا زهریّ! أدن إلیَّ وجهک». فأدناه إلیه، فمسح بیده وجهه.

ثمّ قال: «انظر». فنظر إلی الناس. فقال الزهری: فرأیت أُولئک الخلق کلّهم قردة لا أری فیهم إنساناً إلّا فی کلّ عشرة ألف واحد من الناس. ثمّ قال لی: «ادنُ یا زهریّ». فدنوت منه فمسح بیده وجهی، ثمّ قال: «انظر». فنظرت إلی الناس. قال الزهریّ: فرأیت اولئک الخلق کلّهم خنازیر.

ثمّ قال لی: «ادنُ إلیَّ وجهک». فأدنیت منه فمسح بیده وجهی فإذا هم کلّهم دیبة (ذئبة) إلّا تلک الخصائص من الناس النفر الیسیر.

فقلت: بأبی وامّی أنت یا ابن رسول الله، قد أدهشتنی آیاتک وحیّرتنی عجائبک. قال: «یا زهریّ! ما الحجیج من هؤلاء إلّا النفر الیسیر الذین رأیتهم بین هذا الخلق الجمّ الغفیر».

ثمّ قال لی: «امسح یدک علی وجهک». ففعلت فعاد اولئک الخلق فی عینی اناساً کما کانوا أوّلًا.

ثمّ قال لی: «مَن حجّ ووالی موالینا وهَجَر معادینا ووطّن نفسه علی طاعتنا ثمّ حضر هذا الموقف مسلّماً إلی الحجر الأسود ما قلّده الله من أمانتنا (أماناتنا) ووفیّاً بما ألزمه من عهودنا، فذلک هو الحاج والباقون هم من قد رأیتهم.

یا زهریّ! حدّثنی أبی عن جدّی رسول الله (ص) أنّه قال: لیس الحاج المنافقون المعاندون لمحمّد وعلیّ محبّیهما الموالون لشانئیهما، وإنّما الحاجّ المؤمن المخلصون الموالون لمحمّد وعلیّ ومحبّیهما المعادون لشانئیهما. إنّ هؤلاء المؤمنین الموالین لنا المعادین لأعدائنا لتسطع أنوارهم فی عرصات القیامة علی قدر موالاتهم لنا؛ فمنهم مَن یسطع نوره مسیرة ثلاث مائة ألف سنة وهو جمیع مسافة تلک العرصات، ومنهم مَنْ تسطع أنواره إلی مسافات بین ذلک یزید بعضها علی بعض علی قدر مراتبهم فی موالاتنا ومعاداة أعدائنا یعرفهم أهل العرصات من المسلمین والکافرین بأنّهم الموالون المتولّون المتبرّؤون، یُقال لکلّ واحد منهم: یا ولیّ الله! انظر فی هذه العرصات إلی کلّ من أسدی إلیک فی الدُّنیا معروفاً أو نفّس عنک کُرباً أو أغاثک إذ کنت ملهوفاً أو کفَّ عنک عدوّاً أو أحسن إلیک فی معاملة فأنت شفیعه ...» (۳).

طبقاً لحدیث آخر عن الإمام السجّاد؛ فإنّ الأشخاص الذین یکون ملکوتهم بصورة إنسان هم المتمسّکون بالقرآن والعترة، والمعتقدون بالوحی والرسالة والولایة، وقد أحاط الدین وأمّن ظاهرهم وباطنهم؛ من هنا کان ظاهرهم وباطنهم إنسانیّاً، أمّا الذین کان باطنهم الفصل بین القرآن والعترة، ویقولون بأنّ الرسول اجتهد فی تعیین الإمام بعده، فهو فی الحقیقة جحود وإنکار للحقّ، وهو ما یظهر بصورة حیوانیّة.

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۸۷، الفقرة: ۱۲.

۲- بحار الأنوار ۴۶: ۲۶۱.

۳- المصدر نفسه ۹۶: ۲۵۸.

ص: ۹

وقد اتّضح من الرواية المُشار إليها دور الاعتراف بولاية الأئمّة المعصومين (عليهم السلام)، وكذلك إنكارهم، فى بناء سلوك الإنسان وحقيقته.

وفى هذا السياق نفسه، يقول سدير الصيرفى: كنتُ مع الصادق ۷ فى عرفات، فرأيت الحجيج وسمعتُ الضجيج، فتوسّمت وقلتُ فى نفسى: أترى هؤلاء كلّهم على الضلال؟ فنادانى الصادق ۷ فقال: «تأمّل!» فتأمّلتهم، فإذا هم قردة وخنازير (۱).

وسرّ هذا الأمر هو ما جاء فى الحديث عينه، وهو أنّ الذى يتغافل النصّ الصريح للنبىّ الأكرم (ص) فيما يخصّ خلافة الأئمّة المعصومين (عليهم السلام) عامداً عالماً، وينكر ذلك، ولا يعتقد بولايتهم، فإنّ حقيقته ليست إنسانيّة.

ونتيجة الكلام أنّه وإن كان من الممكن أن يكون كلّ الحاضرين فى مراسم الحجّ زوّاراً لبيت الله الحرام فى إحصاء ظاهرىّ، إلّا أنّ الكثير منهم لا يحسبون إنساناً من حيث الإحصاء الباطنى والحقيقى لهم، على مستوى أسرار الحجّ.

إنّ هذا المشهد الذى رأيناه وإن حصل أن وقع فى عرفات، إلّا أنّه يمكن تحقّقه أيضاً فى الصفوف الطويلة لصلوات الجماعة التى قد يبلغ العدد فيها أحياناً مبلغاً كبيراً، بحيث لا نجد سوى القليل من المقيمين الحقيقيّين للصلاة.

والجدير ذكره هنا، أنّ هذا البحث وإن ورد فى باب الحجّ؛ إلّا أنّ مرجعه إلى سرّ الولاية، لا سرّ الحجّ، اللّهُمَّ إلّا إذا قيل: حيث كانت الولاية مُرخيةً بظلالها على جميع الأعمال والعبادات، لذا فإنّ حقيقتها سوف تظهر تحت عنوان سرّ الأعمال والعبادات، فمن لا يقبل بسرّ الولاية فقدْ فَقَدَ إنسانيّته ولو أدّى الصلاة، والصوم، والزكاة، والحجّ، انطلاقاً من فقدان أعماله السرّ والحقيقة؛ لأنّ سرّ العبادة هو ما يبنى الإنسان وينشؤه ويربّيه، ومن لم يبلغ هذا السرّ فلن تكون سريرته إنسانيّة.

الإحرام

الحرم هو الأمن الإلهى وهو أرض الحجّ، ميزةٌ لا يشاركه فيها شىء، ليس فقط فى موسم الحجّ، وإنّما على امتداد العام، حيث لا يمكن الدخول إليه إلّا مع الإحرام. كذلك الحال فى عدم حقّ غير المسلم فى دخول منطقة التوحيد ومهبط الوحى؛ لأنّ إحرامه غير صحيح، ودخول غير المحرم إلى الحرم ممنوع.

وقد حدّدت لكلّ من يريد الدخول إلى الحرم مواقيت للإحرام؛ يقصد بذلك حفظ حرمة الحرم الذى وجد بالمسجد الحرام والكعبة المشرّفة؛ فالإحرام من الميقات للدخول إلى الحرم مثل صلاة تحيّة المسجد التى وضعت لحفظ كرامة المسجد، مع فارق وهو أنّ تحيّة المسجد مستحبّة، فيما الإحرام لدخول الحرم واجب، ويجب على الحاجّ عند الإحرام أن يقصد أن يحرِّم على نفسه ما حرّمه الله عليه (۲)

فبعض الامور تحرم على الإنسان مؤقّتاً وحال الإحرام فقط. مثل قلع الشعر، والنظر فى المرآة، والصيد و ... لكن بعضها حرام مطلقاً مثل ما ورد فى حديث الشبلى من لزوم ترك تمام المعاصى حال الإحرام.

وعليه فالإحرام فى الميقات يعنى كأنّك تقول لله: «إلهى! إنّنى أتعهّد أن احرِّم على نفسى تمام المحرّمات، وأن أتركها دائماً وإلى الأبد».

۱- المناقب ۴: ۲۳۴- ۲۳۵.

۲- مستدرك الوسائل ۱۰: ۱۶۶. وقد أورد هذا الكتاب- لا سيما فى قسم الحجّ- وفى مواضع متعدّدة، الرواية المعروفة برواية الشبلى، وحيث احتوت هذه الرواية على أسرار ولطائف كثيرة حول الحجّ؛ لذا ننقل نصّها الكامل هنا؛ لكن قبل ذلك يجدر الالتفات إلى بعض النقاط:

أوّلًا: هناک أشخاص متعدّدون معروفون بلقب «الشبلی»، وأقرب شخص منهم إلی عصر الأئمّة (علیهم السلام هو أبو بکر دُلف بن جحدر، المولود بعد شهادة الإمام السجّاد (ع بحوالی قرنین، وهذا معناه أنّه لا یمکن للملقّبین ب- «الشبلی» أن یرووا بشکل مباشر عن الإمام السجّاد (ع، وهذا الحدیث لا یشبه وزنه وطریقة البیان فیه ما هو المأثور عن الأئمّة المعصومین (علیهم السلام، من هنا قیل: إنّه من الممکن أن تکون هذه الروایة من کلمات بعض العرفاء، نُسبت شیئاً فشیئاً إلی الإمام السجّاد (ع.

لکن مثل هذه الروایات المنسجمة مع سائر المعارف أو غیر المخالفة لها، لا یشکِّل النقص فی السند فیها مانعاً عن الاستفادة من متنها الرفیع والنورانی.

ثانیاً: لا ـ یتساوی الترتیب الموجود فی هذه الروایة لمناسک الحجّ مع ترتیبها المعروف فی الفقه، ولعلّه یمکن القول: مبرّر ذلک أنّ الإمام السجّاد (ع لم یکن فی هذا الحدیث بصدد بیان أحکام مناسک الحجّ والتکالیف الظاهریّة للحجّاج.

أمّا متن الروایة فهو علی الشکل التالی:

العالم الجلیل الأوّاه السیّد عبدالله سبط المحدِّث الجزائری فی شرح النخبة قال: وجدت فی عدّة مواضع أوثقها بخطّ بعض المشایخ الذین عاصرناهم مرسلًا، أنّه لمّا رجع مولانا زین العابدین (ع من الحجّ استقبله الشبلی، فقال له: حججت یا شبلی؟ قال: نعم یا ابن رسول الله. فقال (ع: أنزلت المیقات وتجرّدت عن مخیط الثیاب واغتسلت؟ قال: نعم. قال: فحین نزلت المیقات نویت أنّک خلعت ثوب المعصیة ولبست ثوب الطاعة؟ قال: لا. قال: فحین تجرّدت عن مخیط ثیابک نویت أنّک تجرّدت من الرِّیاء والنفاق والدخول فی الشبهات؟ قال: لا ـ قال: فحین اغتسلت نویت أنّک اغتسلت من الخطایا والذنوب؟ قال: لا. قال: فما نزلت المیقات ولا تجرّدت عن مخیط الثیاب ولا اغتسلت.

ثمّ قال: تنظّفت وأحرمت وعقدت بالحجّ؟ قال: نعم. قال: فحین تنظّفت وأحرمت وعقدت الحجّ نویت أنّک تنظّفت بنورة التوبة الخالصة لله تعالی؟ قال: لا ـ قال: فحین أحرمت نویت أنّک حرّمت علی نفسک کلّ محرّم حرّمه الله عزّ وجلّ؟ قال: لا. قال: فحین عقدت الحجّ نویت أنّک قد حللت کلّ عقد لغیر الله؟ قال: لا. قال (ع له: ما تنظّفت ولا أحرمت ولا عقدت الحجّ.

قال له: أدخلتَ المیقات وصلّیت رکعتی الإحرام ولبّیت؟ قال: نعم. قال: فحین دخلت المیقات نویت أنّک بنیّة الزیارة؟ قال: لا. قال: فحین صلّیت الرکعتین نویت أنّک تقرّبت إلی الله بخیر الأعمال من الصلاة وأکبر حسنات العباد؟ قال: لا. قال: فحین لبّیت نویت أنّک نطقت لله سبحانه بکلّ طاعة وصمت عن کلّ معصیة؟ قال: لا. قال (ع له: ما دخلت المیقات ولا صلّیت ولا لبّیت.

ثمّ قال له: أدخلتَ الحرم ورأیت الکعبة وصلّیت؟ قال: نعم. قال: فحین دخلت الحرم نویت أنک حرّمت علی نفسک کلّ غیبة تستغیبها المسلمین من أهل ملّة الإسلام؟ قال: لا. قال: فحین وصلت مکّة نویت بقلبک أنّک قصدت الله؟ قال: لا. قال (ع: فما دخلت الحرم، ولا رأیت الکعبة، ولا صلّیت.

ثمّ قال: طفتَ بالبیت ومسست الأرکان وسعیت؟ قال: نعم. قال (ع: فحین سعیت نویت أنّک هربت إلی الله وعرف منک ذلک علّام الغیوب؟ قال: لا. قال: فما طفت بالبیت، ولا مسست الأرکان، ولا سعیت.

ثمّ قال له: صافحت الحجر ووقفت بمقام إبراهیم (ع وصلّیت به رکعتین؟ قال: نعم. فصاح (ع صیحةً کاد یفارق الدُّنیا. ثمّ قال: آه آه. ثمّ قال (ع: مَنْ صافح الحجر الأسود فقد صافح الله تعالی، فانظر یا مسکین لا تضیّع أجر ما عظم حرمته وتنقض المصافحة بالمخالفة وقبض الحرام نظیر أهل الآثام.

ثمّ قال (ع: نویت حین وقفت عند مقام إبراهیم (ع أنّک وقفت علی کلّ طاعة وتخلّفت عن کلّ معصیة؟ قال: لا. قال: فحین صلّیت فیه رکعتین نویت أنّک صلّیت بصلاة إبراهیم (ع وأرغمت بصلاتک أنف الشیطان؟ قال: لا ـ قال له: فما صافحت الحجر الأسود، ولا وقفت عند المقام، ولا صلّیت فیه رکعتین.

ثمّ قال (ع له: أشرفتَ علی بئر زمزم وشربت من مائها؟ قال: نعم. قال: نویت أنّک أشرفت علی الطاعة وغضضت طرفک عن المعصیة؟

قال: لا. قال (ع: فما أشرفت عليها، ولا شربت من مائها.

ثمّ قال (ع له: أسعيتَ بين الصفا والمروة ومشيت وتردّدت بينهما؟ قال: نعم. قال له: نويت أنّك بين الرجاء والخوف؟ قال: لا. قال: فما سعيت، ولا مشيت، ولا تردّدت بين الصفا والمروة.

ثمّ قال: أخرجتَ إلى منى؟ قال: نعم. قال: نويت أنّك آمنت الناس من لسانك وقلبك ويدك؟ قال: لا. قال: فما خرجت إلى منى.

ثمّ قال له: أوقفتَ الوقفة بعَرفة وطلعت جبل الرحمة وعرفت وادى نمرة ودعوت الله سبحانه عند الميل والجمرات؟ قال: نعم. قال: هل عرفت بموقفك بعرفة معرفة الله سبحانه أمر المعارف والعلوم وعرفت قبض الله على صحيفتك واطّلاعه على سريرتك وقلبك؟ قال: لا. قال: نويت بطلوعك جبل الرحمة أنّ الله يرحم كلّ مؤمن ومؤمنة ويتولّى كلّ مسلم ومسلمة؟ قال: لا. قال: فنويت عند نمرة أنّك لا تأمر حتّى تأتمر ولا تزجر حتّى تنزجر؟ قال: لا. قال: فعندما وقفت عند العلم والنمرات نويت أنّها شاهدة لك على الطاعات حافظة لك مع الحفظة بأمر ربّ السماوات؟ قال: لا. قال: فما وقفت بعرفة، ولا طلعت جبل الرحمة، ولا عرفت نمرة، ولا دعوت، ولا وقفت عند النمرات.

ثمّ قال: مررت بين العلمين وصلّيت قبل مرورك ركعتين ومشيت بمزدلفة ولقطت فيها الحصى ومررت بالمشعر الحرام؟ قال: نعم. قال: فحين صلّيت ركعتين نويت أنّها صلاة شكر فى ليلة عشر تنفى كلّ عسر وتيسّر كلّ يُسر؟ قال: لا. قال: فعندما مشيت بين العلمين ولم تعدل عنهما يميناً وشمالًا نويت أن لا تعدل عن دين الحقّ يميناً وشمالًا لا بقلبك ولا بلسانك ولا بجوارحك؟ قال: لا. قال: فعندما مشيت بمزدلفة ولقطت منها الحصى نويت أنّك رفعت عنك كلّ معصية وجهل وثبت كلّ علم وعمل؟ قال: لا. قال: فعندما مررت بالمشعر الحرام نويت أنّك أشعرتَ قلبك إشعار أهل التقوى والخوف لله عزّ وجلّ؟ قال: لا. قال: فما مررت بالعلمين، ولا صلّيت ركعتين، ولا مشيت بالمزدلفة، ولا رفعت منها الحصى، ولا مررت بالمشعر الحرام.

ثمّ قال له: وصلتَ منى ورميت الجمرة، وحلقت رأسك، وذبحت هديك، وصلّيت فى مسجد الخيف، ورجعت إلى مكّة وطفت طواف الإفاضة؟ قال: نعم. قال: فنويت عندما وصلت منى ورميت الجمار أنّك بلغت إلى مطلبك وقد قضى ربّك لك كلّ حاجتك؟ قال: لا. قال: فعندما رميت الجمار نويت أنّك رميت عدوّك إبليس وغضبته بتمام حجّك النفيس؟ قال: لا. قال: فعندما حلقت رأسك نويت أنّك تطهّرت من الأدناس ومن تبعة بنى آدم وخرجت من الذنوب كما ولدتك امّك؟ قال: لا. قال: فعندما صلّيت فى مسجد الخيف نويت أنّك لا تخاف إلّا الله عزّ وجلّ وذنبك ولا ترجو إلا رحمة الله تعالى؟ قال: لا. قال: فعندما ذبحت هديك نويت أنّك ذبحت حنجرة الطمع بما تمسّكت به من حقيقة الورع، وأنّك اتّبعت سنّة إبراهيم (ع بذبح ولده وثمرة فؤاده وريحان قلبه وحاجه (ظ أحييت سنّته لمَن بعده وقربةً إلى الله تعالى لمَن خلفه؟ قال: لا. قال: فعندما رجعت إلى مكّة وطفت طواف الإفاضة نويت أنّك أفضت من رحمة الله تعالى ورجعت إلى طاعته وتمسّكت بودّه وأدّيت فرائضه وتقرّبت إلى الله تعالى؟ قال: لا. قال له زين العابدين (ع: فما وصلت منى، ولا رميت الجمار، ولا حلقت رأسك، ولا أدّيت نسككك، ولا صلّيت فى مسجد الخيف، ولا طفت طواف الإفاضة، ولا تقرّبت. ارجع؛ فإنّك لم تحجّ.

فطفق الشبلى يبكى على ما فرّطه فى حجّه وما زال يتعلّم حتّى حجّ من قابل بمعرفة ويقين.

ص: ۱۰

حقيقة الإحرام

للإحرام أجزاء ثلاثة واجبة، يتحقّق الإحرام بوجودها، وهى:

۱- ارتداء قطعتى لباس من غير المخيط (للرجال).

۲- قصد الإحرام للحجّ أو العمرة.

۳- التلبية.

إنّ الإحرام كما جاء فى الكلام النورانى للإمام السجّاد (ع) يعنى مناداة الله: «إلهى! لقد قطعت تعلّقى بغيرك»، وعليه فهذا «العقد» والعهد، يلازمه «حلّ» الارتباط بغير الله سبحانه، فبدايةً تُقطع التعلّقات بغير الله ثمّ بعد ذلك يحصل الاتّصال والارتباط به سبحانه.

من الواضح جدّاً مدى ظهور التوحيد وتجلّيه البالغ فى الإحرام، مرفقاً بالتعرّى من كلّ زينة فى الحياة الدنيويّة، وكأنّ فى ذلك محاكاةً للحشر والمعاد اللّذين هما العودة إلى المبدأ.

على هذا الأساس، فمن لم يخاطب- عند الإحرام- الله بقلبه: «إلهى! غسلت يدىّ من غيرك، ولم أرتبط إلّا بولائك»، لم يذهب للميقات حقيقةً ولم يحرم واقعاً! طبقاً لتوجيهات الإمام السجّاد (ع).

نعم المراد نفى الكمال، لا نفى الصحّة.

غسل الإحرام

سرّ استحباب الغسل فى الميقات، كما يبيّن الكلام المنير للإمام السجّاد (ع)، أن يقصد الحاج به تطهير نفسه من الذنوب والخطايا، فالنظافة فى الميقات تتعدّى تطهير البدن لتدلّل على تطهير القلب، وهذا أوّل سرّ من أسرار الحجّ.

وبناءً عليه، يتعهّد الزائر مع غسل الإحرام:

أوّلًا: أن لا يلوّث نفسه بعد ذلك بالذنب والمعصية.

ثانياً: من الآن فصاعداً لا يخطو خطوةً إلّا فى طريق الطاعة.

ثالثاً: أن يجبر النواقص السابقة ويرمّمها.

إنّ غسل الإحرام سيكون بهذا القصد غسلًا للتوبة، وعند ذاك سيلبس زائر بيت الله الحرام لباس الطاعة بروحه وجسده الطاهرين.

صلاة الإحرام

تقرأ فى الميقات صلاة الإحرام قبل الغسل، ويفتى أكثر الفقهاء باستحباب هذه الصلاة، فيما يقول بعضهم بالاحتياط الوجوبى فى أدائها، وبناءً عليه من المناسب أن يوقع الإنسان الإحرام بعد الصلاة.

إنّ العازم على السفر إلى بيت الله الحرام يتوجّه إلى سرّ صلاة الإحرام ويقول: «إلهى! إنّنى أقتربُ منك بعمود دينك».

ارتداء لباس الإحرام

إنّ خلع الملابس المخيطة حال الإحرام يعنى الخروج من لباس المعصية، كما أنّ ارتداء لباس الإحرام غير المخيط ولا الملوّن، والمصنوع من الحلال والطهارة والنظافة، يعنى اشتمال لباس الطاعة.

ص: ١١

السرّ الآخر لارتداء هذا اللِّباس الخاصّ هو تذكّر اليوم الذى يأتى فيه الإنسان بلباس غير مخيط، ألا وهو يوم الموت الذى يرتدى فيه الكفن، من هنا تتجلّى فى مناسك الحجّ ومراسيمه بعض أسرار القيامة، فسفر الموت والحضور فى عرصات القيامة يتجسّد فى نظر الحجيج.

كما أنّ ارتداء لباس الإحرام المتواضع والبسيط يزيل الامتيازات الظاهريّة الشكليّة بين الناس، ممّا يلغى أىّ أرضيّة لخلق رغبة فى التفاضل أو التفاخر أو التباهى.

النيّة

الحجّ (التمتّع- القران- الإفراد) والعمرة من العناوين القصديّة والقُربيّة، لهذا يجب فيه مراعاة شيئين وقصدهما: أحدهما عنوان العمل، وثانيهما: غاية الفعل وهدفه، ألا وهو التقرّب إلى الله تعالى.

كما أنّ كلّ الأركان والأجزاء الداخلة تحت هذا العنوان تصبح قصديّةً أيضاً، فيغدو امتثالها- كامتثال الحجّ والعمرة- باطلًا غير متحقّق إذا فقد قصد العنوان الخاصّ.

نعم، القصد الإجمالى الأوّل كاف؛ حيث يلقى بظِلاله على سائر الامور والأجزاء.

ويجب فى الحجّ والعمرة- كسائر العناوين القصديّة الاخرى- المحافظة على قصد العنوان حتّى آخر جزء من العمل؛ لأنّ العناوين القصديّة لا يكفى فيها القصد بمجرّد الحدوث وفى مرحلته، بل لابدّ فيها أيضاً من القصد فى مرحلة البقاء.

وبعض الامور، يُضاف إلى كونها من الأعمال القصديّة، أنّها من العبادات، فلا تتحقّق من دون قصد القُربة بنحو مستمرّ ودائم، فلا يمكن فيها عروض شائبة الرياء لا حدوثاً ولا بقاءاً، لأنّ ذلك يخلّ بخلوص قصد التقرّب. والحجّ والصلاة والعمرة والصيام من هذا النوع من الأعمال.

ويكفى فى قصد القربة أن ينوى الفاعل من بداية فعله إلى نهايته أن ينجز هذا العمل بدافع الالتزام بالأوامر الإلهيّة، إنّ مثل هذا القصد عندما يستمرّ ويحفظ من عروض الرياء عليه يعدّ كافياً فى تحقيق عباديّة الفعل.

والإطاعة المذكورة لها غاية حتماً، لأنّ امتثال الأمر الإلهى لا يقع- غالباً- من دون دافع أو هدف، وغاية الامتثال هنا تتحدّد بقدر معرفة الممتثل وهمّته ونشاطه واطّلاعه؛ فإنّ الدرجة الوجوديّة لأىّ ممتثل تشكّل العلّة المعيِّنة لمدى معرفته وقدر همّته واستعداده، كما أنّ مرتبة المعرفة ودرجة الهمّة تمثِّلان علامةً دالّة على الدرجة الوجوديّة.

إنّ الحجّاج والمعتمرين يقعون على فئات ثلاث وفقاً لحديث التثليث المعروف (١)؛ فإنّ عبادتهم إمّا من نوع عبادة العبيد، أو عبادة الطالبين للمصلحة، أو عبادة الأحرار؛ لكن مع ذلك هناك مراتب لكلّ صفة من هذه الأوصاف الثلاثة: الخوف، والشوق، والحريّة، وأعلاها مرتبةً عبادة الأحرار، هناك يكون التعبّد الذى يحصل عليه الإنسان الكامل بطىّ مراحل قُرب الفرائض والنوافل (٢)، فيغدو هذا الإنسان محلًا للكون الجامع للحضرات الخمس، ومظهراً للإسم الأعظم فى تدبير ما سوى الله بإذن الله.

بعض الناس يكون دافعهم العبادى راجعاً لما قد حصل ومضى، كالشكر لدفع نقمة أو رفعها، أو حدوث نعمة فيما مضى، وبعضهم صدق عبادتهم يعود للمستقبل؛ لدفع خطر أو جلب منفعة فيما سيأتى، وهذا يمتدّ إلى القيامة، حيث يسعى العابد للخلاص من نار الله العظيم الجبّار أو للوصول إلى جنّته العليا. أمّا الفريق الثالث فدافعه من الامتثال أرفع من دفع ضررٍ أو جلب منفعة بلحاظ الماضى أو المستقبل، بل أرفع من تمام حالات الماضى والمستقبل؛ إنّهم يعبدون الله لأنّ الله عندهم أهلٌ للعبادة يليق بها.

١- الكافى ٢: ٨٤.

٢- المصدر نفسه: ٣٥٢.

ص: ۱۲

إنّ دافع الإنسان السالک الصالح من عباداته الواجبة والمستحبّة- لا سیما الحجّ والعمرة- أن یصبح خلیفة الله؛ فاولئک الذین یریدون الوصول إلی مقام الخلافة الرفیع، علیهم التحرّر- فی مناخ التربیة العبادیّة- من مضارّ المفاسد الحیوانیّة والشیطانیّة، حتّی یصلوا إلی قُلّة العلم وأوج العقل، فیکونون أهلًا لعنوان خلافة من لا عنوان له.

وبعد طیّ مقام «خلیفة الله» تصل النوبة لسفرٍ أرفع وأسمی، وهو أن یفوّض العبد تمام شؤونه وأوضاعه لمالکه الأصلی وملیکه الحقیقی، حتّی یکون مولاه خلیفته؛ أی یکون الله خلیفة خلیفته.

من هنا لا- یسند أیّ فعل فی هذا المقام الرفیع للعبد، بل یکون کما جاء فی التعبیر القرآنی: وَمَا رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ وَلَکِنَّ اللَّهَ رَمَی (۱)، فالله هنا لایقول: إرم بإذن الله، وإنّما یقول: إنّ هذا الرمی الظاهری لک هو رمی حقیقی واقعی من جانب الله.

إنّ الوقوع فی مقام خلافة الله معناه صیرورة العبد آیةً ومظهراً له سبحانه، کما أنّ جعل الله خلیفةً للعبد معناه صیرورته قیّماً وولیّاً علیه، إنّ هذا المقام یأتی تحت ظلّ قرب النوافل، فمثل هذا العبد الذی یصبح تحت الولایة الإلهیّة، یتکلّم باللّسان الإلهی، لا بلسانه، ویری بعین الله، لا بعینه، ویسمع بسمع الله، لا بسمعه (۲).

حقیقة النیّة

حقیقة النیّة هی قُرب العبد من ساحة قدس المولی، وهی لا تحصل دون انبعاث الروح والسیر الملکوتی؛ إذ مجرّد تصوّر أنّ امتثال الحجّ والعمرة هو لله سبحانه، وإن صدق علیه أنّه نیّة بالحمل الأوّلی، إلّا أنّه غفلة بالحمل الشائع، فعندما لا یتخلّق الحاجّ والمعتمر فی حیاته وسلوکه وسیرته بالأخلاق الإلهیّة، ولا یری أنّ هدفه النهائی من تمام شؤون حیاته هو نیل رضا الله تعالی ولقائه، فإنّ نیّته علی أرض الواقع تکون غفلةً؛ لأنّ قصد التقرّب لا یحصل دون تحقّق السیر الملکوتی، ومجرّد تصوّر القصد المشار إلیه لا یحقّق مصداق النیّة.

من هنا، ننتقل لموضوع آخر، وهو أنّ عبادیّة أیّ فعل رهینة لقصد القُربة، وقصد القربة لا یتحقّق دون تحقّق القُرب، وحصول التقرّب قصدٌ بالحمل الأوّلی وغفلةٌ بالحمل الشائع .. إذاً فالتقرّب معتبر فی حقیقة أیّ أمر عبادیّ، تماماً کما جاء فی الصلاة: «الصلاة قربان کلّ تقیّ» (۳)، وقریب من هذا التعبیر جاء فی الزکاة أیضاً، حیث ورد: «إنّ الزکاة جُعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام» (۴).

من هنا، لزم فی الحجّ والعمرة أن یُمزجا بالتقرّب من حیث کونهما عبادة؛ والتقرّب لا یحصل من دون السفر الباطنی.

ومن خلال ما تقدّم یمکن ترتیب مراتب نیّة القربة فی ظلّ الأسفار الأربعة، والمعیّن لمدارج هذا السیر، ومعارج هذا السفر، ومعالی هذا الصعود، ومراقی هذا العروج .. هو معرفة السالک وهمّة الناسک.

التلبیة

التلبیة من الأجزاء الواجبة فی عقد الإحرام، وهی ذِکرٌ خاصّ یستحبّ تکراره أیضاً بعد الإحرام حتّی الوصول إلی مکان معیّن أو متخطیاً زماناً خاصّاً، إنّ تکرار التلبیة عند کلّ مرتفع ومنخفض، وعند کلّ ارتفاع وانحدار یعنی تجدید الإنسان فی کلّ آن عهده مع إلهه تبارک وتعالی.

ولعلّ السرّ فی کون الرسول (ص) هو أعظم مَظْهَر للأسماء الإلهیّة أنّه کان أفضل شخص حجّ، وفهم أسرار الحجّ، لا سیما التلبیة، إنّ حجّ الرسول الأکرم کان یوازی معراجه، تماماً کما یقول الإمام الصادق (ع) فی بیانه لعلّه إحرام رسول الله (ص) من

۱- الأنفال: ۱۷.

۲- الکافی ۲: ۳۵۲.

۳- الكافی ۳: ۲۶۵.

۴- المصدر نفسه ۵: ۳۷.

ص: ۱۳

مسجد الشجرة: «... لأنّه لمّا اسری به إلی السماء وصار بحذاء الشجرة، نُودی: یا محمّد! قال: لبّیک، قال: ألم أجدک یتیماً فآویتک، ووجدتک ضالًّا فهدیتک؟ (۱)، فقال النبیّ (ص): إنّ الحمدَ والنِّعمة والمُلک لک، لا شریکَ لک ...» (۲).

رهبانیّة امّة الإسلام

یقول رسول الله (ص): «ابدِلنا بها [الرهبانیّة] الجهادَ والتکبیر علی کلّ شرف» (۳).

إنّ تعبیر «التکبیر علی کلّ شرف» ناظر إلی ذکر التلبیة الذی یردّده زوّار بیت الله الحرام عند کلّ مرتَفَع، بصوت عال واثق: «لبّیک» فهذه هی الرهبانیّة الممدوحة والمحمودة التی دعا الله سبحانه عباده إلیها، قال تعالی: وَإِیَّایَ فَارْهَبُونِ (۴).

إنّ احترام الله المأمور به فی هذه الآیة یعنی أخذ حریم اعتقادی له، بمعنی أنّ علی الإنسان التواضع والخشوع فی المحضر الإلهی الذی لا یری غیره، ولا یعتمد علی ما سواه، ولا یرتبط قلبه بما دونه، وهناک یعلن القول: لقد لبّیت أمرک وأتیتُ لمحضرک «لبّیک ...».

مثل هذا الحاجّ هو راهب الله، وهذا هو الحجّ الذی یشمل الرهبانیّة الممدوحة والمحمودة، التی دعینا إلیها (۵).

تجلّی التوحید فی التلبیة

حول ذکر التلبیة: «لبّیک اللّهُمَّ لبیّک، لبّیک لا شریکَ لک لبّیک، إنّ الحمدَ والنِّعمة لکَ والمُلک، لا شریکَ لک لبّیک، لبّیک ذا المعارج لبّیک ...»، یقول الإمام الصادق (ع): «... واعلم أنّه لابدّ من التلبیات الأربع التی کُنّ فی أوّل الکلام، وهی الفریضة، وهی التوحید، وبها لبّی المرسلون، وأکثر من ذی المعارج؛ فإنّ رسول الله (ص) کان یُکثر منها، وأوّل مَن لبّی إبراهیم (ع) ...» (۶).

وفی نهایة جوابه عن سؤال حول «إشعار البدن» (۷) الذی یعدّ بمثابة التلبیة فی بعض أقسام الحجّ ... یقول الإمام الصادق: «... ثمّ قُل: بسم الله، اللّهُمَّ منک ولک، اللّهُمَّ تقبَّل منّی» (۸).

إنّ هذا الحدیث الشریف، مثل دعاء الإحرام: «اللّهُمَّ إنّی أسألُکَ أن تجعلنی ممّن استجاب لک، وآمن بوعدک، واتّبع أمرک، فإنّی عبدُک، وفی قبضتک، لا أوقی إلّا ما وقیت، ولا آخذ إلّا ما أعطیت» (۹) ناظرٌ إلی ما سبق أن تحدّثنا عنه حول تمثّل التوحید فی الحجّ، حیث المقصود من الحجّ لقاء الله، وطرد کلّ ما سواه.

إنّ التلبیة جواب خالص لله سبحانه، من هنا فهی تُذیب کلّ الخسائس والانحطاطات، وتطرد کلّ شیطان خبیث متمرّد، تماماً کما یقول الإمام الصادق (ع) حول البیداء (۱۰) التی لبّی منها رسول الله (ص): «ها هنا یخسف بالأخابث» (۱۱).

طرد الجاهلیّة القدیمة والحدیثة

یطرد الحجّ بتلبیته الخاصّة المذکورة کلّ جاهلیّة، ویکسر کلّ صنم أو علامة للشرک الجاهلی، ویحطّم کلّ أنواع الباطل القدیمة والجدیدة، وبناءً علیه، فالحجّ شفاءٌ للقلوب من أمراض الشرک أو ما یتلوّث به، کالرِّیاء والهوی والبخل والعُجب و ...

ولتوضیح هذه النقطة نذکّر بأنّ التلبیة فی الحجّ فی العصر الجاهلی کانت نداءً للشرک وصرخةً للوثنیّة؛ لأنّ المشرکین کانوا یقولون فی تلبیتهم: «لبّیک اللّهُمَّ لبّیک، لبّیک لا شریک لک، إلّا شریکٌ هو لک، تملکهُ وما مَلک» (۱۲)؛ وبهذا الکلام کانوا یثبتون لله الشریک، رغم کون هذا الشریک مملوکاً لله نفسه!

۱- انظر: الضحی: ۶- ۷.

۲- وسائل الشیعة ۸: ۲۲۴- ۲۲۵.

۳- المحجّة البیضاء ۲: ۱۹۷.

۴- البقرة: ۴۰.

۵- بحار الأنوار ۱۴: ۲۷۷.

۶- وسائل الشيعة ۹: ۵۳.

۷- ينقسم الحجّ إلى ثلاثة أقسام: تمتّع، وإفراد، وقران، ولا ينعقد إحرام كلّ من العمرة المفردة، وعمرة التمتّع، وحجّ التمتّع، وحجّ الإفراد، إلّا بالتلبية، أمّا فى حجّ القران فالحاجّ مخيّر بين التلبية والإشعار أو التقليد، والإشعار يختصّ بالإبل المسوقة للأضحية، فيما يشترك التقليد بينها وبين سائر أقسام الأضحية. وفى الإشعار تشقّ بشكل بسيط الجهة اليُمنى لسنام الإبل، ثمّ يمسح الدم الخارج على بدن الإبل. أمّا التقليد فيعنى تعليق حذاء فى رقبة الهدى وهو الحيوان الذى يسوقه الحاج معه للأضحية. ولمزيد من الاطّلاع يمكن مراجعة كتب مناسك الحجّ.

۸- وسائل الشيعة ۸: ۱۹۹.

۹- المصدر نفسه ۹: ۲۳.

۱۰- البيداء: منطقة قريبة من مسجد الشجرة الكافى ۴: ۲۴۵، ۳۳۳- ۳۳۴، وقد جاء فى بعض الروايات أنّه يخسف بجيش الكفر فى آخر الزمان فى هذه المنطقة حال توجّهه نحو مكّة بحار الأنوار ۵۲: ۱۱۹، ۱۸۶، ۱۹۱، ۲۰۳-۲۰۴.

۱۱- وسائل الشيعة ۹: ۴۹.

۱۲- الكافى ۴: ۵۴۲.

ص: ۱۴

أمّا التلبیة فی الإسلام، فهی تضرّع واستغاثة بالمحضر الواحد المحض وصرخة صاعقة ضدّ مختلف أنواع الشرک الجلی أو الخفیّ، وهذا أمرٌ واضح لکلّ من شاهد صرخات التلبیة فی الصحراء القاحلة، وداوم علی ذکرها عند کلّ منخفض ومرتفع من الأرض.

إنّ نصوص أهل البیت (علیهم السلام) شاهدٌ علی ما قلناه، ومن بینها أنّ أیّ شخص یعمل بسنّة الجاهلیّة، أو یتلوّث بالمال الحرام، فإنّه یقال له عندما یلبّی: «لا لبّیک عبدی، ولا سعدیک» (۱)، من هنا یقول الإمام الکاظم (ع): «إنّا أهل بیت، حج صرورتنا، ومهور نسائنا، وأکفاننا، من طهور أموالنا» (۲).

إنّ الحجّ صرخة ضدّ الجاهلیّة، وهذا ما یجعلنا نفهم السبب فی أنّ الروایات الواردة فی تلبیة إبراهیم الخلیل وموسی الکلیم وخاتم النبیّین (علیهم السلام) أکثر بکثیر من الروایات الواردة حول سائر الأنبیاء والرسل (۳).

سرّ التلبیة

الإحرام والتلبیة استجابة لنداء الوحی والدعوة الإلهیّة، من هنا یقع الحجّاج الحقیقیّون عند التلبیة فی خوف عقلی مهول، یغیّر لونهم فیصیر مصفرّاً، ویأخذ بأصواتهم، ویدهشون ویقولون: نحن نخشی أن یُقال لنا بأنّکم لم تلبّوا نداء الحجّ علی نحو الحقیقیة، «لا لبّیک ولا سعدیک» (۴).

إنّ الحاج یعقد فی الحقیقة عهداً مع الله عندما یلبّی، مضمونه أنّنی لن أنطق بعد الآن إلّا بطاعتک، وسوف أقفل فمی عن النطق بالمعاصی کلّها (۵).

إنّ حجم اللِّسان قلیل، لکنّ جرمه کبیر وکثیر، والتلبیة تطهیر للِّسان عن کلّ معصیة ترتبط به، من هنا کان اللِّسان الزائر لبیت الله هو اللسان الطاهر.

من هذا کلّه یظهر أنّ سرّ التلبیة هو إطلاق اللِّسان بالحقّ والطاعة، ومنعه وتطهیره من مقولات الباطل والمعصیة، وهذا لیس فی زمان الحجّ والعمرة فحسب، بل و إلی الأبد.

مراتب التلبیة والملبّین ودرجاتهما

تتفاوت مراتب الملبّین طبقاً لتفاوت مراتب التلبیة، فبعضهم یلبّون إعلان الأنبیاء، وبعضهم یلبّون دعوة الله سبحانه، بعضهم یقول: إنّنا نستجیب لمن دعانا إلی الله، وقد جئنا نقول: «لبّیک داعی الله، لبّیک داعی الله» (۶)، وهؤلاء هم المتوسّطون من زوّار بیت الله حیث أجابوا دعوة إبراهیم الخلیل، الذی دعا إلی الحجّ بأمر من الله سبحانه: وَأَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجَالا وَعَلَی کُلِّ ضَامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ (۷).

وأعلی من هؤلاء، اولئک الذین یسمعون دعوة الله: وَلِلهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا (۸)، ویستجیبون لهذه الدعوة.

نعم، إنّ جواب خلیل الله هو جوابٌ لله سبحانه، ولا جواب لله من دون جواب دعوة الخلیل، إلّا أنّ التفاوت یقع فی شهود الزائر العارف لبیت الله، فکلّ إنسان یقع فی درجة هویّته ومرتبة إیمانه، ویعرف الله طبقاً لها، ویمضی معه المیثاق کذلک، کما یمتثل أوامره بالطریقة عینها.

بعضهم یعرفون الله بالواسطة، وبعضهم مثل الأنبیاء (علیهم السلام) یعرفونه بلا واسطة، ویعقدون معه العهد، ویعملون بأحکامه.

۱- وسائل الشیعة ۸: ۱۰۲.

۲- المصدر نفسه: ۱۰۳.

۳- المصدر نفسه ۹: ۴۷- ۴۹، ۵۵.

۴- بحار الأنوار ۴۷: ۱۶، و ۶۴: ۳۳۷.

۵- انظر حديث الشبلى المتقدِّم.

۶- الكافى ۴: ۲۰۶.

۷- الحجّ: ۲۷.

۸- آل عمران: ۹۷.

ص: ۱۵

إنّ الـذی یظهر فی نشأة الشـهادة هو حصـیلة عهد مرتبة الغیب، وبناءً علیه، رغم أنّ الجمیع عقدوا العهد مع نداء الله الجلیل سـبحانه، إلّا أنّ بعضـهم کان بواسـطة الخلیل وبعضـهم بلا واسـطة، ولهذا لم تکن التلبیة واحدة عند الجمیع، بل یمکن أن یقول شـخص: «لبّیک ذا المعـارج لبّیـک»، إلّـا أنّه فی واقع الأـمر یلبّی وَأَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَـجِّ، ویُجیب دعوة الخلیـل، لا دعوة الجلیل، ذلک أنّ التلبیـة فی مقام الظاهر تابعة لاستجابة الدعوة الإلهیّة فی عالم المیثاق الإلهی.

وتجلیةً لهذه النقطة، نلاحظ أنّ الناس جمیعاً یلبّون مرّتین، وهاتان المرّتان تقعان فی طول بعضـهما، إنّ هذه الإجابة والاسـتجابة لیسـت أمراً تاریخیّاً حتّی یکون قد مضی وانتهی، وإنّما هی امتداد واستمرار.

لقد تحدّث الله سبحانه عن الاولی منهما بقوله: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَی أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّکُمْ قَالُوا بَلَی (۱).

أمّا الثانیـة؛ فکانت أمر الله لإبراهیم الخلیل بإعلان الـدعوة العامّـة للحجّ: وَأَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ، وقد وصـلت هذه الدعوة للناس جمیعاً حتّی للّذین هم فی أصلاب آبائهم، واستجابوا لهذه الدعوة.

یقول الإمام الصادق (ع) فی هذا المضـمار: «لمّا اُمِرَ إبراهیم وإسـماعیل (علیهما السـلام) ببناء البیت وتمّ بناؤه، قعد إبراهیم علی رکن، ثمّ نادی: هلم الحـجّ، هلم الحـجّ ... فلبّی الناس فی أصـلاب الرجال: لبّیک داعی الله، لبّیک داعی الله عزّ وجلّ ... فمَن لبّی عشـراً یحجّ عشراً ... ومَنْ لبّی أکثر من ذلک، فبعدد ذلک، ومَنْ لبّی واحداً حجّ واحداً، ومَن لم یلبِّ لم یحجّ» (۲).

إنّ مشـهد التلبیـة لدعوة الخلیل تشابه مشـهدها لدعوة الله سـبحانه فی عالم الذرّ والذرّیة، فکما أنّ القضـیّة مسـتمرّة فی المشـهد الأوّل، کـذلک هی فی المشـهد الثانی؛ لأنّ حـدیثنا هنا عن اسـتجابة الفطرة والروح، لا عن اسـتجابة الذرّات فی الأصـلاب والأرحام بوصـف ذلک حدثاً تاریخیّاً.

إنّ تفـاوت المراتب المـذکورة للملبّین، حـدثٌ یتکرّر فی الکثیر من القضایـا الدینیّـة الاخری، مثل تلاوة القرآن الکریم وتلقّی السـلام الإلهی.

محرّمات الإحرام

الحـجّ مجموعـة منتظمـة من سلسـلة عبادیّة خاصّة، تسـتحقّ کلّ حلقة فیها تأمّلًا ونظرة؛ فکما تحرم امور عدیدة بأداء تکبیرة الإحرام فی الصـلاة وتصـبح غیر منسـجمة مع العبادة، لتظلّ محرّمـة حتّی یؤدّی المصـلّی التسـلیم نهایـة الصـلاة، کـذلک الحال فی الحجّ والعمرة، فبالإحرام والتلبیـة تحرم الکثیر من الامور (۳) التی یکون البُعـد التعبّـدی فی اجتنابها قویّاً، والاختبار الإلهی فیها کـذلک، وبهذا تکون دورة الإحرام رحلةً تعبّدیّة محضة وامتحاناً صرفاً (۴).

وبالقیام بمناسک الحجّ والوصول إلی مراسم التحلیل ینفکّ عقد الإحرام، ویخرج المحرم من دائرة المنع فی هذه المحرّمات.

إنّ الإحرام ورعایـة حدوده یحرّر الروح من أیّ قید لا سـیما من قیود الشـهوة والغضب، ویطهّر العقل من کلّ فکر باطل، وینجّی القلب من الخیال الغافل؛ لأنّ کلّ ما یوجب ظلمة الروح وتلوّن النفس قد حرّم حال الإحرام، حتّی تکون الروح الطاهرة والنفس الخالصة أهلًا للطواف فی بیت الله، ذلک البیت المنزّه عن کلّ لوث وقذارة.

بیت الله هو محور الحرّیّـة ومـدارها، من هنا لم یکن یحقّ للمحرم الآتی لزیارته أن یأسر فیه الصـید، أو یساعد علی أسره، أو ینفّره أو یدلّ الصیّاد علیه؛ لأنّ هذه الأعمال کلّها تتنافی مع روح الرغبة فی الحرّیّة، وما لم یُحرِّر الإنسان نفسه فلن یکون لدیه صلاحیّة الطواف فی محلّة الحرّیّة.

١- الأعراف: ١٧٢.

٢- الكافی ۴: ۲۰۶- ۲۰۷.

٣- محرّمات الإحرام على ثلاثة أقسام بلحاظ المكلّف هی:

أ- المحرّمات المشتركة بين الرجال والنساء، وهی: ١- قلع الشعر عن البدن، أو بدن الآخرين سواء المحرم وغيره. ٢- إخراج الدم من البدن. ٣- قصّ الأظافر. ۴- قلع الأسنان. ۵- قلع شجر الحرم أو نباته. ۶- حمل السلاح إلّا فی حال الضرورة. ٧- الصيد إلّا مع الخوف منه. ٨- أنواع الاستفادة من الطِّيب.

٩- الاكتحال. ١٠- النظر فی المرآة. ١١- الجدال.

١٢- دهن البدن. ١٣- العقد سواء الدائم أم المنقطع، وكذلك الشهادة على العقد. ١۴- الاستمناء.

١۵- العمل الجنسی مطلقاً؛ مثل النظر بشهوة، أو التقبيل، أو الجماع، وأیّ لذّة جنسيّة. ١۶- لبس الخاتم للزينة وكذلك الحنّاء. ١٧- الفسوق، وهو الكذب والافتخار والفحش والتباهی. ١٨- قتل حشرات البدن أو رميها.

ب- المحرّمات الخاصّة بالرجال، وهی:

١- تغطية الرأس. ٢- التظليل حال الحركة والسفر. ٣- لبس المخيط. ۴- لبس الحذاء أو الجوراب الساتر لظهر القدم بتمامه.

ج- المحرّمات الخاصّة بالنساء، وهی:

١- تغطية الوجه. ٢- لبس الحلیّ للزينة.

وبناءً عليه، فمحرّمات الإحرام عددها أربعة وعشرون. وللاطّلاع على خصائصها وتفصيل أحكامها، وكذلك كفّاراتها وما يترتّب على عدم مراعاتها، يمكن مراجعة كتب مناسك الحجّ.

۴- نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢ القاصعة، الفقرة: ۵٣- ۶۵.

ص: ۱۶

من هـذا كلّه، وضع الله سبحانه مكاناً مقـدّساً بظروف مناطقيّـة غير ملائمـة ليجعله مركزاً للاختبار فى سياق إيجاد التناغم بين التكوين والتشـريع، حتّى يتمكّن الخلق من التخلّص من الملوّثات والتعلّقات والأقـذار والتطهّر من الخبائث والنجاسات فى رياضاتهم الممدوحة التى تتمّ من خلال محرّمات الإحرام، وكذلك عبر مناسك الحجّ والعمرة (۱).

وكـأنموذج على الاختبـار المـذكور، جرى تحريم الاسـتفادة من العطور والروائـح الجميلـة حـال الإحرام من جهـة، كما منع- من جهة اخرى- من إغلاق الأنف ووضع اليـد عليه عنـدما يحتـكّ الإنسـان حال أداء مناسك الحـجّ والعمرة أو يجالس أشـخاصاً تفوح منهم الرائحة الكريهة، وكذلك عند العبور من مكان ذبح الأضاحى ... إنّ مثل هذه الامور تكسر أنانيّة الإنسان وعنجهيّته وكبرياءه وتفاخره، بحيث تحوّله بعد إنجاز أعمال الحجّ والعمرة إلى عبد حرّ مُنعتق لله.

هـذه الـدورة البانيـة للإنسـان، تؤثّر تـأثيراً كبيراً فى المجتمع، فاولئـك الـذين لم يكونوا ليتورّعوا عن أكـل العظايـة فى عصـر الجاهليّة الوحشـى، وكانوا يتسابقون فى اصـطياد هذا الحيوان، أصبحوا الآن يترفّعون عن ظبى الصحراء، حتّى تمكّنوا فى عصر التمدّن الإسلامى من الانتصار على كلّ الميول والرغبات الذاتيّة بتأثير من الأوامر الإلهيّة.

لـدورة الإحرام الغنيّـة بالمُعطيات تأثيرٌ كبير على بناء الشخصـيّة الإنسانيّـة، تشاهـد نتائجها العمليّـة الرائعـة فى المجتمع المعتقد والملتزم بمحتوى الحجّ والزيارة.

۱- المصدر نفسه.

ص: ١٧

ص: ۱۸

ص: ١٩

ص: ۲۰

السعی

الخلفیّة التاریخیّة للسعی

السعی فی الحجّ یرمز إلی قصّة هاجر وإسماعیل (علیهما السلام)، وقصّتهما معروفة عندما ترکهما إبراهیم (ع) بواد قفر غیر ذی زرع، وترک عندهما قلیلًا من الماء والطعام.

فلمّا نفذ ما کان عندهما من الماء غلب الظمأ علی إسماعیل وخافت امّه هاجر علیه من الهلاک فبدأت تسعی جاهدةً تبحث له عن ماء، من الصفا إلی المروة وبالعکس؛ تنظر إلی الافق البعید تبحث لطفلها عن الماء، حتّی إذا کانت فی الشوط السابع من سعیها بین الصفا والمروة ألقت من المروة نظرة إلی حیث یقع بئر زمزم الیوم بالقرب من موقع المسجد الحرام فوجدت الماء یتفجّر من تحت قدم الطفل، فترکت سعیها، وهرولت نحو إسماعیل تسقیه، وتلملم الماء لئلّا یذهب هدراً فی الأرض القفر، وتقول: زم زم.

وقد سجّل الله تعالی سعی هذه المرأة الصالحة امّ إسماعیل یومئذ إلی الماء لإنقاذ رضیعها فی ذاکرة التاریخ، وجعل من سعیها منسکاً من مناسک الحجّ.

معنی السعی

إذن (السعی) فی الحجّ یرمز إلی مسألة أساسیّة فی حیاة الإنسان؛ وهی حرکة الإنسان فی الدُّنیا سعیاً من وراء الرزق فی الدُّنیا، أو رضوان الله ورحمته فی الآخرة.

وسعی هاجر من هذا السعی، وسعی المریض إلی الطبیب، والتلمیذ إلی المعلّم، والعامل فی العمل، والفلّاح فی المزرعة، والتاجر فی السوق، من هذا السعی، ومن ذلک سعی الإنسان إلی اکتساب رضوان الله ورحمته فی الآخرة وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَی لَهَا سَعْیَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِکَ کَانَ سَعْیُهُمْ مَشْکُوراً (۱).

وعلی نحو الاختصار: السعی کلّ حرکة هادفة تؤمّن للإنسان حاجاته، وهذه الحاجات قد تکون فی الدُّنیا، وقد تکون فی الآخرة.

وللإنسان حاجات کثیرة فی الدُّنیا فهو یحتاج إلی أن یؤمّن لنفسه رزقه واستقراره وراحته وأمنه وکرامته وشهواته وغرائزه فی الدُّنیا.

وقد یکون ذلک بالسعی الحلال، وقد یکون ذلک بالسعی الحرام ... یقول تعالی: إِنَّ سَعْیَکُمْ لَشَتَّی (۲)؛ وهو إشارة إلی تنوّع سعی الإنسان فی الدُّنیا من السعی الحلال والحرام، والسعی الصحیح والباطل.

وللإنسان حاجات للآخرة، یسعی لها فی الدُّنیا من غفران الله ورحمته ورضوانه ونعیمه فی الجنّة.

دروس من سعی امّ إسماعیل (علیهما السلام)

فی الوادی القفر

المشاهد الثلاثة لقصّة إبراهیم ۷ وهاجر ۳ والدروس الثلاثة:

سعی هاجر، امّ إسماعیل، فی الواد القفر، مشهد واحد من ثلاثة مشاهد من قصّة هجرة إبراهیم (ع) بهاجر، وإسماعیل إلی الحجاز، بواد غیر ذی زرع إلی موضع البیت الحرام الیوم.

۱- الإسراء: ۱۹.

۲- اللیل: ۴.

ص: ۲۱

هذه القصّهٔ بفصولها الثلاثهٔ تعدّ من روائع التوحید.

وهی ذات مشاهد ثلاثهٔ:

بطل المشهد الأوّل فیها هو إبراهیم (ع) حیث هاجر بزوجته (امّ ولده) امّ إسماعیل، وولده إسماعیل (علیهما السلام) إلی واد غیر ذی زرع، وترکهما لوحدهما فی واد قفر، لا ماء فیه ولا زرع، ولا بشر ولا طیر، وغادرهما مستودعاً الله إیّاهما.

وبطلهٔ المشهد الثانی هاجر (س)، امّ ولد إبراهیم، حیث تتقبّل هذه الهجرهٔ؛ لأنّ الله تعالی أمره بها، فلمّا نفذ ما لدیها من الماء وغلب الظمأ علی إبنها إسماعیل (ع) بدأت بالسعی بین الجبلین بحثاً عن الماء حتّی استجاب الله تعالی لسعیها ودعائها وفجّر لها الماء من تحت قدم إسماعیل.

وبطل المشهد الثالث هو إسماعیل (ع)، حین عاد إلیه أبوه إبراهیم- وهو یومئذ شاب یافع- فأبلغه بأمر الله تعالی له بأن یذبح ابنه بیده: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْیَ قَالَ یَا بُنَیَّ إِنِّی أَرَی فِی الْمَنَام أَنِّی أَذْبَحُکَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَی. قَالَ یَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِن الصَّابِرِینَ* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِینِ* وَنَادَیْنَاهُ أَنْ یَا إِبْرَاهِیمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْیَا إِنَّا کَذَلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ (۱).

ویتضمّن کلّ مشهد من مشاهد القصّهٔ الثلاثهٔ درساً عالیاً من دروس التوحید، نُشیر إلیه هنا باختصار:

الدرس الأوّل: التوکّل والثقهٔ بالله

لقد جاء إبراهیم (ع) بزوجته هاجر (امّ إسماعیل) إلی هذا الواد القفر بأمر من الله: «وکان إبراهیم لا یمرّ بموضع حسن فیه شجر ونخل وزرع إلّا قال لجبرئیل إلی هاهنا، فیقول: لا أمض حتّی أتی مکّهٔ ... فلمّا نزلوا فی ذلک المکان کان فیه شجرهٔ، فألقت هاجر علی ذلک الشجر کساءً کان معها فاستظلّوا تحته، فلمّا سرحهم إبراهیم ووضعهم وأراد الانصراف منهم إلی سارهٔ، قالت له هاجر: یا إبراهیم لِمَ تدعنا فی موضع لیس فیه أنیس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهیم: الله الذی أمرنی أن أضعکم فی هذا المکان، ثمّ انصرف ... فلمّا بلغ کراء، وهو جبلٌ بذی طوی التفت إلیهم إبراهیم فقال: رَبَّنَا إِنِّی أَسْکَنتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوَاد غَیْرِ ذِی زَرْع عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِیُقِیمُوا الصَّلَاهَٔ فَاجْعَلْ أَفْئِدَهًٔ مِن النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ، ثمّ مضی وبقیت هاجر» (۲).

وهذا هو الدرس الأوّل فی هذه القصّهٔ.

ثقهٔ مطلقهٔ بالله تعالی وطاعهٔ له وتوکّلٌ علیه، یترک زوجته وولده إسماعیل، فی هذا الوادی القفر ویذهب عنهم بأمر الله تعالی، قد جعل الله تعالی علیهم وکیلًا عنه فی رعایتهم وحراستهم، وغادرهما واثقاً بالله، متوکّلًا علیه، سائلًا إیّاه أن یرعاهما ویرزقهما من الثمرات.

الدرس الثانی: السعی

وهذا هو الدرس الثانی الذی یتضمّنه موقف امّ إسماعیل، تقول الروایهٔ المتقدّمهٔ، وهی عن هشام، عن أبی عبدالله (ع):

«فلمّا ارتفع النهار عطش إسماعیل، وطلب الماء، فقامت هاجر فی الوادی فی موضع السعی، ونادت، هل فی الوادی من أنیس؟ فغاب عنها إسماعیل، فصعدت علی الصفا ولمع لها السراب فی الوادی وظنّت أنّه ماء، فنزلت فی بطن الوادی وسعت ... حتّی بلغت سبع مرّات، فلمّا کان فی الشوط السابع، وهی علی المروهٔ، نظرت إلی إسماعیل، وقد ظهر الماء من تحت رجلیه، فعادت إلیه» (۳).

۱- الصافّات: ۱۰۲- ۱۰۵.

۲- تفسیر علیّ بن إبراهیم القمّی ۶۰: ۱- ۶۱ تحقیق السیّد طیب الموسوی الجزائری، والآیهٔ الکریمهٔ من سورهٔ إبراهیم، الآیهٔ ۳۷.

۳- تفسیر علی بن إبراهیم القمّی ۶۱: ۱.

ص: ۲۲

وهـذا هو درس السـعی ... لم تیـأس من طلب المـاء فی ذلک الوادی القفر، ولم تتعب من السـعی سـبعة أشواط من الصـفا إلی المروة وبالعکس، حتّی رزقها الله الماء فی الوادی غیر ذی الزرع.

الدرس الثالث: التسلیم والطاعة والصبر علی الطاعة

الدرس الثالث لابنها إسـماعیل (ع)، إذ عاد إلیه أبوه إبراهیم (علیهما السـلام)، وقد ترکه طفلًا صـغیراً بجانب امّه بواد قفر غیر ذی زرع، من غیر طعام ولا شـراب، ولا أنیس، فعاد إلیه وهو شاب یافع یرعی الأغنام مع شباب جُرْهم، یملأ عینی أبیه الشیخ وقلبه بجماله ... فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْیَ قَالَ یَا بُنَیَّ إِنِّی أَرَی فِی الْمَنَامِ أَنِّی أَذْبَحُکَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَی قَالَ یَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَـتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللهُ مِن الصَّابِرِینَ* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِینِ (۱).

یستسلم إسماعیل لأمر الله، ویقول لأبیه: سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللهُ مِن الصَّابِرِینَ.

هذه دروس ثلاثة فی التوحید من إبراهیم وزوجه وولدهما (علیهم السلام):

(التوکّل علی الله والثقة به)، و (السعی إلی رزق الله)، و (التسلیم لأمر الله والصبر علی ذلک).

وکلّ هذه الدروس من التوحید ... ولست بقادر علی الترجیح فیما بینها وتفضیل بعضها علی بعض.

أیّ موقف هو الأفضل؟ موقف الأب وهو یترک زوجه وولـده بواد غیر ذی زرع، من دون أنیس ولا طعام ولا شـراب ویقـدم علی ذبح ولده إسـماعیل، أم الامّ وهی تسعی فی ذلک الوادی للبحث عن الماء لتنقذ ابنها من الهلاک، أم موقف الولد وهو یستسلم لأمر الله أن یُذبح علی ید أبیه، وهو یقول: سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللهُ مِن الصَّابِرِینَ.

ولکنّها دروس عالیة فی التوحید.

سبعة دروس من سعی امّ إسماعیل:

ونحن هاهنا نقتصرها علی درس (السعی) وهو الدرس الذی نتلقّاه هنا، فی هذه القصّة من امّنا امّ إسماعیل (س).

لقد شاء الله تعالی أن یثبت سعی هاجر (امّ إسماعیل) فی واحدة من أعظم فرائض الإسلام ألا وهی فریضة الحجّ.

ویـأمر الله تعـالی الأبنـاء أن یجروا فی کلّ عام علی خُطی امّهم امّ إسـماعیل بین الجبلین الصـفا والمروة، ویعیـدوا ذِکر سـعیها فی هـذا الوادی، جیلًا بعد جیل.

لقد تضـمّن سعی امّ إسماعیل یومئذ بجوار البیت الحرام دروساً فی التوحید والسلوک إلی الله، نذکر طائفة منها، بقدر ما یتّسع له صدر هذا المقال. وإلیک هذه الدروس تِباعاً:

۱- السعی من منازل الرحمة

إنّ رحمـة الله تعـالی نازلـة تفیض علی النـاس، فی کلّ زمان ومکان، لا یخلو منها زمان ولا مکان، ولکن لرحمته تعالی منازل خاصّـة، تنزل الرحمة فی هذه المنازل، لا کما تنزل فی سائر المواضع ... إنّها تصبّ فی هذه المنازل بغیر حساب.

ومن یطلب رحمة الله فعلیه أن یطلبها فی هذه المنازل، والعارفون من عباد الله هم الذین یعرفون هذه المنازل، کما یعرف الناس بیوتهم وأولادهم، یرصدون هذه المنازل ویبتغون فیها رحمة الله.

من هـذه المنازل المنازل الزمانیّـة؛ مثل لیلـة الجمعـة، ولیلـة النصف من شـعبان، ویوم عرفـة، ولیلة القدر، وشـهر رمضان، وشـهر رجب وشعبان، وقد ورد فی شهر رجب أنّ الرحمة تصبّ فیه صبّاً، لذلک یُقال له: (رجب الأصبّ).

ومن هـذه المنـازل المنـازل المکانیّـة؛ مثـل بیت الله الحرام، ومسـجد رسـول الله (ص)، ومسـجد الکوفـة، والمسـجد الأقصـی، والحـائر الحسینی وسائر المساجد.

۱- الصافّات: ۱۰۲- ۱۰۳.

ص: ۲۳

ومنها المنازل النفسیّة؛ کحالة الإنکسار والبکاء والخشوع فإنّها أقرب الحالات إلی رحمة الله تعالی، ویُستجاب فیها الدّعاء وقد ورد فی النصوص الدینیة: إنّ الله فی القلوب المنکسرة، ومنها غیر ذلک ... والدّعاء من منازل الرحمة، والتقوی من منازل الرحمة.

و (السعی) من منازل الرحمة، فمَن أراد الرزق فعلیه أن یسعی فی الأسواق، ومَن أراد العلم فعلیه أن یسعی إلیه فی المدارس، ومَن أراد الشفاء فعلیه أن یسعی إلیه لدی الأطبّاء ... وهکذا.

جعل الله (السعی) من منازل الرزق والرحمة، فلو أنّ الإنسان لم یخرج من بیته سعیاً إلی الرزق لا یُرزق، ولو أنّ الإنسان لم یخرج إلی المدارس سعیاً إلی العلم لا یتعلّم.

لقد کانت امّ إسماعیل تعلم أنّها فی واد غیر ذی زرع، لا یوجد فیه ماء، ولا إنسان، ولکنّها لمّا وجدت أنّ وحیدها إسماعیل (ع) یکاد أن یهلک من الظمأ تحرّکت وسعت، وأعادت الحرکة والسعی سبعة أشواط، لا تکلّ ولا تملّ، ولا تتعب ولا تیأس من السعی حتّی رزقها الله الماء.

۲- والرزق من عند الله

قد جعل الله تعالی السعی مفتاحاً للرزق، ولکن الرزّاق هو الله تعالی، وعلی الإنسان أن یعرف کلًّا من هاتین الحقیقتین.

وقد یطلب الله من عبده السعی ثمّ یجعل رزقه فی غیر موضع السعی؛ حتّی یأخذ العبد بأسباب السعی ویتکامل بالسعی، ثمّ یجعل رزقه فی غیر موضع السعی، حتّی تبقی ثقة العبد فی الرزق بالله تعالی، ویعلم أنّ الله هو الرزّاق.

لقد بلّغ رسول الله (ص) الإسلام فی مکّة طویلًا، ودعا قریش إلی دین الله، وتحمّل من قریش هو وأصحابه الکثیر، وذهب إلی الطائف، وبعث أصحابه إلی اولی الهجرتین، الحبشة، فلمّا أذنَ الله تعالی لهذا الدِّین أن ینتشر جعل الله تعالی الانفتاح الأوّل علی الإسلام فی یثرب (المدینة) ولیس فی مکّة، ولا فی الطائف، ولا الحبشة، وإنّما کان فی یثرب حیث کان الفتح الأوّل لهذا الدِّین.

وقد سعت هاجر فی هذا الوادی القفر سبعة أشواط بحثاً عن الماء، تسعی من الصفا إلی المروة، ثمّ من المروة إلی الصفا، ولکن الله تعالی لم یجعل رزقها ورزق ابنها من الماء فی موضع سعیها وبحثها بین الصفا والمروة، وإنّما جعله علی طرف الوادی عند البیت الحرام.

کان لابدّ لها من السعی، بحثاً عن الماء، وکان لابدّ لها أن تعلم أنّ الله هو الذی فجّر الماء من تحت قدم إبنها، ولیست هی التی اکتشفت الماء، کان لابدّ لها من السعی، ولابدّ لها من الوعی إنّ السعی ضرورة من ضرورات حیاة الإنسان فی التکوین والتشریع معاً، لایمکن أن یستغنی عنه الإنسان، ولا یسمح بالتخلّی عنه الدین، ولکن السعی- للأسف- عامل مضلّل فی حیاة الإنسان، یحجب الإنسان عن الله، ولکی لا یؤدّی السعی إلی تضلیل الناس، فقد یجعل الله تعالی رزق عباده فی غیر موضع سعیهم، وهکذا کان الأمر فی سعی هاجر.

۳- التوحید فی السعی

إنّ سعی الإنسان شتّی، فقد یسعی لآخرته، وقد یسعی لدُنیاه، وقد یسعی لمعاشه وقد یسعی لمعاده. الإنسان قد یعمل فی السوق، ویذهب للتجارة، ویتزوّج، وقد یصلّی ویصوم ویحجّ ویذکر الله، وکلّ ذلک سعی.

فهل تکون وجهة الإنسان فی صلاته وصومه وحجّه وذکره إلی الله تعالی، وفی زواجه وسعیه فی السوق إلی نفسه (الأنا)، وفی علاقاته الاجتماعیّة وخدماته الإنسانیّة إلی الآخرین ...؟

وهذه هی حالة (تعدّدیة الوجهة)، وهی حالة معروفة لدی أکثر الناس، وهذه الحالة تشتّتهم وتحرفهم عن التوحید.

ص: ۲۴

وفی مقابل هـذه الحالـة حالـة (وحـدة الوجهـة)، وهی الحالـة التی دعا إلیها أبونا إبراهیم (ع): إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِی لِلَّذِی فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِیفاً وَمَا أَنَا مِن الْمُشْرِکِینَ (۱).

فتکـون وجهـة الإنسـان فی کـلّ أحـواله إلی الله سواءً فی المسـجد، أم فی السوق، أم فی الـبیت، أم فی المزرعـة، أم فی الحرب أم فی السلم، وفی السرّاء والضرّاء، وفی الیُسر والشدّة.

فإنّ من الناس من یتوجّه إلی الله فی البأساء والضرّاء، وینقلب إلی نفسه ودُنیاه فی أیّام العافیة والسرّاء.

ومن الناس من یتوجّه إلی الله فی المسجد، وإلی دنیاه فی السوق.

ولا یکتمل للإنسان التوحیـد، إلّا حینما یجعل الله تعالی وجهته فی السـرّاء والضـرّاء، وفی الشـدّة والرخاء، وفی المسـجد والسوق ... فی کلّ هذه المواقع تکون وجهته إلیه تعالی (۲).

۴- السعی والکلم الطیّب

إنّ سـلوک الإنسان إلی الله «سـعی» و «کلم طیّب»، وإلی هذا یشیر قوله تعالی: إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ یَرْفَعُهُ، والکلم الطیّب الصاعد إلی الله هو نیّة التقرّب إلی الله، والإخلاص، والخشوع، والتضرّع، والحبّ والبغض، والولاء، والبراء.

والـذی یصـعد إلی الله هو الکلم الطیّب، إلّا أنّ الذی یرفع الکلم الطیّب إلی الله هو العمل الصالح وهو (السـعی)، وسوف یأتی توضیـح أکثر لهذه الآیة.

فلا یصحّ تفریغ السعی من الکلم الطیّب؛ لأنّ السعی من دون الکلم الطیّب لا قیمة له ولا یعرج منه شیء إلی الله.

ولا یصـحّ تجرید الکلم الطیّب عن العمل الصالح (السـعی)؛ لأنّ الکلم الطیّب یبقی عندئذ علی الأرض، ولا یصـعد إلی الله؛ لأنّ العمل الصالح هو الذی یرفع الکلم الطیّب إلی الله وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ یَرْفَعُهُ.

ولستُ أدری ماذا کان یغلی فی نفس امّ إسـماعیل یومئذ، فی ذلک الوادی القفر، وهی تلهث راکضةً من الصفا إلی المروة وبالعکس، من الـدّعاء، والاسـتغاثة بالله، والاضـطرار إلی الله، وهی تری وحیـدها إسـماعیل یکاد یهلک من شـدّة الظمأ، ولا تعرف لابنها ولنفسـها مخرجاً من هذا الهلاک إلّا أن یرحمها الله.

لستُ أدری ماذا کان یغلی فی صدرها من دعاء واستغاثة لله تعالی ...؟ ولکنّنا نعلم أنّ الله تعالی أسرع فی الاستجابة لدعائها واستغاثتها وسعیها، وأغاث لهفتها، وفجّر الماء تحت قدم ابنها، فرجعت المرأة إلی ابنها وهی قریرة العین باستجابة الله لدعائها أوّلًا، وبنبع الماء من الأرض تحت قدم ابنها ثانیاً.

أیّهما کان أقرّ لعین تلک المرأة یومئذ فی ذلک الوادی القفر:

شعورها بملأ قلبها وعقلها بأنّ الله تعالی أغاثها واستجاب دعاءها، أم الماء العذب البارد الذی کان یتدفّق من الأرض تحت قدم ولدها، وهی تلملمه، وتقول: زم زم لئلّا یذهب هدراً.

نحن لا نتردّد لحظة واحدة أن نقول: إنّ الأوّل کان أقرّ لعینها من برد الماء المتدفّق من الأرض.

وأیّ شـیء أقرّ لعین إنسانـة واعیـة عارفة من مثل هاجر أن تعرف أنّ الله تعالی سـمع فی ذلک الوادی القفر دعاءها وعرف اضـطرارها، وکان سـعیها ولهاثها بعینه وسـمعه تبارک وتعالی، فاستجاب لدعائها. فی حین لم یسمعها، ولم یسمع نداءها واستغاثتها أحدٌ فی ذلک الهجیر، ولم یرَ أحـد سـعیها ولهاثهـا بحثـاً عن المـاء .. ولکن الله تعـالی رآهـا وسـمعها ورحمهـا وأغاثهـا، واسـتجاب لهـا، وأذاقهـا برد الاستجابة والإغاثة بعد الاضطرار ولهفة الاستغاثة.

حنانیک یاربّ، ما أعذب رحمتک، وما أجمل صنعک، وما أسرع إغاثتک، وما أوسع رحمتک بعبادک.

۱- الأنعام: ۷۹.

۲- قد تكون هذه الحالة من التوحید، وقد تكون من الإخلاص، فإذا كانت وحدة الوجهة بمعنی وعی الإنسان إلی أنّ مصدر كلّ حول وقوّة فی سعی الإنسان واحد، وهو الله تعالی، مهما تنوّع السعی، أو أنّ مصدر الرزق فی كلّ سعی الإنسان واحد، وهو الله تعالی، فیكون النصر من الله، والرزق من عند الله، والشفاء من عند الله، والعلم من عند الله، والهدایة من عنده تعالی، فیعطی الإنسان وجهه إلی الله فی كلّ شیء وفی كلّ شأن وفی السرّاء والضرّاء ... وهذا من التوحید.
وقد تكون وحدة الوجهة بمعنی الإخلاص، بمعنی أنّ غایة الإنسان فی كلّ ساحات الحیاة واحدة وهی مرضاة الله تعالی، وهذا هو الإخلاص.

ص: ۲۵

وَرَحِمَكِ الله يـا امّنـا، فقـد فقـدت فی ذلـک القفر الهجير الأهـل وحنانهم، وفقـدت الماء والطعام، وفقـدت من يسـمعک ويعينک ... ولكنّک وجدت الله.

فماذا فقدت؟ وماذا وجدت؟

وسلام الله على عليٍّ زين العابدين حيث يناجى الله قائلًا: إلهی ماذا فقد مَن وجدک.

فما أرخص ما فقدت وما أغلى ما وجدت، ولعلّ الله يرزق أبناءک فی تقلّبهم فی الحياة بعض ما وجدت يومئذ فی ذلک القفر الهجير.

۵- المبارکة للسعی

إنّ السعی الصادق، الخالص، الناصح منزل من منازل رحمة الله دائماً، ينزل الله تعالى إليه برکاته.

لقد جعل الله تعالى تلک العين التی تفجّرت عند قدم إسـماعيل بسعی هاجر امّ إسماعيل، ماءً مبارکاً ومنهلًا عذباً لحجّاج بيته، على مرّ العصور، منذ عصر إبراهيم وهاجر وإسماعيل إلى اليوم، يشرب منه الحجّاج ويروون منه ويتبرّكون به ... وقد روى عن رسول‌الله (ص): «ماء زمزم لما شرب له. من شربه لمرض شفاه الله، أو لجوع أشبعه الله، أو لحاجة قضاها الله» (۱).

وقد كان الناس يشربون من ماء زمزم ليرزقهم الله العلم والمعرفة (۲).

ولا زال الناس يستشـفون ويتبرّكون بماء زمزم. ولا زال زمزم يروى ملايين الحجّاج والمعتمرين الـذين يقصـدون البيت الحرام فی كلّ عام.

إنّ السعی لوحده، إذا انسلخ عن النيّة الصادقة والإخلاص وسائر الكلم الطيّب لا يكون موضعاً لمثل هذه البرکات العظيمة.

إنّ هذه البرکات من صنع الله تعالى، وليس من صنع الإنسان، لا يصـنعها الإنسان بسـعيه وجهده، وإنّما يصـنعها الله تعالى حيث يعرف الصدق والإخلاص فی السعی.

إنّ السـعی عقيـم مـن دون الصـدق والإخلاص، ومبـارک تتّصـل برکـاته ومنـافعه بالصـدق والإخلاص ... وهمـا الكلمتـان الطيّبتـان المبارکتـان فی سـعی الإنسان، والبرکـة ليست بحجم العمل، فقـد أسّـس رسول الله (ص) فی المدينـة المنوّرة مسـجداً على التقوى من الطين وجذوع النخيل وسعف النخيل ... وكان هذا المسجد مصدر خير وبرکات كثيرة على المسلمين منذ أسّسه رسول الله (ص) على التقوى إلى اليوم ... وبنى الملوک والخلفاء والسلاطين مساجـد عظيمة، بتكاليف باهظة لا تجد لها اليوم أثراً غير الخرائب التی يحتفظ بها هواة الآثار ... أرأيت مسجد العبّاسيّين فی سامراء؟

۶- التكريم

وكم يسـعى النـاس فی حيـاتهم، ويعملون ويتحرّكون، ولكن الله تعـالى ينتقی سـعی هـذه المرأة الصالحـة، فی الوادی القفر، دون سائر سعی الناس، ليكون جزءاً من مناسک الحجّ.

كيف رقى هذا السعی عند الله إلى هذا الموقع المتميّز الممتاز، فكان جزءً من مناسک فريضة الحجّ دون سائر سعی الساعين؟ لا نعلم.

ولكن لكلّ انتقاء واختيار من عند الله سنن وقوانين وقواعد وحساب ... ولسنا نعلم من هذه السنن والقواعد إلّا القليل.

لقد كانت هاجر (أَمَة)، ولم تكن حُرّة، وكانت امّ ولد إبراهيم، والناس لا يعبؤون فی حساباتهم فی التقييم بمثل هذه المرأة، ولا يدخل سعيها فی أولويّات التقسيم والتفضيل.

۱- الدر المنثور ۲۲۱: ۳.

۲- سفينة البحار، مادّة زم.

ص: ۲۶

ولکن لله تعالی حساب آخر فی التقییم والتفضیل، یختلف عن حساب سائر الناس، فیکرمها الله تعالی دون کثیر من الرجال والنساء الأحرار، وینتقی سعیها فیجعله جزءاً من مناسک الحجّ والعمرة، ویأمر أنبیاءه وأولیاءه وعباده أن یحذوا حذو تلک المرأة الصالحة بین جبلی الصفا والمروة فی السعی.

إنّ کلّ هذا التکریم من ربّ العالمین کان لإمرأة ابتلاها الله تعالی فی هذا الوادی قبل عدّة آلاف من السنین سعت فی هذا الوادی بحثاً عن الماء تلهث من الصفا إلی المروة وبالعکس، راضیةً بقضاء الله، منقادة لأمره، داعیةً له، ومستغیثةً به ... ولم یرها یومئذ أحدٌ من الناس، ولکن الله تعالی رآها، واستجاب دعاءها، وأکرمها، وثبّت سعیها فی مناسک الحجّ والعمرة، لیتعلّم الناس أنّ مقاییس التقییم والتفضیل عند الله شیء آخر، غیر ما فی أیدی الناس من المقاییس، وأنّ من تزدریه عیون الناس قد یرفعه الله، ومن یعظّمه الناس قد یزدریه الله ویحتقره.

۷- لم تستسلم للیأس والإحباط

عجیب أمر هذه المرأة فی ذلک الوادی القفر، لم تستسلم للیأس، ولم یسلبها التعبُ القدرةَ علی السعی والحرکة، ولم تفقد الأمل فی تحصیل الماء.

والروایة تذکر أنّها رفعت صوتها مستغیثةً فلم یجبها أحد، وأخذت تسعی بین الصفا والمروة وبالعکس تبحث عن الماء، ولم یتطرّق إلی روحها الیأس، ولم یعطّل التعب حرکتها، حتّی رأت الماء، فی الشوط السابع من علی قمّة المروة، یتدفّق تحت قدم ابنها، بالقرب من موقع الکعبة المشرّفة الیوم.

ولو أنّ هذه المرأة کانت مقطوعة عن الله لم یکن بوسعها أن تقاوم کلّ هذه المقاومة، ولاستسلمت للیأس والتعب وسقطت علی الأرض، ولکن الإیمان بالله، والثقة برحمته، والأمل العظیم فی غوثه السریع، یهب من القوّة والمقاومة والصمود والثبات للمؤمنین، ما لا قِبلَ لأحد به.

عجبٌ أمر هذه المرأة فی توکّلها العظیم علی الله، حیث قبلت أن تبقی فی الوادی القفر وحدها مع ولدها عندما فارقها إبراهیم (ع).

وفی أملها ورجائها العظیم برحمة الله، حیث لم یصبها یأس ولا إحباط فی السعی، حتّی فجّر الله الماء من تحت قدم ابنها إسماعیل بجانب موضع الکعبة.

إنّ هذه القوّة والمقاومة والصبر والثبات لا یکتسبها الإنسان إلّا من الإیمان بالله تعالی، ولا نعرف فی هذا الکون العریض کلّه عاملًا یمنح الإنسان کلّ هذه القوّة والثبات والصمود والصبر مثل الإیمان بالله تعالی.

فلسفة السعی

إنّ السعی شرط الرزق، وما ینال أحد شیئاً إلّا بالسعی إلی أسبابه. فلا یسأل الإنسان العافیة والشفاء إلّا بالسعی إلی الطبیب والعلاج، ولا ینال الإنسان الرزق إلّا بالسعی إلی السوق، ولا ینال العلم إلّا بالسعی إلی الدراسة، ولا ینال الآخرة إلّا بالسعی فی الدُّنیا.

وهذه سُنّةٌ ثابتة من سنن الله تعالی فی الحیاة الدُّنیا.

وأمّا فی الآخرة فلیس الأمر کذلک؛ فإنّ الإنسان ینال ما یُرید فی الجنّة من دون سعی، فإنّ الجنّة قُطُوفُهَا دَانِیَةٌ (۱)، وَلَکُمْ فِیهَا مَا تَشْتَهِی أَنفُسُکُمْ وَلَکُمْ فِیهَا مَا تَدَّعُونَ (۲)، وَفَاکِهَةْ مِمَّا یَتَخَیَّرُونَ (۳).

وهذه الآیات وغیرها تُشعر أنّ الجنّة لیست بدار سعی لَکُمْ فِیهَا مَا تَشْتَهِی أَنفُسُکُمْ ...

۱- الحاقّة: ۲۳.

۲- فصّلت: ۳۱.

۳- الواقعة: ۲۰.

ص: ۲۷

ولکن الدُّنیا دار سعی، سعی فی الدُّنیا للدُّنیا، وسعی فی الدُّنیا للآخرة.

ونتساءل لماذا کانت الدُّنیا دار سعی ... ولا ینال الإنسان شیئاً من رزق الله تعالی إلّا بالسعی فی الدُّنیا؟

والجواب: إنّ سُلَّم تکامل الإنسان فی الدُّنیا فی الابتلاء، ولا ینال الإنسان کمالًا فی الدُّنیا والآخرة إلّا من خلال سُنّة (الابتلاء)، ولا یتمّ الابتلاء إلّا بالعبور من خلال الأهواء والشهوات والفتن والمُغریات فی الدُّنیا ... وفی هذا العبور یتکامل الإنسان أو یسقط، وکمال الإنسان فی الدُّنیا والآخرة هو أن یجتاز هذا الصراط من دون أن یسقط فی شرک الشهوات والمُغریات. وسقوطه هو الوقوع فی شرک سلطان الأهواء والفتن والمغریات.

إنّ هذا العبور الصعب من وسط الأهواء والشهوات (فی داخل النفس) من جانب، ومن خلال المُغریات والفتن فی (ساحة الحیاة) من جانب آخر، هو سرّ تکامل الإنسان، وهو سبب سقوط الإنسان وهلاکه وشقائه، إذا وقع الإنسان فی هذا العبور فی أسر الأهواء والفتن.

ولیس للملائکة مثل هذا العبور الصعب، کما لیس للحیوان مثل هذا العبور، ولذلک یسمو الإنسان علی الملائکة إذا عبر هذه المنطقة الصعبة بسلام، ویکون أحطّ من الحیوانات إذا سقط فی هذه المنطقة أُوْلَئِکَ کَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ (۱)، إِنْ هُمْ إِلَّا کَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِیلًا (۲)، وهذا العبور هو (السعی). ولولا السعی لا یتمکّن الإنسان من هذا العبور الصعب.

فلو أنّ الإنسان انزوی فی بیته أو فی الکهوف والمغارات وتفرّغ للعبادة ولم ینزل إلی الشارع، ولم یختلط بالناس، ولم یلتق بالمُثیرات والمغریات والفتن، ولم تتعرّض الغرائز التی أودعها الله فی نفسه لإثارات حادّة، لم یبلغ (کمال الإنسان)، ولذلک جعل الله تعالی السعی شرطاً فی الرزق فی هذه الدُّنیا؛ لأنّ تکامل الإنسان لا یتمّ إلّا من خلال (السعی)، إلّا أنّ العِدْل الآخر لهذا الکمال هو السقوط.

وهذا السقوط هو ضریبة ذلک الکمال، وقد هیّأ الله تعالی للإنسان کلّ أسباب سلامة العبور والخروج من هذه المنطقة الصعبة، من وسائل الهدایة الباطنیة (العقل) والخارجیّة (الأنبیاء والوحی)، ومکّن الإنسان من الاختیار، وهو یختار بعد ذلک الهدی أو الضلال إِنَّا هَدَیْنَاهُ السَّبِیلَ إِمَّا شَاکِراً وَإِمَّا کَفُوراً (۳)، ثُمَّ السَّبِیلَ یَسَّرَهُ (۴).

السعی من منازل رحمة الله

جعل الله تعالی لرحمته منازل ومواقع فی حیاة الناس، فمَن کان یسعی إلی رحمة الله فعلیه أن یطلبها فی منازلها، ولرحمة الله مفاتیح فمَن طلبها فعلیه أن یقصدها بمفاتیحها ومن أبوابها.

وهذا باب واسع من أبواب المعرفة لا نرید أن ندخله الآن، و (السعی) من أعظم منازل رحمة الله.

ولا شکّ أنّ الرازق هو الله تعالی، ولکن (السعی) من أبواب رزق الله تعالی ومنازل رحمته، فمَن أراد الرزق فعلیه السعی فی السوق، ومَن أراد العلاج فعلیه السعی إلی الأطبّاء، ومَنْ أراد العلم فعلیه السعی إلی العلماء والمدارس، ومَن أراد النصر فعلیه السعی إلی الأعداء والتحضیر والتخطیط له.

إلّا أنّ الرزق من عند الله، والشفاء من عند الله، والعلم من عند الله، والنصر من عند الله، وما السوق والطبیب والمدرسة والإعداد والتحضیر للحرب إلّا مفاتیح ومداخل لها.

وکذلک الآخرة بما یرزق الله تعالی فیها عباده من المغفرة والنعیم والرِّضوان ... مفتاحها السعی.

ومَن أراد الدُّنیا أو الآخرة من غیر أن یسعی إلیهما بسعیهما، فلا ینال ما یُرید فیهما.

۱- الأعراف: ۱۷۹.

۲- الفرقان: ۴۴.

۳– الإنسان: ۳.

۴– عبس: ۲۰.

ص: ۲۸

وهذه من سنن الله تعالی التی لا تتبدّل ولا تتغیّر: وهی أنّ الله تعالی جعل السعی مفتاحاً لرحمته فی الدُّنیا والآخرة.

ولا ینال الإنسان رزقاً من رزق الله إلّا بالسعی، یقول تعالی: وَأَنْ لَیسَ لِلْانسَانِ إِلَّا مَا سَعَی (۱).

أُصول النظریّة الإسلامیّة فی السعی للدُّنیا

عوداً علی بدء، نعود إلی الحدیث مرّةً اخری عن مجمل التصوّر الذی یقدّمه الإسلام عن (السعی).

وأهمّ النقاط التی تدخل فی تکوین النظریّة الإسلامیّة فی (السعی)، هی:

۱- الدعوة إلی السعی وإقراره، والتأکید علیه، والدعوة إلی عمارة الأرض من خلال السعی، یقول تعالی: فَإِذَا قُضِیَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِی الْارْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (۲).

۲- تعمیق مبدأ أنّ الرزق من عند الله تعالی فقط. یقول تعالی: إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِینُ (۳).

ویقول تعالی: قُلْ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْارْضِ قُلْ اللهُ (۴).

ویقول تعالی: وَاللهُ یَرْزُقُ مَنْ یَشَاءُ بِغَیْرِ حِسَاب (۵).

ویقول تعالی: (إِنَّ رَبَّکَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشَاءُ وَیَقْدِرُ إِنَّهُ کَانَ بِعِبَادِهِ خَبِیراً بَصِیراً) (۶).

وهذا مبدأ هامّ فی الإسلام، وشعبة من شعب التوحید؛ وهو توحید الله تعالی فی الرزق ... وکذلک الأمر فی توحید الله فی الشفاء وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ (۷)، وتوحید الله فی (النصر) وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ (۸)، وغیر ذلک من وجوه سعی الإنسان فی الحیاة الدُّنیا.

۳- وسعی الإنسان فی طلب الرزق لا یزید علی أن یکون ابتغاءً للرزق من فضل الله ورحمته وطلباً لرزقه.

وفرق شاسع بین المفهومین:

بین أن یکون الإنسان هو الذی یحقّق رزقه بیده فی السوق.

أو أن یطلب رزق الله وفضله الذی قدّره تعالی له فی السوق.

والأوّل من الشرک، والثانی من التوحید.

والقرآن الکریم یؤکّد بشکل عجیب علی تثبیت أنّ الرزق من عند الله، وأنَّ سعی الإنسان فی طلب الرزق لا یزید علی أن یکون ابتغاءً من فضل الله ورحمته.

وهذه النقطة تأتی نتیجة للنقطة المتقدِّمة، فإنّ الرزق إذا کان من عند الله تعالی خالصاً، فلا محالة یکون دور الإنسان فی السعی إلی الرزق هو ابتغاء فضل الله.

ففی آیة سورة الجمعة التی تلوناها قبل قلیل وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ.

۴- التجمّل فی طلب الرزق.

وینهی الإسلام عن الحرص والجشع فی طلب الرزق، ویأمرنا بالتجمّل فی السعی، وینهانا عن أن نمدّ عیوننا إلی ما متّع الله الناس به من زهرة الحیاة الدُّنیا.

یقول تعالی: وَلَا تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلَی مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَیَاةِ الدُّنیَا لِنَفْتِنَهُمْ فِیهِ وَرِزْقُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَأَبْقَی (۹).

ویزهّدنا الله فی متاع الحیاة الدُّنیا ویرغّبنا فی متاع الآخرة.

یقول تعالی: وَمَا هَذِهِ الْحَیَاةُ الدُّنْیَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْاخِرَةَ لَهِیَ الْحَیَوَانُ لَوْ کَانُوا یَعْلَمُونَ (۱۰).

۱- النجم: ۳۹.

۲- الجمعة: ۷.

۳- الذاريات: ۵۸.

۴- سبأ: ۲۴.

۵- البقرة: ۲۱۲، والنور: ۳۸.

۶- الإسراء: ۳۰.

۷- الشعراء: ۸۰.

۸- آل عمران: ۱۲۶.

۹- طه: ۱۳۱.

۱۰- العنكبوت: ۶۴.

ص: ۲۹

ویأمرنـا الله تعالی أن نعرِض عن اولئک الـذین تسـتغرق الحیاة الـدُّنیا کلّ اهتمامهم وطموحهم، یقول تعالی: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّی عَنْ ذِکْرِنَا وَلَمْ یُرِدْ إِلَّا الْحَیَاةَ الدُّنْیَا (۱).

وینهانا الإسلام عن الحرص فی طلب الحیاة الدُّنیا.

یقول أمیر المؤمنین (ع) فی وصف الدُّنیا: «مَن ساعاها فاتته، ومَن قعد عنها واتته» (۲).

یعنی مَنْ بذل کلّ اهتمامه وجهده فی طلب الدُّنیا فاتته، ومَنْ تجمّل فی طلب الرزق واتته الدُّنیا.

۵- وینهی الله تعالی عن طلب الرزق من غیر الموارد التی حلّلها الله تعالی، وقـد حـدّد الله حدوداً للسـعی إلی الرزق، وحرّم تجاوز هذه الحدود، وحرّم أکل المال بالباطل.

یقول تعالی: وَلَا تَأْکُلُوا أَمْوَالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْبَاطِلِ (۳).

ویقول تعالی: إِنَّ کَثِیراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَیَأْکُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ (۴).

۶- ویُرغّبنا الله تعالی بابتغاء فضل الله بالسعی إلی الرزق.

یقول تعالی: وَمِنْ آیَاتِهِ مَنَامُکُمْ بِاللَّیْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُکُمْ مِنْ فَضْلِهِ (۵).

ویقول تعالی: وَتَرَی الْفُلْکَ مَوَاخِرَ فِیهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۶).

ویقول تعالی: رَبُّکُمْ الَّذِی یُزْجِی لَکُمْ الْفُلْکَ فِی الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (۷).

ویقول تعالی: اللهُ الَّذِی سَخَّرَ لَکُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِیَ الْفُلْکُ فِیهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (۸).

وهـذا أیضـاً من المبـادئ الهامّـهٔ فی القرآن الکریم، وعلی الإنسـان أن یجعل وجهه دائماً فی ابتغاء الرزق إلی الله، وکما یسـلّم الإنسان وجهـه لله تعـالی فی العبـادهٔ، کـذلک علیه أن یسـلّم وجههلله عنـد السـعی فی طلب الرزق، فـإنّ السـعی فی الرزق هـو ابتغـاء فضـل الله ورحمته.

۷- الموازنـهٔ بین الـدُّنیا والآخرهٔ، فلا ینصـرف إلی الدُّنیا کلّ الانصـراف حتّی تُنسیه الآخرهٔ، ولا یعرِض عن الدُّنیا وعمّا یؤتی الله تعالی عباده من الرزق فیها، کلّ الإعراض، ولا یقبض یـده کلّ القبض، ولا یبسـطها کلّ البسط، وإنّما یسـعی للموازنـهٔ بین الـدُّنیا والآخرهٔ فی سعیه وجُهده.

یقول تعالی: وَابْتَغِ فِیمَا آتَاکَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِیبَکَ مِنَ الدُّنْیَا (۹).

ویقول تعالی فیما یعلِّم عباده من الدُّعاء: رَبَّنَا آتِنَا فِی الدُّنْیَا حَسَنَةً وَفِی الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (۱۰).

هـذه خلاصـهٔ من النهـج الإسـلامی لتهـذیب (السـعی) فی الحیاهٔ الـدُّنیا، وهی جمیعاً، کما یتّضـح من خلال قراءهٔ سـریعهٔ، توجّه سـعی الإنسان إلی الحالهٔ الربّانیهٔ، وإضفاء الصبغهٔ الإلهیّهٔ علی سعی الإنسان فی الدُّنیا.

نسأل الله تعالی أن یرزقنا ابتغاء وجهه الکریم فی أحوالنا جمیعاً فی کدحنا وسعینا.

الضوابط الأربعهٔ للسعی

علمنـا أنّ السـعی جزء لا یتجزّأ من حرکـهٔ الإنسان إلی الله، ولا یتکامل الإنسان فی هـذه الـدُّنیا إلّا من خلال (السـعی). ولا یخلو إنسان خلقه الله تعالی علی وجه الأرض من (السعی).

إذن، فالسـعی مسألـهٌ ذات أهمّیـهٔ کبیرهٔ فی حیاهٔ الإنسان فی هـذه الـدُّنیا. ومن الضـروری أن نتوقّف عنـد تحدیـد الضوابط التی جعلها الإسلام للسعی، وهذه الضوابط أربعهٔ، نذکرها تِباعاً:

۱- التوحید.

۱- النجم: ۲۹.

۲- نهج البلاغة، الخطبة: ۸۲.

۳- البقرة: ۱۸۸.

۴- التوبة: ۳۴.

۵- الروم: ۲۳.

۶- النحل: ۱۴.

۷- الإسراء: ۶۶.

۸- الجاثية: ۱۲.

۹- القصص: ۷۷.

۱۰- البقرة: ۲۰۱.

ص: ۳۰

۲- الإخلاص.

۳- الذِّكر.

۴- التقوی.

وإلیك شرح كلّ واحد من هذه الضوابط بقدر ما یتّسع له هذا المقال.

۱- التوحید فی السعی

إنّ (السعی) یمكن أن یكون سُلّماً إلی التوحید، ویمكن أن یكون حجاباً یحجب صاحبه عن التوحید ... وذلك عندما یخال الإنسان أنّ سعیه هو مصدر رزقه، وقوته، وعزّته، وكثرته، وحوله، وطوله، وعلمه، وهذا هو الحجاب الذی یحجب صاحبه عن الله، وهو من الشرك بالله، إن لم یبلغ أحیاناً الكفر بالله العظیم.

والمنهج الصحیح فی (السعی): أن یبتغی الإنسان بالسعی فضله ورحمته فَإِذَا قُضِیَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِی الْأرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (۱).

وَتَرَی الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِیهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (۲).

وَجَعَلْنَا آیَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ (۳).

فالرزق كلّه من الله تعالی:

قُلْ مَنْ یَرْزُقُكُمْ مِن السَّمَوَاتِ وَالْأرْضِ قُلْ اللهُ (۴).

هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَیْرُ اللهِ یَرْزُقُكُمْ مِن السَّمَاءِ وَالْأرْضِ (۵).

والشفاء من عند الله: وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ (۶).

والنصر من عند الله: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِیزِ الْحَكِیمِ (۷).

والزرع من عند الله: أَفَرَأَیْتُم مَا تَحْرُثُونَ* أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (۸).

والحول والقوّة كلّها لله تعالی: مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ (۹).

والإنسان فی جولة السعی فی هذه الحیاة الدُّنیا لا یزید علی أن یطلب الرزق والشفاء والعلم والنصر من عند الله، وإنّما السعی فی الأسواق، والسعی إلی الطبّ والدواء، والسعی إلی العلم، والسعی للتخطیط والإعداد لساحات القتال، مفاتیح للمال والشفاء والعلم والنصر فقط، ولیست مصادر لها.

لقد برز قارون لقومه بزینته فرحاً مختالًا بما اوتی من المال، فقال له العلماء الصالحون من بنی إسرائیل: لا تفرح، أی لا یغرّك هذا المال ولا یُصیبك الاختیال، فإنّ الله لا یحبّ الفرحین المغرورین المختالین: إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا یُحِبُّ الْفَرِحِینَ (۱۰).

فكان جواب قارون لهم أنّه قد كسب هذا المال كلّه بعلمه ومعرفته وذكائه ... قَالَ إِنَّمَا أُوتِیتُهُ عَلَی عِلْمٍ عِندِی (۱۱)؛ أی إنّما اوتیت هذا المال بسبب من علمی ومعرفتی، وهذا هو الكفر بالله العظیم.

إنّ السعی الذی أوصل قارون إلی هذا المال الكثیر حجبه عن الله تعالی، وهذا الحجاب هو الكفر بالله العظیم.

وفی قصّة صاحب الجنّتین نقرأ فی سورة الكهف هذا الحوار بینه وبین صاحبه الفقیر المؤمن:

فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ یُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَراً ...

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ یُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِی خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا.

لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّی وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّی أَحَداً.

۱- الجمعة: ۱۰.

۲- النحل: ۱۴.

۳- الإسراء: ۱۲.

۴- سبأ: ۲۴.

۵- فاطر: ۳.

۶- الشعراء: ۸۰.

۷- آل عمران: ۱۲۶.

۸- الواقعة: ۶۳- ۶۴.

۹- الکهف: ۳۹.

۱۰- القصص: ۷۶.

۱۱- القصص: ۷۸.

ص: ۳۱

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَکَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِی أَنَا أَقَلَّ مِنْکَ مَالًا وَوَلَداً (۱).

والفرق بین المنطقین فی هذا الحوار المتبادل بین صاحب الجنّتین، وصاحبه الفقیر (الأقلّ مالًا وولداً):

أنّ صاحب الجنتین عندما وجد نفسه أکثر مالًا وأعزّ نفراً لم یعرف فضل الله تعالی، ولم یذکر فضل الله تعالی علیه فی هذه الکثرة والعزّة، وإنّما رأی نفسه فقط أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَراً، وهذه (الأنا) هو الحجاب الأعظم الذی یحجب الإنسان عن الله.

ولکن صاحبه (الأقلّ مالًا وولداً) یتنبّه إلی خطئه، فیقول له: لو کنت تری فی هذه الکثرة والعزّة التی رزقک الله مشیئة الله وقوّته تعالی ورحمته ورزقه، ولا تری نفسک حیث وجدتنی أنا أقلّ منک مالًا وولداً ... کان هو الصواب وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَکَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِی أَنَا أَقَلَّ مِنْکَ مَالًا وَوَلَداً.

إنّ (السعی) الذی أوصل صاحب الجنّتین إلی الکثرة والعزّة والتقدّم علی صاحبه أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَراً لم یکن إلّا مدخلًا إلی ابتغاء رحمة الله تعالی ووسیلة إلی ابتغاء الکثرة والعزّة من عند الله ... وأمّا الکثرة، والعزّة، والحول، والقوّة، والمال، والثروة، والشفاء، والنصر، والحول، والسلطان، فلا یکون إلّا من عند الله ... ولیس للعبد إلّا أن یطلبه من عند الله بسعیه وحرکته.

وهذه هی الرؤیة التوحیدیّة للسعی. وأمّا الرؤیة الاخری التی کان یری بها صاحب الجنّتین جنّتیه أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَراً فهی من الشرک إن لم یکن هی الکفر بعینه. والفاصل بینهما کبیرٌ وشاسع.

۲- الإخلاص فی السعی:

إنّ سعی الناس لشتّی- ولکن السعی الذی ینفع الإنسان فی الآخرة ویتکامل به فی الدُّنیا والآخرة هو السعی الذی یخلص فیه الإنسان لله تعالی.

هذا السعی هو الذی یُقرّبه إلی الله، وهو الذی یتقبّله الله، وقد روی عن رسول الله (ص) أنّه قال: «إنّ الله لا یقبل من العمل إلّا ما کان له خالصاً، وابتغ (وأُبتغی) به وجهه» (۲).

ولیس الإخلاص فقط فی العبادات کالصلاة والصوم والحجّ والزکاة، بل ینبغی أن یکون الإخلاص فی کلّ سعی للإنسان، حتّی فیما یتعلّق بمعاشه وحیاته العائلیّة واموره الشخصیة ... فإنّ من الممکن أن یؤدّی الإنسان کلّ ذلک، وهو ینوی فیه وجه الله تعالی، وابتغاء مرضاته. قُلْ إِنَّ صَلَاتِی وَنُسُکِی وَمَحْیَای وَمَمَاتِی لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِینَ (۳).

والذی یلفتنا فی هذه الآیة إنّ الله تعالی لم یأمر نبیّه (ص) أن یخلص له فی صلاته ونسکه، بل أمره بالإخلاص فی حیاته ومماته وَمَحْیَای وَمَمَاتِی، وهی مساحة واسعة جدّاً، بل هی کلّ مساحة حیاة الانسان.

ولقد کنّا نجد فی عباد الله الصالحین من إذا طلب منه أحد شیئاً استمهله حتّی تحضره النیّة.

فإذا انقلب سعی الإنسان کلّه إلی ابتغاء وجه الله الکریم کان سعیه کلّه عبادة، وحیاته کلّها عروجاً وقُرباً إلی الله.

أُولئک هم الذین یعیشون فی وسط الناس، کما یعیش سائر الناس، فی الأسواق، والدوائر، والبیوت، والمتاجر، والمعامل، والمصانع، والمزارع، ولکن قلوبهم عند الله، وغایتهم هی ابتغاء وجهه الکریم، واولئک یتقبّل الله تعالی سعیهم فی الحیاة الدُّنیا کلّه؛ لأنّ سعیهم کلّه لله تعالی.

وفی هؤلاء یصحّ أن نقول: إنّ هؤلاء یعیشون مع الناس، ولیسوا مع الناس، یختلطون بالناس کما یختلط الناس بعضهم ببعض، ولکن بأجسامهم، أمّا قلوبهم فلم تفارق الله تعالی لحظةً واحدة.

۱- الکهف: ۳۴- ۳۹.

٢- كنز العمّال: ح ٥٢٥٨.

٣- الأنعام: ١٦٢.

ص: ۳۲

۳- الذِّکر والسعی

إنّ السـعی عند کثیر من الناس یشـغلهم ویحجبهم عن الله؛ لأنّهم فی سـعیهم یعتمدون الأسـباب المادّیة ویتوسّلون بها إلی حاجاتهم ... وهو حقّ، فإنّ الله تعالی قد جعل لکلّ شـیء سـبباً، فإذا طلب الإنسان الرزق، فلابدّ أن یطلبه من أسـبابه، ومن أسـبابه التجارة، والسوق، والکدح فی الأسواق، وإن طلب النصـر فلابدّ أن یطلبه من أسـبابه، وإذا طلب الشـفاء والعافیة فلابدّ أن یطلبهما من أسبابهما، وهذا حقٌّ کمـا ذکرنـا، ولکن هـذه الأسـباب لا ـ تزیـد علی أن تکون أسباباً مباشـرة للأشـیاء، ومسـبّب هـذه الأسـباب هو الله تعـالی، والله خالقها وجاعلهـا، وهـو ولیّ التوفیق یهبُ التوفیق لمن یشـاء، ویسـلب التوفیق عمّن یشـاء، یهب الرزق لمن یشـاء (بِیَدِکَ الْخَیْرُ إِنَّکَ عَلَی کُلِّ شَیْء قَدِیرٌ) (۱)، ویقطع الرزق عمن یشاء.

یَخْلُقُ مَا یَشَاءُ (۲).

یَزِیدُ فِی الْخَلْقِ مَا یَشَاءُ (۳).

وَهُوَ عَلَی جَمْعِهِمْ إِذَا یَشَاءُ قَدِیرٌ (۴).

وَلَکِنَّ الله یُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَی مَنْ یَشَاءُ (۵).

وَکَانَ الله عَلَی کُلِّ شَیْء قَدِیراً (۶).

إذن الرزق، والشـفاء، والنصـر، والعلم، والتوفیق من عنـد الله تعالی فحسب، وهذه الأسـباب مسـخّرة لله یخلقها ویعدمها، ویضـعها حیث یشاء، ویرفعها من حیث یشاء (۷)، وهی لا تزید علی أن تکون مفاتیح إلی خزائن رحمة الله ورزقه.

والأسباب لیست أنداداً لله، ولا أضداداً له فی سلطانه وملکه، وإنّما هی مخلوقات له، مسخّرات بأمره ... یهبُ منها مَن یشاء ما یشاء.

وَالله یَرْزُقُ مَنْ یَشَاءُ بِغَیْرِ حِسَاب (۸).

وَالله یُؤْتِی مُلْکَهُ مَنْ یَشَاءُ (۹).

یُؤْتِی الْحِکْمَةَ مَنْ یَشَاءُ (۱۰).

وَالله یُؤَیِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ یَشَاءُ (۱۱).

یَخْلُقُ مَا یَشَاءُ (۱۲).

یُنفِقُ کَیْفَ یَشَاءُ (۱۳).

إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَیَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِکُمْ مَا یَشَاءُ (۱۴).

یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشَاءُ وَیَقْدِرُ (۱۵).

وهو الحاکم علی الأسباب، ولیس محکوماً لها.

والتصوّرات فی هذه المسألة ثلاثة؛ منهم من یقرأ آی الکتاب، فی حاکمیّة الله وسلطانه، فیلغی الأسباب إلغاءً کاملًا، وینفی قانون العلّیة والسببیّة مطلقاً، وهو وهم، یخالف القرآن والعقل.

ومنهم من یحکّم هذه الأسـباب علی مشـیئة الله وإرادته ویعتقد أنّ الله تعالی هو خالق الأسـباب، ولکن هذه الأسـباب تعمل باسـتقلال، بعـد أن خلقها الله، ولیس لله تعالی بعـد أن خلق الأسـباب أن یتصـرّف فی هـذا الکون، ویبسط الرزق لمن یشاء ویُقَـدّرُ علی مَن یشاء، ویهب الملک والرزق والنصـر لمن یشاء، ویمنعه عمّن یشاء وهؤلاء هم الیهود، کانوا یقولون، کما یحـدّثنا القرآن: یَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَیْدِیهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ یَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ یُنفِقُ کَیْفَ یَشَاءُ (۱۶).

وهذا هو التصوّر الثانی، یشجبه القرآن ویلعن قائلیه.

۱- آل عمران: ۲۶.

۲- المائدة: ۱۷، النور: ۴۵.

۳- فاطر: ۱.

۴- الشوری: ۲۹.

۵- الحشر: ۶.

۶- الأحزاب: ۲۷.

۷- لیس معنی ذلک أنّنا ننفی السببیّة والعلّیة، فهذه من بدیهیّات العقل والفطرة، والقرآن الکریم حیث یقرّر أنّ کلّ شیء بید الله، ولا یجری فی الکون شیء من غیر إذن الله، یقرّر العلّیة والسببیّة بشکل دقیق، علی النهج الذی یحکم به العقل، ولکن من دون أن تکون الأسباب حجاباً بین الإنسان وبین الله تعالی.

۸- البقرة: ۲۱۲.

۹- البقرة: ۲۴۷.

۱۰- البقرة: ۲۴۹.

۱۱- آل عمران: ۱۳.

۱۲- آل عمران: ۴۷.

۱۳- المائدة: ۶۴.

۱۴- الأنعام: ۱۳۳.

۱۵- الرعد: ۲۶.

۱۶- المائدة: ۶۴.

ص: ۳۳

والتصوّر الثالث هو التصوّر الـذی یعلّمنا القرآن، یثبّت قانون العلّیهٔ، ثمّ یعلن أنّ هذا الکون کلّه والوجود کلّه مسخّر لأمره، وهو الخالق الحاکم المهیمن علی الکون کلّه یرزق من یشاء، بما یشاء، کیف یشاء، وینصر مَن یشاء، بما یشاء.

وسعی الإنسان فی هذا الکون إلی أسباب الرزق ینبغی أن یکون من هذا المنطلق، وبهذه الرؤیهٔ التوحیدیّهٔ.

ولا ینبغی أن تحجبه الأسباب عن المسبّب الأوّل والمبدء الأوّل الحاکم علی الکون والوجود کله.

وحجاب الأسباب حجاب کثیف، یُعمی الإنسان، ویسلبه البصر والبصیرهٔ، فیری الإنسان الأسباب ولا ـ یری یـد الله تعالی من وراء الأسباب وفوقها ومعها.

وهذا هو شرط (التوحید) فی (السعی)، وقد تحدّثنا عنه، ولا نرید أن نعید الحدیث عن هذا الشرط.

وما نریـد أن نقوله هنا هو: إنّ هـذه الرؤیـهٔ التوحیدیّهٔ لعلاقهٔ الکون بالله تعالی، وحاکمیّهٔ الله المطلقهٔ علی هذا الکون، یدعو الإنسان أن یکون ذاکراً لله تعالی فی کلّ مراحل سعیه، وکلّ أنماط سعیه، یطلب من الله ما یشاء، ویدعو الله تعالی فیما یرید، ولا یشغله الکدح فی السوق من أن یطلب الرزق من عند الله، ولا یشغله السعی إلی الأسباب المادّیهٔ المیدانیّهٔ للنصر فی المعرکهٔ من أن یطلب النصر من عند الله.

وهذا هو قوله تعالی: وَإِیَّاکَ نَسْتَعِینُ فإنّ تقدیم المفعول (إیّاک) علی الفعل (نستعین) یفید الحصر، ومعنی ذلک أنّ علی الإنسان أن لا یستعین فی سعیه بغیر الله، وکلّ استعانهٔ بغیر الله فهی من الشرک الذی یشجبه القرآن الکریم.

وعلیه یبقی الإنسان ذاکراً لله تعالی، فی کلّ سعیه، یدعوه عزّ شأنه للتوفیق والتأیید والرزق، ولا یشغله شیءٌ من هذه الأسباب عن ذکر الله تعالی ودعائه وسؤاله واللجوء إلیه عزَّ شأنه، فی کلّ مراحل السعی ومنعطفاته.

۴- التقوی والسعی

الکلمهٔ الأخیرهٔ فی ضوابط السعی (التقوی) فإنّ الله تعالی إنّما یتقبّل من المتّقین .. وأیّ سعی لا یأخذ فیه صاحبه بضوابط التقوی لا یتقبّله الله.

وکما لا یتقبّل الله من السعی ما لا یخلص فیه صاحبه لله کذلک لا یتقبّل الله سعیاً لا یأخذ فیه صاحبه بضوابط التقوی إِنَّمَا یَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ (۱)، وأیّ سعی لا تضبطه التقوی فلا قیمهٔ له عند الله.

والتقوی هی التی تُنجح سعی الإنسان، وتفتح له فی الأزمات الصعبهٔ مخرجاً من الضیق وَمَنْ یَتَّقِ اللَهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً* وَیَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لَا یَحْتَسِبُ (۲).

والتقوی لا تضیق علی الإنسان مساحهٔ سعیه، ففی ما أحلَّ الله تعالی رحمهٔ وبرکهٔ ورزق، وفیما حرّمه الله تعالی شقاء وحرمان للإنسان.

فلابدّ أن یجری الإنسان فی سعیه فی هذه الدُّنیا طِبقاً لحدود الله تعالی فی الحلال والحرام، ولا یتجاوز حدّاً من حدود الله.

الإنسان بین السعی والکلم الطیّب

یقول تعالی: إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ یَرْفَعُهُ (۳)، هذا هو کلّ ما یملکه الإنسان فی هذه الدُّنیا، ویأخذه معه إلی لقاء الله.

۱- السعی وهو العمل الصالح، حسب الآیهٔ العاشرهٔ من سورهٔ فاطر.

۲- والکلم الطیّب، وهی النیّهٔ والحالات القلبیّهٔ الکامنهٔ وراء العمل الصالح من الخشوع والتبتّل، والتقوی والحبّ والبغض والذِّکر (القلبی)، والتوحید والإخلاص ...

۱- المائدهٔ: ۲۷.

۲- الطلاق: ۲- ۳.

۳- فاطر: ۱۰.

ص: ۳۴

إنّ قیمهٔ العمل بالکلم الطیّب.

ولولا الکلم الطیّب فلا قیمهٔ للعمل.

إنّ الصلاهٔ من دون نیّهٔ القربهٔ، ومن دون الخشوع وحضور القلب لا قیمهٔ لها ... وقیمهٔ الصلاهٔ بهذا الکلم الطیّب.

والصوم من دون کفّ النفس عن مشتهیاتها والقُرب إلی الله بذلک لا قیمهٔ له.

والـذی یصـعد إلی الله من الإنسان هو هـذا الکلم الطیّب: وهو (الإخلاص، والتوحیـد، والإیمان، والتعبّـد، والتقوی، والحبّ، والإیثار ... إلی آخره) إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ. أمّا العمل الصالـح الـذی یمارسه الإنسان، فلا یزید علی أن یکون عاملًا لصـعود الکلم الطیّب إلی الله وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ یَرْفَعُهُ.

صحیح أنّ التقوی هی التی تصـعد إلی الله، ولکن الذی یرفع التقوی إلی الله هو کفّ النفس عن شهواتها عندما یواجه الإنسان فتنهٔ من مغریات الدُّنیا ... وهذا هو العمل الصالح، وصحیح أنّ التوحید هو الذی یصعد إلی الله، ولکن الذی یرفع التوحید إلی الله، هو عبادهٔ الله تعالی وحده وطاعته ورفض الطاغوت والشیطان، وعدم الانقیاد والطاعهٔ لهما ومکافحتهما، وهذا هو مقام العمل.

وصحیح أنّ الإیثار هو الذی یصعد إلی الله، ولکن الإنفاق هو الذی یرفع الإیثار إلی الله، وهو العمل.

إذن، الذی یصعد إلی الله هو الکلم الطیّب، وأمّا العمل الصالح فهو الذی یرفع الکلم الطیّب إلی الله.

ومن دون الکلم الطیّب لا قیمهٔ للعمل.

ومن دون العمل لا یصعد الکلم الطیّب إلی الله.

والکلمات الطیّبهٔ الأربع التی ذکرناها فی ضوابط السـعی هی التی تصـعد إلی الله، ولیس السـعی، ولکنّها لا تصـعد إلی الله إلّا بالسـعی، ومن دون السعی، ومجرّدهٔ عن السعی لا تصعد إلی الله. فالسعی شرطٌ لصعود الکلمات الطیّبهٔ الأربع إلی الله.

کما أنّ قیمهٔ (السعی) وکماله فی هذه الکلمات الأربع، ومن دونها لا قیمهٔ للسعی.

إذن، بإمکاننا أن نختصر هذا العنوان بهاتین الکلمتین:

۱- لا قیمهٔ للسعی من دون الکلمات الأربع المتقدِّمهٔ.

۲- ولا تصعد هذه الکلمات إلی الله تعالی من دون عامل (السعی).

قیمهٔ السعی بالکلمات الأربع

لقد تحدّثنا عن الکلمات الأربع التی تضبط سعی الإنسان فی الحیاهٔ الدُّنیا، وهی: التوحید، والإخلاص، والذِّکر، والتقوی.

وهذه الکلمات هی أعظم الکلمات التی تضبط سعی الإنسان فی الحیاهٔ الدُّنیا، ولکلّ منها دور فی سعی الإنسان.

أمّا (التوحید) فهو شـرط الإیمان، ومن دون هذا الشـرط یکون السعی نوعاً من أنواع الشرک الخفیّ أو الجلیّ ... وبالشرک تسقط قیمهٔ السعی سقوطاً نهائیاً.

إِنَّ اللهَ لَا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَیَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِکَ لِمَنْ یَشَاءُ (۱).

وأمّا شـرط (التقوی) فهو شـرط فی سلامهٔ العمل، ومن دون التقوی یکون العمل باطلًا وفاسداً، وهو دون شرط التوحید، لأنّ الله لا یغفر أن یُشرک به، ویغفر ما دون ذلک لمن یشاء.

وهو شرط قبول السعی؛ لأنّ الله تعالی إنّما یتقبّل من المتّقین إِنَّمَا یَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ (۲).

۱- النساء: ۴۸.

٢- المائدة: ٢٧.

ص: ۳۵

والسعی الذی یفقد التقوی یقع بین معصیة الله ورفض القبول من جانب الله.

أمّا المعصیة، فإنّ الله تعالی قد یغفر لصاحبها وَیَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِکَ لِمَنْ یَشَاءُ (۱). وأمّا رفض القبول، فإنّ الآیة السابعة والعشرین من سورة المائدة واضحة فی أنّ التقوی شرط القبول، ومن دونها لا یتقبّل الله الأعمال: إِنَّمَا یَتَقَبَّلُ اللهُ وإنّما هنا للحصر، والحصر بمعنی الإیجاب والسلب.

وأمّا شرط (الذِّکر) و (الإخلاص) فهما شرطان فی کمال السعی، ویبلغ السعی ذروته بالإخلاص والاستعانة بالله وذکر الله تعالی.

أعراض السعی للدُّنیا

وکما أنّ السعی من منازل رحمة الله، فإنّ للسعی للدُّنیا فی حیاة الناس أعراضاً علی درجة کبیرة من الخطورة؛ وذلک أنّ السعی للدُّنیا یتطلّب الاحتکاک والتماس مع (المال) ومع (الناس).

ولهذا التماس المزدوج مردودات سلبیّة ثلاثة فی حیاة الإنسان، یسقط عندها خلقٌ کثیر، وهذه المردودات الثلاثة، هی:

۱- فی علاقة الإنسان بالله.

۲- وفی علاقة الإنسان بالناس.

۳- فی علاقة الإنسان بالمال.

وإلیک توضیح موجز لهذه المردودات الثلاثة:

أ- أعراض السعی فی علاقة الإنسان بالله

التعامل المباشر مع (المال) و (المادّة)، من دون وجود ضمانات ومؤمّنات تؤمّن وتضمن سلامة الإنسان فی علاقته بالله تعالی یُعرِّض علاقة الإنسان بالله تعالی لأضرار وأخطار کبیرة.

ذلک أنّ التعامل المباشر والمستمرّ مع (الأسباب) تضعّف علاقة الإنسان ب- (المسبِّب) الحقیقی، وهو الله تعالی، وتضعّف إحساس الإنسان ووعیه لسلطان الله تعالی وحوله وقوّته التی یؤول إلیها کلّ حول وقوّة وسلطان.

وهو أثرٌ طبیعیّ للتعامل مع الأسباب المادّیة فی السوق، إذا کان لا- یقترن بذکر الله. وذکر الله تعالی هو المؤمّن والضمان الحقیقی للسلامة من هذا الخطر.

ویتدرّج الإنسان علی هذا الخطّ النازل فی علاقته بالله فتقوی ثقته بالأسباب المادّیة التی یتعامل معها فی الأسواق، أو فی ساحة السیاسة والإعلام، أو فی المعمل، أو فی المزرعة، وبقدر ما تتأکّد ثقته بها، تضعف ثقته بالله من حیث یشعُر أو لا یشعُر.

فتتحوّل ثقة الإنسان بالتدریج من المسبِّب إلی السبب. وهذا هو بعض حدود الشرک وبعض أنواع الشرک الخفیّ الذی یتسلّل إلی عقل الإنسان وقلبه، من دون أن یشعر أحیاناً.

وإذا تحوّلت ثقة الإنسان بالتدریج من المسبِّب إلی الأسباب تضعف إستعانته بالله وتوکّله علی الله.

سعی الإنسان بین إیاک نعبد وإیّاک نستعین

وهو أحد شطری علاقة الإنسان بالله تعالی؛ فإنّ علاقة الإنسان بالله لا تتجاوز (خطّ العبادة) و (خطّ الاستعانة).

۱- النساء: ۴۸.

ص: ۳۶

وخطّ العبادة هو الخطّ الصاعد إلی الله تعالی من ذِکر، وحمد، وشکر، وثناء، وصلاة، وصیام، وحجّ، وإنفاق، وتبتّل، وتضرُّع، وبکاء، وخشیة، وشوق، وولاء، وطاعة ... وهذا هو الخطّ الصاعد فی علاقة الإنسان بالله وهو خطّ العبادة.

والخطّ الثانی خطّ الاستعانة، وهو الخطّ الذی یستنزل به العبد رحمة الله تعالی ورزقه إلیه، مثل التوکّل علی الله، والدُّعاء، والاستعانة، والاستعاذة، والتوبة، والاستغفار، وکل ما یستنزل رحمة الله تعالی علی عبده من رزق، وموهبة، وشفاء، وعلم، وخیر، وعفو، ومغفرة، ونصر.

وعلاقة الإنسان بالله تعالی کلّها تتلخّص فی هذین الخطّین: الخطّ الصاعد (العبادة)، والخطّ النازل (الاستعانة).

وإلیها یشیر قوله تعالی فی سورة الحمد: إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَإِیَّاکَ نَسْتَعِینُ (۱).

وهذان الخطّان؛ الصاعد والنازل، من التوحید، الذی لا یجوز فیه الشرک، والدلیل علی ذلک تقدیم المفعول (إیّاک) علی الفعل (نعبد، نستعین)، وقد ذکر علماء العربیّة أنّ تقدیم المفعول علی الفعل یدلّ علی الحصر.

وبناءً علیه فإنّ العبادة والاستعانة فی هذه الآیة یدخلان کلاهما فی مقولة التوحید. والناس یعرفون التوحید فی العبادة فقط، دون الاستعانة.

ولکن التوحید الذی یدعو إلیه القرآن توحید فی العبادة والاستعانة معاً، وهو أن لا یُشرک الإنسان بالله تعالی فی العبادة، کالشکر، والصلاة، والصیام، والذِّکر. کما لا یُشرک به تعالی فی الاستعانة مهما توثّقت العلاقة بینه وبین الأسباب المادّیة؛ من مال، وإعلام، وقوّة، وعلم. فیجب علیه أن یَحْذَر کُلّ الحذر من أن تحجبه هذه الأسباب عن المسبِّب الحقیقی والمبدأ الأوّل لکلّ سبب فی هذا الکون وهو الله تعالی.

وأساس التوحید فی الاستعانة: البصیرة، والمعرفة بالله من جانب، والثقة بالله تعالی من جانب آخر.

فإذا ضعُفت بصیرته بالله بسبب الاحتکاک الدائم والتعامل المستمرّ مع الأسباب المادّیة فی الحیاة الدُّنیا ضعفت استعانته بالله، واختلط عنده التوحید بالشرک فی واحد من اثنین من خطّی العلاقة بالله.

وتلک خسارةٌ کبیرة فی حیاة الإنسان لا یعوّضها شیء مهما استفاد الإنسان من الأسباب المادّیة التی یتعامل معها.

وبناءً علی هذا الوعی القرآنی للسعی، فإنّ کلّ سعی للإنسان فی الدُّنیا یجب أن یکون من مقولة التوحید.

فإنّ سعی الإنسان الراشد فی الدُّنیا لا یخلو إمّا أن یکون من الخطّ الصاعد إلی الله، وهو العبادة فی (إیّاک نعبد)، أو یکون من الاستعانة بالله فی السعی للدُّنیا والآخرة، وهو (إیّاک نستعین)، وهو من الخطّ النازل فی علاقة الإنسان بالله.

ولیس للإنسان سعیٌ راشد آخر غیر هذا وذاک.

وفی کلّ منهما لابدّ أن یوحِّد العبد الله تعالی، فی العبادة وفی الاستعانة معاً؛ فلا یطلب فی العبادة إلّا وجه الله تعالی، وهو التوحید فی العبادة (إیّاک نعبد)، ولایستعین فی سعیه فی الدُّنیا، للدُّنیا وللآخرة، بغیر الله تعالی وهو (إیّاک نستعین)، إلّا أن یؤمن أنّ ذلک فی امتداد الاستعانة بالله، ولیس نِدّاً لله، ولا ضدّاً له.

إذن، کلّ سعی للإنسان فی الدُّنیا یجب أن یکون توحیداً لله ... ولیس یجوز للإنسان الشرک فی سعیه فی الدُّنیا، سواءً کان سعیه عبادةً لله، أم إستعانةً بالله فی سعیه للدُّنیا أو الآخرة.

فإذا سعی إلی الطبیب کان سعیه إلیه فی امتداد استعانته بالله، ولیس فی عرضه. وإذا سعی إلی السوق کان سعیه فی امتداد استعانته بالله للرزق، ولیس فی عرضه، ولیس السوق إلّا سبباً سخّره الله تعالی لعباده فی الرزق ... وهذا الوعی من مراتب وعی التوحید، وقلیلٌ من الناس یعی التوحید بمثل هذا الوعی فی صلاته کلّما قال: إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَإِیَّاکَ نَسْتَعِینُ.

ضمان الذِّکر

۱- الفاتحة: ۵.

ص: ۳۷

ولکی یسلم الإنسان فی تعامله مع الأسباب المادّیة من هذا الشرک الذی ینزلق إلیه الکثیرون من الناس ... جعل الله تعالی الذِّکر أماناً للناس من منزلق الشِّرک فی الحیاة الدُّنیا.

فإنّ الذِّکر یحصِّن الإنسان من الشرک، فی تعامله وتماسّه الدائم مع الأسباب المادّیة، ویتنبّه بصورة دائمة بأن (لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلیّ العظیم)، وأنّ کلّ حول وقوّة فی هذا الکون من عند الله تعالی حصراً، ومسخَّر لأمر الله، والله تعالی یضع هذه الأسباب من حیاة الناس أینما یشاء وکیفما یرید، ویرفعه ویمنعه حیث لا یحبّ ولا یرید، یَهبُ مَن یشاء ما یشاء، ویمنعُ ما یشاء عمّن یشاء، یوفّق مَن یشاء لما یشاء، ویحرم مَن یشاء عمّا یشاء، بیده الأمر والسلطان والحول والقوّة کلّه فی هذا الکون.

فإذا أیقن الإنسان بهذه الحقائق الکونیّة کلّها، وآمن بأنّ کلّ حول وقوّة فی هذا الکون لا یکون إلّا بالله، واستحضر سلطان الله تعالی وحوله وقوّته، فلا تحجبه هذه الأسباب عن خالقها ومسبّبها.

وإذا امتلأ قلب الإنسان وعقله بجلال الله، وجماله، وسلطانه، وحوله، وقوّته، فلن تحجبه عندئذ الأسباب المادّیة عن الله، ولن تؤدّی هذه الأسباب، مهما قویت وتوثّقت علاقته بها، إلی ضعف فی ثقته بالله تعالی، وتوکّله علیه عزَّ وجلّ ..

والقرآن لا ینهانا عن السعی والعمل فی السوق والمزرعة والسیاسة والحیاة الاجتماعیّة، وحقول المعرفة المختلفة، ولکن علی أن یقترن ذلک کلّه بذِکر الله تعالی؛ والذِّکر یحمی الإنسان ویحفظه ویحصّنه من تسلّل الشرک إلی نفسه من حیث یعلم أو لا یعلم.

ضمان التقوی

والخطر الآخر الذی یواجه الإنسان فی علاقته بالله عندما یتماسّ الإنسان ویتعامل مع الأسباب المادّیة هو خطر الانزلاق إلی الحرام، وهو خطر آخر غیر خطر الانزلاق إلی الشرک.

فإن سعی الإنسان فی الدُّنیا یقع بین فکّی الهدی والفتنة، بین سلطان الهوی والشهوات والغرائز من جانب (من داخل النفس)، وبین إغراءات المال والسلطان والجنس الآخر من جانب آخر (من خارج النفس)، وهما ما سمیناه (الهوی والفتنة).

والضلع الثالث لهما (الشیطان) الذی یقوم بدور السمسار بینهما فی تزیین مغریات الحیاة الدُّنیا للأهواء والشهوات، وفی إثارة الشهوات والأهواء من جانب آخر.

وکثیراً ما یقع الإنسان فریسة سهلة لهذا المثلّث الرهیب.

من هذا المنطلق ینزلق الإنسان إلی معصیة الله تعالی واقتراف الذنوب. وهذا الانزلاق انزلاق إلی مخالفة الله تعالی ومعصیته، وهو غیر الانزلاق إلی الشرک، أعاذنا الله تعالی منهما.

والضمان الذی یؤمّن سلامة الإنسان من هذا الانزلاق هو (التقوی) ... فإنّ التقوی عاصمٌ یعصِم الإنسان من هذه المنزلقات.

یقول أمیر المؤمنین (ع) کما فی الروایة الشریفة الواردة فی نهج البلاغة: «اعلموا عباد الله أنّ التقوی دار حصن عزیز، والفجور دار حصن ذلیل» (۱).

وکما أنّ الحصون تُحصِّن الناس والبلاد من السقوط فی ید العدوّ، کذلک (التقوی) تُحصِّن الإنسان من السقوط فی شرک الشیطان ومعصیة الله.

وبعکس ذلک الفجور، فإنّها تسهِّل للشیطان مهمّة تسقیط الإنسان وتحریفه وجرّه إلی معصیة الله.

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۱۵۷.

ص: ۳۸

فإذا حصّن الإنسان نفسه بالتقوى ومخافة الله فإنّ التقوى تعصمه وتحفظه من الانزلاق إلى معصية الله تعالى ومخالفته.

الذِّكر والتقوى

إنّ (الذِّكر) و (التقوى) ضمانان أمينان يحفظان الإنسان فی سعيه فی الحياة الدُّنيا من مزالق (الشرک) و (الذنوب).

إنّ السعی فی الدُّنيا ضرورة من الضرورات لا يمكن أن يستغنی عنه الإنسان، ولا يصحّ أن يتهرّب منه، إنّه سُنّة تكوينيّة، وسنّة تشريعيّة لله تعالى فی حياة الإنسان. ولكن هذه السنّة الكونيّة الكبيرة تُعرِّض الإنسان لنوعين من المزالق الخطرة؛ وهما الانزلاق إلى (الشرک) والانزلاق إلى (الذنوب والمعاصی).

وإنّما يتكامل الإنسان فی هذه الدُّنيا بالسعی؛ لأنّ السعی يعرّضه لهذه المزالق الُمخيفة.

وقد جعل الله تعالى للإنسان فی هذه المزالق الصعبة ضمانين إثنين، يحفظان سلامة الإنس، وأمنه من الشرک والذنوب، وهذان الضمانان هما (الذِّكر) و (التقوى).

ب- أعراض السعی فی علاقة الإنسان بالدُّنيا

كلّما يزداد حظّ الإنسان من الدُّنيا يزداد حرصه بها، والدُّنيا كماء البحر كلّما شرب منه الإنسان ازداد ظمؤه، وهذه خصلة معروفة فی الدُّنيا يعرفها الناس.

رُوی عن رسول الله (ص) أنّه قال:

«لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغی ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب» (۱).

وعن الإمام الباقر (ع): «مَثَل الحريص على الدُّنيا كمَثَل دود القزّ، كلّما ازدادت من القزّ لفّاً كان أبعد لها من الخروج حتّى تموت» (۲).

وشكى رجلٌ إلى أبی عبدالله الصادق (ع) أنّه يطلب فيُصيب، وتنازعه نفسه إلى ما هو أكبر، فقال: علّمنی شيئاً أنتفعُ به.

فقال (ع): «إن كان ما يكفيك يُغنيك فأدنى ما فيها يُغنيك، وإن كان ما يكفيك لا يُغنيك فكلّ ما فيها لا يُغنيك» (۳).

ومن خصائص الحرص أن يُطيل أمل الإنسان فی الدُّنيا، وطول الأمل يُنسی الإنسان الموت، ونسيان الموت مصدر كثير من شقاء الإنسان.

ومن خصائص الحرص أنّ الدُّنيا تستغرق هموم صاحبه وشخصيّته، فلا يكون للحريص همٌّ إلّا الدُّنيا، وتكون الدُّنيا كلّ همّ الحريص وامنيته، فيفقد بذلک حالة التوازن فی الدُّنيا والآخرة.

واختلال التوازن بين الدُّنيا والآخرة فی حياة الإنسان مصدر عذاب وشقاء كثير للإنسان.

وعلاج هذه الحالة فی علاقة الإنسان بالدُّنيا تقصير الأمل بالدُّنيا، وذِكر الموت، والتجمّل فی طلب الرزق.

ج- أعراض السعی فی علاقة الإنسان بالآخرين

السعی إلى الرزق يتمّ- عادةً- فی أجواء من الاحتكاک والتماسّ بالآخرين، والمنافسة معهم على مصادر المعيشة.

۱- مجموعة ورام: ۱۶۳، والجامع الصغير للسيوطی.

۲- بحار الأنوار ۷۳: ۲۳.

۳- اصول الكافی ۲: ۱۳۵.

ص: ۳۹

وهـذا الاحتكاك والتماسّ يؤدّى إلى مجموعة من الأعراض المرضـيّة فى أخلاق الناس وعلاقاتهم؛ مثل الحسد، وسوء الظنّ، والبُخل، والشحّ، والاستئثار، والاختلاف، والعدوان، والمكر، والكيد بالآخرين، وما يتّصل بذلك من سوء الأخلاق فى العلاقات الاجتماعيّة.

إنّ المال يُفسد أخلاق الناس، ويُفرِّق شملهم، ويُفسد علاقاتهم، ويُثير بينهم الحسد والبغضاء والعدوان.

وعلاجه الزُّهـد فى الدُّنيا، ومكافحة حال التعلّق بالدُّنيا، حتّى يكون المال تحت سلطان صاحبه، ولا يكون صاحب المال تحت سلطان المال، عندئذ تنتفى الآثار السلبيّة التى يتركها (المال) و (الموقع) فى علاقات الناس الاجتماعيّة.

سعى الإنسان بين (السوق) و (المسجد)

إنّ ساحة الحياة تنشطر إلى شطرين:

شطر فى علاقة الناس بالله فى صلاتهم وصيامهم وحجّهم وذِكرهم لله، وفى التقوى والطاعة، والولاية لله. وشطرٌ فى حركتهم فى السوق، والمزرعة، والسياسة، والإعلام، وحقول المعرفة، والعلاقات الاجتماعيّة، والحياة الزوجيّة، وما يؤمِّن معيشة الإنسان، وعلاقاته الاجتماعيّة والعائليّة.

ونرمز إلى ساحة عمل الناس فى الشطر الأوّل ب- (المسجد)، ونرمز إلى ساحة عمل الناس فى الشطر الثانى من الحياة ب- (السوق)، فإنّ المسجد أكثر المواقع التى يجمع ويضمّ اهتمامات الإنسان وأعماله وكدحه من الشطر الأوّل. والسوق أبرز المواقع التى تستقطب اهتمامات الإنسان وسعيه من الشطر الثانى.

والمقارنة بين هاتين البؤرتين فى حياة الإنسان تؤدّى إلى نتائج غريبة:

أ- إنّ المسجد يُصلِح نفوس الناس ويهديهم، والسوق يُفسد نفوس الناس وأخلاقهم.

ب- المسجد يُقرِّب الإنسان إلى الله، والسوق يُبعد الإنسان عن الله.

ج- المسجد يُلطِّف العلاقات الاجتماعيّة فيما بين الناس على أساس المحبّة والتعاون وحسن الظنّ والنصيحة. أمّا فى السوق فيتعامل الناس مع بعضهم بعضاً على أساس الحسد، وسوء الظنّ، والاستئثار، والاستغلال، والبغضاء، والمكر ...

د- المسجد يجمع شمل الناس ويوحّدهم، والسوق يفرِّقهم ويشتّتهم.

وهكذا نجد أنّ هاتين البؤرتين اللّتين تجمعان وتستقطبان اهتمامات الناس وسعيهم وأعمالهم وجهدهم تقعان فى قطبين مختلفين.

وليس ما ذكرناه من المقارنة بين خصائص كلّ من (المسجد) و (السوق) قاعدة رياضيّة لا تختلف ولا تتخلّف، ولكنّها هى الطابع الغالب والصيغة الغالبة لكلّ من المسجد والسوق.

وقد ذكرنا إنّا نرمز بالسوق إلى المواقع التى تستقطب اهتمامات الإنسان للحياة الدُّنيا وسعيه فيها، ونرمز بالمسجد إلى المواقع التى تستقطب اهتمامات الإنسان وكدحه وسعيه إلى الله تعالى، فلا نُعيد.

ولا غنى للإنسان عن السوق، كما لا غنى له عن المسجد، بل لا يتمكّن الإنسان من أن يرقى من المسجد إلى الله، إلّا أن يكون السوق الباب الذى يدخل منه الإنسان إلى المسجد، فمن السوق يرقى الإنسان إلى المسجد، ومن المسجد يرقى إلى الله ... وهذا هو سرّ اهتمام الإسلام بعمارة الحياة الدُّنيا والاهتمام بها، والتصريح بأنّ الدُّنيا مزرعة الآخرة، وأنّ الدُّنيا متجر أحبّاء الله، والأمر بالعمل والسعى فى الدُّنيا، والنهى عن البطالة والرهبانيّة، والتحذير من الفراغ والكسل.

تهذيب السعى

ص: ۴۰

إذن، لابدّ من الدخول فی السوق، ولا غنی للإنسان عن السعی رغم کلّ السلبیّات والأعراض المترتّبة علی السعی فی الأسواق.

وإلی جانب ذلک لابدّ من عمل واسع لتوجیه السعی، وتهذیبه فی حیاة الناس، ویتلخّص برنامج الإسلام فی تهذیب سعی الإنسان فی السوق فی نقطتین:

النقطة الاولی: الاستعانة بالله والتوکّل علیه فی السعی، والإیمان بأنّ الله تعالی مبدأ کلّ سبب، ومصدر کلّ حول وقوّة، ولا حول ولا قوّة فی هذا الکون بغیر الله، ومن دون إذن الله لا یحقّق الإنسان بسعیه أمراً، ولا یستغنی الإنسان بسعیه، وجهده، وماله، وسلطانه، مهما بلغ عن الاستعانة بالله تعالی، ولا یُغنیه أحدٌ عن الله، ولا یکفیه شیء من غیر الله، ولا تصحّ الاستعانة بغیر الله إلّا بإذن الله، فلا یستقلّ شیء فی الکون فی الفعل والتأثیر عن الله، فهو سبحانه مبدأ کلّ شیء والمُهیمن علی کلّ شیء، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وبهذا البیان یدخل السعی فی السوق فی دائرة الاستعانة بالله وتحت مقولة التوحید، ویکون- کما ذکرنا من قبل- أحد شطری التوحید، فإذا آمن الإنسان بهذه الحقیقة الکونیّة الکُبری، وآتاه الله مثل هذا الوعی والبصیرة، لا یستقلّ فی سعیه عن ذکر الله، والدّعاء، والتوکّل، ویقترن سعیه فی السوق بذکر الله والاستعانة به.

وهذا الارتباط بالله فی السعی یعدِّل السعی ویلطّفه، ویُزیل عنه الأعراض السلبیّة التی تجتمع حوله فی علاقته بالله وبالناس وبالدُّنیا.

فی هذه الصورة یخرج السعی عن حالة التقاطع مع الذِّکر والعبادة، ویقع فی امتداده.

النقطة الثانیة: فی تعدیل سعی الإنسان فی السوق؛ هی التقوی والالتزام بحدود الله، وحلاله وحرامه. وهذا الالتزام بالحدود الإلهیّة یعدِّل سعی الإنسان فی السوق وساحات المعیشة بشکل کامل. والتقوی هی الالتزام بطاعة الله تعالی فی الحلال والحرام. وبالتقوی یقع السعی فی حوزة الشریعة ولا یخرج عن حدود الله تعالی فی الحلال والحرام.

وعلی هذا النهج یدخل (السعی) فی امتداد (العبادة والذِّکر) أوّلًا، ویقع تحت هیمنة الشریعة وحدودها ثانیاً.

وبهذه الصورة یتمّ تأمین وضمان سعی الإنسان فی الأسواق، فیواصل الإنسان عمله سعیاً للرزق فی الدُّنیا بصورة أمینة، دون أن تتعرّض علاقته بالله، وبالناس، وبالدُّنیا، للخطر والأذی.

وقد ذکرنا من قبل أنّ حیاة الإنسان شطران؛ شطرٌ یختصّ بسعی الإنسان للآخرة، وشطرٌ آخر یختصّ بسعی الإنسان للحیاة الدُّنیا، وأکثر مصائب الإنسان ومحنه نابع من الشطر الثانی، ولیس للإنسان غنیً عن الشطر الثانی؛ فهو سُلّم الإنسان الذی یرقی منه إلی الشطر الأوّل، ولابدّ له من السعی کما لابدّ له من الکدح إلی الله بالعبادة.

بقاء السعی وضیاعه

سعی الإنسان یبقی ویضیع، وأقصد ببقاء السعی: أنّه ینتفع منه صاحبه بعد موته ولا یندثر ولا ینفد، ویبقی غضّاً طریّاً.

وهذا هو العمل الذی یقصد به صاحبه وجه الله، ویلتزم فیه بحدود الله تعالی، فلا یتجاوز فیه حدّاً من حدود الله، وهذا هو الإخلاص والتقوی.

ص: ۴۱

فإذا صحَّ هـذا وذاک فی العمل، یبقی العمل ویخلد مع صاحبه عند الله، ویُکسِب صاحبه نوراً یوم القیامة یسعی بین یدیه، وإذا سألهم المنـافقون یومئـذ أن یسـمحوا لهم أن یقتبسـوا من نـورهم لیخرجـوا به من الظلمـات إلی النـور، قـالوا لهم: إرجعوا وراءکم إلی الـدُّنیا فالتمسوا نوراً، فإنّ هذا النور هو النور الذی اقتبسوه من الإیمان والعمل الصالح فی الدُّنیا.

یَوْمَ تَرَی الْمُؤْمِنِینَ وَالْمُؤْمِنَاتِ یَسْعَی نُورُهُمْ بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَبِأَیْمَانِهِمْ بُشْرَاکُم الْیَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا ذَلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ* یَوْمَ یَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِینَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِکُمْ قِیلَ ارْجِعُوا وَرَاءَکُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً (۱).

إنّ هذا الجواب الذی یقابلون به المنافقین، وإن کان علی نحو السخریة، إلّا أنّه یحمل الحقیقة کلّها، فإنّ المنافقین خسروا هذا النور فی الدنیا یوم خسروا الإیمان والعمل الصالح فیها.

وهذا هو السعی الذی یبقی للإنسان، وینفعه ویستنیر به یوم القیامة، وقد یکون هذا السعی عملًا صغیراً لا قیمة له فی حساب الآدمیّین فی الـدُّنیا، إلّا أنّه ینقلب یوم القیامة إلی نور ونعیم ورضوان، یستنیر به صاحبه وینعُم به یوم القیامة، ویکسب به رضوان الله؛ وذلک إذا أخلص فیه لله والتزم بحدوده فی الحلال والحرام.

وهذا هو السعی المذکور الذی یشکره الله تعالی لعباده ویحفظه لهم وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَی لَهَا سَعْیَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِکَ کَانَ سَعْیُهُمْ مَشْکُوراً (۲).

هذا هو السعی الباقی النافع المشکور.

ومن السعی السعی الباطل الزائل الضائع یوم القیامة، یأمل فیه صاحبه فی یوم فقره وفاقته یومئذ أن ینفعه، فیضلّ عنه ویضیع ولا ینتفع به قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالأَخْسَرِینَ أَعْمَالًا* الَّذِینَ ضَلَّ سَعْیُهُمْ فِی الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَهُمْ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ یُحْسِنُونَ صُنْعاً (۳).

وهذا هو السعی الذی لم یرد به صاحبه وجه الله، ولم یلتزم فیه بتقوی الله، فلا ینتفع منه صاحبه، ویضلّ عنه، أی یبطل، ویفقد قیمته.

إنّ أعمال الإنسان لا تفنی، وهـذه واحدة من مسلّمات القرآن، ولکن الإنسان قد یضع ثقته یوم القیامة فی عمل، لم یقصد به وجه الله، ولم یلتزم فیه بتقوی الله فی الدنیا، فیتصوّر یومئذ أنّه ینفعه، فیضلّ عنه ویضیع ویبطل، فلا تبقی له قیمة، ویکون مثله مثل السراب یحسبه الظمآن ماءً فإذا بلغه لم یجده شیئاً وَالَّذِینَ کَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ کَسَرَاب بِقِیعَة یَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّی إذَا جَاءَهُ لَمْ یَجِدْهُ شَیْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِیعُ الْحِسَابِ (۴).

إنّها صورة مُخیفـة مُرعبـة لیوم القیامـة، حیث یقبِل الإنسان علی أعماله التی کان یتصوّر أنّها تنفعه، فإذا هی کالسـراب الذی ینقشع قد کان مرصوداً مُراقَباً من قِبل الله، وأنّ الله تعالی کان مطّلعاً علی سرّه وأعماله فی الدُّنیا، فیلغیها یومئذ ویُبطلها، ویحاسبه علی نیّته وعمله.

وهذا هو السعی الضائع فی حیاة الإنسان.

۱- الحدید: ۱۲- ۱۳.

۲- الإسراء: ۱۹.

۳- الکهف: ۱۰۳- ۱۰۴.

۴- النور: ۳۹.

ص: ۴۲

ص: ۴۳

ص: ۴۴

ائمهٔ اهل البیت (علیهم السلام) حفاظ السیرهٔ النبویهٔ و سننه و أحادیثه

یظهر من سبر التاریخ وفلتات مراقبیه أنّ المنع من تدوین الحدیث والروایات لم یظهر بعد وفاهٔ النبیّ (ص)، بل له جذور فی أیّام حیاته (ص) وأنّ هناک بعض الناس کانوا بصدد الحظر علی الحدیث أن ینشر والمنع علی الروایات أن تُذاع وتُنقل.

وذلک خلافاً لما کان رسول الله (ص) یریده من نشر أقواله وإفشاء آثاره خوفاً لها من الاندراس وحفظاً علیها من الاندثار حتّی أنّه ورد عنه فی الحدیث المشهور: «مَنْ حفظ علی امّتی أربعین حدیثاً بعثه الله یوم القیامهٔ فقیهاً».

فیا تری، حفظ الحدیث إذا کان مطلوباً فالمنع من نشره کیف یتلائم معه؟ فهل الحفظ المطلوب هو الحفظ عن ظهر القلب لا الحفظ بالکتابهٔ؟!

أولیس ثبت الحدیث وکتابته من وجوه حفظ الحدیث ومصادیقه؟!

فما الذی أحلّ روایهٔ الحدیث وحرّم کتابته؟!

ثمّ لماذا یحثّ النبیّ (ص) الامّهٔ علی نشر حدیثه وهناک اناس یمنعون من ذلک؟! وما الذی یدعوهم إلی مخالفهٔ رسول الله (ص)؟!

فهل أنّ ذلک اجتهاد علی خلاف نصّه (ص)؟!

أو لم یکن رسول الله (ص) أدری من صحبه بما ینبغی العمل علیه؟!

أفهل کان رسول الله (ص) لا یدرک من الصلاح ما أدرکه من منع من نشر الحدیث؟! هذا ورسول الله (ص) لا ینطق عن الهوی بل ما یقوله إنّما هو وحیٌ یُوحی علّمه شدید القوی. وهو یعلم أنّه لو تقوّل علی الله بعض الأقاویل لأخذ الله منه بالیمین ثمّ لقطع مِنْهُ الْوَتِینَ وَمَا أَحَد عَنْهُ حَاجِزِینَ.

ثمّ المعروف أنّ منع تدوین الحدیث أمر حادث بعد وفاهٔ النبیّ (ص) ولکن کما ذکرنا یظهر من بعض النصوص أنّ الأمر أسبق والقضیّهٔ أقدم؛ فقد روی فی مسند أحمد بسنده عن عبدالله بن عمر قال: کنت أکتب کلّ شیء أسمعه من رسول الله (ص) ارید حفظه فنهتنی قریش فقالوا: إنّک تکتب کلّ شیء تسمعه من رسول الله (ص) و رسول الله (ص) بشرٌ یتکلّم فی الغضب والرِّضا، فأمسکت عن الکتاب، فذکرت ذلک لرسول الله (ص) فقال: اکتب فوالذی نفسی بیده ما خرج منّی إلّا حقّ ... (۱)

ومثله روایهٔ الدارمی وأبی داود إلّا أنّ فیها:

وذکرت ذلک لرسول الله (ص) فأومأ بإصبعه إلی فِیه وقال:

اکتب فوالذی نفسی بیده ما خرج منه إلّا حقّ (۲).

وممّا یتناغم مع حدیث منع تدوین الحدیث هو قولهٔ القائل: حسبنا کتاب الله، دَع ما ضمّ إلیه القائل من أنّ رسول الله (ص) یهجر الذی هو تصریحٌ بهجر الکتاب وترک العمل به حیث یقول: وَمَا یَنْطِقُ عَنِ الْهَوَی* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْیٌ یُوحَی (۳)، وهل یبقی للرسول اعتبار فیما جاء به لو جاز علیه الهجر فی القول والشطط فی الکلام؟!

والعجب کلّ العجب من الاعتذار عن قائل الهجوهٔ المتقدِّمهٔ وصاحب الزلّهٔ الآنفهٔ أو اعتذاره نفسه بأنّه فعل ما فعل لحفظ الإسلام من الضیاع وصون الدِّین من الانمحاء، وصاحب الرسالهٔ أولی وأدری بحفظ ما جاء به، والنبیّ (ص) أعلم وأخبر بذاک وهو ممدودٌ بالوحی ومؤیَّدٌ بالسماء ومُسدّدٌ بالنبوّهٔ، والله یرعاه والملائکهٔ خَدَمَتُهُ.

ویظهر من ملاحظهٔ الآثار ودراسهٔ الأخبار أنّ القولهٔ المتقدّمهٔ صدرت أو کان صدورها مترقّباً للنبیّ (ص) من بعض الامّهٔ حسبما یستفاد من بعض النصوص، وأنّه (ص) ردَّ علیها فی حال صحّته وسلامته کی لا یبقی عذر لمعتذر ولا ذریعهٔ لمتشبّث ولا یکون هناک حجّهٔ لمن یؤمن بالله ورسوله والیوم الآخر.

۱- مسند أحمد ۱۶۲: ۲.

۲- سنن الدارمی ۱۲۵: ۱؛ سنن أبی داود ۳۱۸: ۳.

۳- سورة النجم: ۳ و ۴.

ص: ۴۵

فقد روی ابن الأثیر عن الترمذی وأبی داود روایة المقدام بن معد یکرب قال: قال رسول الله (ص): «ألا هل من رجل یبلغه الحدیث عنّی هو متّکئ علی أریکته، فیقول: بیننا وبینکم کتاب الله فما وجدنا فیه حلالًا استحللناه وما وجدنا فیه حراماً حرّمناه وإنّما حرّم رسول الله (ص) کما حرّم الله».

وفی روایة أبی داود، قال: قال رسولالله (ص): «ألا- إنّی اوتیت هذا الکتاب ومثله معه ألا- یوشک رجلٌ شبعان علی أریکته یقول: علیکم بهذا القرآن فما وجدتم فیه من حلال فأحلّوه وما وجدتم فیه من حرام فحرّموه، ألا لا یحلّ لکم الحمار الأهلی ولا کلّ ذی ناب من السباع ...».

وروی عن أبی داود والترمذی من أبی رافع: أنّ رسول الله (ص) قال: «لا- أعرفنّ الرجل منکم یأتیه الأمر من أمری إمّا أمرت به أو نهیت عنه وهو متّکئ علی أریکته فیقول: ما ندری ما هذا، عندنا کتاب الله ولیس هذا فیه، وما لرسول الله أن یقول ما یخالف القرآن؛ وبالقرآن هداه الله» (۱).

وفی لفظ أخصر: إنّ رسول الله (ص) قال: «لا ألفینّ أحدکم متّکئاً علی أریکته یأتیه أمری ممّا أمرت به أو نهیت عنه، فیقول: لا أدری، ما وجدنا فی کتاب الله اتّبعناه» (۲).

وأیّاً کان السبب لمنع تدوین الحدیث فقد أوجب ذلک ضیاع أحادیث النبیّ (ص) عن الناس إلّا ما بقی علی الخواطر وما لعبت بضبطه أیدی النسیان والاضطراب فانتهی إلی الناس من الحدیث ما حوی الاختلاف وبقی لهم ما تضمّن الاضطراب واشتمل علی السهو، هذا کلّه بالغضّ عمّا وضعته بعض الأیادی وقالته بعض الکَذَبَة علی النبیّ (ص) عمداً ودسّه بعض المفترین ضمن الکثیر من النصوص قصداً، وناهیک فی إثبات ذلک مؤلّفات الفریقین فی فرز الأحادیث الموضوعة وتشخیص النصوص المعمولة.

وقد قیّض الله لحفظ الشریعة منذ حیاة رسول الله (ص) أئمّة أهل البیت (علیهم السلام) فعملوا فی مجال حفظ الحدیث وصیانته ونشره، ولم تتمکّن السلطات الحاکمة من حجمهم عن ذاک ولا منعهم عن نشاطهم فی هذا المجال، فلیس فی المسلمین کتاب فی الحدیث أقدم من کتابهم فی مجال الفقه والأحکام ولا موجود عند الناس مضمار محفوظ أسبق من مضامیرهم (علیهم السلام)، فقد صرّحت النصوص المتواترة عن أئمّة أهل البیت (علیهم السلام) بأنّ أمیر المؤمنین علیّاً کتب بیده عن إملاء رسول الله (ص) ما یکفی الناس فی مجال الأحکام وسدّ حاجتهم إلی یوم القیامة، فلم یبق عند المسلم فی الانحراف عن فقه أهل البیت لو کان معذوراً عن التسلیم لخلافتهم وإمامتهم فی مجال تولّی الحکم وإدارة شؤون الناس؛ فإنّ أئمّة أهل البیت ثقات باعتراف الامّة قاطبةً، فلا مجال للنکول عن التسلیم لروایاتهم بعد کونها مرویّة عن النبیّ (ص) بسند متّصل ولا حجّة لأحد فی الغضّ عن أقوالهم (علیهم السلام) بعد تصریحهم بأنّها أقوال النبیّ (ص) انتهت إلیهم عبر الوسائط الثقات ممّن تعتبر الامة بأسرها بعدلهم وورعهم وصدقهم ووثاقتهم.

ولو أردت أن أستقصی ما روی فی مجال روایات أهل البیت وسابقتها لطال بی الکلام ولو رمتُ أن أجمع ما یتعلّق بشأن حدیث أئمّة أهل البیت ووصفهم لضاق بی المقال، إلّا أنی أُشیر إلی بعض ما ورد فی ذلک وأحکی نزراً ممّا روی فی هذا المجال، وما ذاک إلّا کقبة العجلان لضیق المجال وقصور الوقت عن الإحاطة، ولکن المیسور لا یترک بالمعسور فإنّ ما لا یُدرک کلّه لا ینبغی أن یُترک کلّه.

ففی معتبرة سماعة بن مهران عن أبی الحسن موسی (ع) فی حدیث قال: قلت: أصلحک الله أتی رسول الله (ص) الناس بما یکتفون به فی عهده؟ قال: «نعم ما یحتاجون إلیه إلی یوم القیامة» قلت: فضاع من ذلک شیء؟ قال: «لا هو عند أهله» (۳).

فأهل رسول الله (ص) حفظوا تراثه من الضیاع وصانوا حدیثه من الاندراس ومنعوا روایاته (ص) من النسیان.

۱- جامع الاصول ۲۸۱: ۱، حدیث ۶۸.

۲- المصدر نفسه، الحدیث: ۶۹.

۳- الفصول المهمّهٔ ۴۸: ۱، الباب ۷، فی اصول الفقه، الحدیث: ۱.

ص: ۴۶

وفی معتبرة أبی بشیر المرویّة فی الکافی عن أبی عبدالله (ع) فی حدیث قال: «علّم رسول الله (ص) علیّاً ألف باب یفتح کلّ باب منها ألف باب» إلی أن قال: «فإنّ عندنا الجامعة صحیفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله (ص) وإملائه من فلق فیه وخطّ علیّ (ع) بیمینه فیها کلّ حلال وحرام وکلّ شیء یحتاج إلیه الناس حتّی الأرش فی الخدش، وضرب بیده إلیَّ فقال لی: «تأذن لی یا أبا محمّد؟» قال: قلت: جعلت فداک إنّما أنا لک فاصنع ما شئت، قال: فغمز لی بیده، ثمّ قال: «حتّی أرش هذا» کأنّه مغضب» (۱).

وفی معتبرة أبان عن أبی شیبة قال: سمعت أبا عبدالله (ع) یقول: «ضلّ علم ابن شبرمة عند الجامعة إملاء رسول الله (ص) وخطّ علیّ بیده؛ إنّ الجامعه لا تدع لأحد کلاماً، فیها الحلال والحرام» (۲).

نعم إنّ الجامعة لا تدع لأحد کلاماً سواء ابن شبرمة أم غیره، وذلک لأنّ حکم الناس عادةً یکون عن خرص وتخمین أو قیاس واستحسان وما شاکل ذلک، ولئن قُدّر لمثل ذلک الاعتبار فإنّما هو حیث فقد النصّ ولم توجد روایة ولا کان نقل ثقة لحدیث وخبر عن صادق، وهذا بإجماع الامّة لا یختلف فیه إثنان، وحیث إنّ الجامعة کتاب علیّ وإملاء رسول الله (ص) متضمّن لحکم کلّ قضیّة وحاو لما یحتاج إلیه الناس فی وظیفتهم فلا یبقی موضوع للعمل بالقیاس ولا هناک مورد للاکتفاء بالظنون الارتجالیّة ولا محلّ للتعویل علی الحدس والتخمین.

وفی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع) فی حدیث: «إنّ الحسین (ع) دفع إلی ابنته فاطمة کتاباً ثمّ دفعته إلی علیّ بن الحسین (علیهما السلام)، قال: ثمّ صار والله ذلک الکتاب إلینا یا زیاد. قال: قلت: فما فی ذلک الکتاب؟ قال: فیه والله ما یحتاج إلیه ولد آدم منذ خلق الله آدم إلی أن تفنی الدُّنیا، والله إنّ فیه الحدود حتّی أنّ فیه أرش الخدشة» (۳).

وفی معتبرة أبی عبیدة عن أبی عبدالله (ع) فی حدیث: إنّه سُئِلَ عن الجامعة، فقال: «تلک صحیفةٌ طولها سبعون ذراعاً فی عرض الأدیم مثل فخذ الفالج، فیما ما یحتاج إلیه الناس ولیس من قضیّة إلّا وهی فیها حتّی أرش الخدش» (۴).

إلی غیر ذلک من النصوص التی فاقت حدّ التواتر وجازت حدّ الیقین، وقد أوردنا شطراً منها فی کتاب المبسوط عند التعرّض للمباحث التمهیدیّة فی مجال استنباط الأحکام الفقهیّة للمسائل المعاصرة، کما أورد شطراً کبیراً منها الشیخ الحرّ العاملی فی کتاب الوسائل وفی کتاب الفصول المهمّة فی اصول الأئمّة.

فراجع صحاح وروایات الصیرفی، وسلیمان بن خالد، وأبی بصیر، ومحمد بن سلیم، وعبدالله بن سنان، وابن فضّال، وسلیم بن قیس، ومحمّد بن حکیم، وغیرها من النصوص المرویّة فیما أزمعنا إلیه وفی غیره من الکتب.

ولا تستغرب اشتمال کتاب أو صحیفة طولها سبعون ذراعاً علی عامّة أحکام الفقه، فإنّ کتب الحدیث إنّما طالت لاشتمال کلّ روایة منها علی سند غیر ما للآخر، ولو حذفت أسانیدها حیث کان لها سند واحد لتقلّصت إلی حدٍّ کبیر، کما أنّ تلک الکتب تشتمل علی تکرار وتأکید وتطویلات لا ضرورة فیها، ولو حذفت لاختلف مقدار الکتاب وطوله جدّاً، ولو نظرت إلی متون الفقه فی کتب الفریقین شیعةً وسنّة لصدّقت ما أقول ووافقتنی فیما ذکرت، مع اشتمال المتون علی عامّة أحکام الفقه، فکیف إذا کان الماتن رسول‌الله (ص) والکاتب أمیر المؤمنین والراوی عنهما أولادهما وأهل بیتهما من فقهاء المسلمین وعظمائهم، دع عنک استحقاقهم لمنصب الخلافة والإمامة وکونهم أولی بالناس من أنفسهم بعد رسول الله (ص).

وقد ورد التصریح بسند أهل بیت رسول الله (ص) فی روایتهم عن جدّهم بما لا یبقی ریباً لمرتاب ولا یَدَع شکّاً لأحد إلّا لمن کان فی قلبه زیغ أو کان فی فهمه رین.

۱- المصدر نفسه، الحدیث: ۱۱.

۲- المصدر نفسه، الحديث: ۱۵.

۳- المصدر نفسه، الحديث: ۲۱.

۴- المصدر نفسه، الحديث: ۱۶.

ص: ۴۷

فقد روى عن هشام بن سالم وحمّاد بن عثمان وغيرهما قالوا: سمعنا أبا عبدالله (ع) يقول: «حديثى حديث أبى وحديث أبى حديث جدّى وحديث جدّى حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين (ع) وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله (ص) وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ» (۱)

والعارف باللغة لا يخفى عليه أنّ قوله (ع): حديثى حيث أضاف الحديث إلى نفسه يفيد العموم وليس معناه حديث واحد، بل مفهومه أنّ كلّ ما يعدّ حديثه فهو مروىّ بهذا الإسناد ومحكىّ بهذا الاستناد؛ ولاحظ أيضاً ما يأتى.

وقد روى فى الصحيح عن سيف بن عميرة، عن عمرو بن شمر، عن جابر، قال: قلت لأبى جعفر (ع): إذا حدّثتنى بحديث فاسنده لى، فقال: «حدّثنى أبى عن جدّى عن رسول الله (ص) عن جبرئيل عن الله تبارك وتعالى وكلّ ما أُحدّثك بهذا الإسناد» (۲).

وروى عن ابن سنان عن أبى عبدالله (ع) قال: سمعته يقول: «ليس عليكم فيما سمعتم منّى أن ترووه عن أبى، وليس عليكم جُناح فيما سمعتم من أبى أن ترووه عنّى ليس عليكم فى هذا جناح» (۳).

وفى رواية عن حفص بن البخترى، قال: قلت لأبى عبدالله (ع): نسمع الحديث منك فلا أدرى منك سماعه أو من أبيك؟ فقال: «ما سمعته منّى فاروه عن أبى وما سمعته منّى فاروه عن رسول الله (ص)» (۴).

وفى رواية عن أبى بصير قال: قلت لأبى عبدالله (ع): الحديث أسمعه منك أرويه عن أبيك أو أسمعه من أبيك أرويه عنك؟ قال: «سواء، إلّا أنّك ترويه عن أبى أحبُّ إلىَّ». وقال أبو عبدالله (ع) لجميل: «ما سمعته منّى فاروه عن أبى» (۵).

هذا كلّه بالغضّ عمّا ورد فى وفور علم أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) وأنّهم ورثة علوم الأنبياء وخاتمهم محمّد (ص)، فهم يعلمون علوم رسول الله (ص) بتعليمه أمير المؤمنين (ع)، ثمّ إنّ أوصيائه (عليهم السلام) تناقلوها من بعده وتوارثوها، وأنّ محمّداً (ص) ورث علم من كان قبله من الأنبياء والمرسلين (۶)، وأنّ رسول الله صيّر ما صار إليه من علم النبيّين بأسره وكلّه عند أمير المؤمنين (ع)، وأنّ العلم يتوارث فلا يموت عالم إلّا وترك من يعلم مثل علمه (۷).

وأنّ رسول الله (ص) لمّا قبض ورث علىّ (ع) علمه وسلاحه، ثمّ صار إلى الحسن، ثمّ صار إلى الحسين، ثمّ بعد ذلك علىّ بن الحسين، ثمّ إلى محمّد بن علىّ، ثمّ إلى جعفر بن محمّد (عليهم السلام)، وإنّه لا يموت منهم عالم إلّا وترك من يعلم مثل علمه، وما تواتر من كتب الفريقين أنّ رسول الله (ص) علّم عليّاً (ع) ألف باب يُفتح من كلّ باب ألف باب (۸).

وما ورد من أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) يعلمون كلّ ما أظهر الله عليه ملائكته وأنبيائه ورسله (۹).

فهذا الذى ذكرناه يعيّن على فقهاء المسلمين أن لا يتغاضوا حيث يريدون الإفتاء عمّا يفتى به أئمّة أهل البيت (عليهم السلام)؛ حيث إنّ فتاويهم هى مضمون رواياتهم عن النبىّ (ص) وأقوالهم هى ما تضمّنته أحاديث رسول‌الله (ص) ممّا نقل إليهم فى كتاب الجامعة المدوّنة فى حياة رسول الله (ص).

وأنت تعلم أنّه لا يجوز الإفتاء فى مسألة إلّا بعد الفحص عن النصوص، ولا يجوز إبداء الرأى إلّا بعد الاستقصاء وبذل الطاقة فى مجال الأحاديث، ولا ينبغى القول فى حكم إلّا بعد اليأس عن وجود دليل بخلافه من مخصّص أو مقيّد أو حجّة على خلاف الظهور.

فإذا كان المسلمون يعترفون لأئمّة أهل البيت (عليهم السلام) بالصدق والأمانة كما ينبغى الاعتراف لهم بالضبط والاتقان بعد تدوينهم النصوص عن صاحب الشريعة مباشرةً، فلا ينبغى بعد هذا وذاك الوقوف تجاه رواياتهم (عليهم السلام) بالحياد فضلًا عن الانحراف عنها والإعراض عن العمل بها وترجيح آراء غيرهم عليها، بعد كون تلك الآراء مبتنية على الاجتهاد والحدس فى كثير من مواردها، وعلى الغفلة- إن لم يكن التغافل- عن روايات أئمّة أهل البيت فى جملة وفيرة منها، مع ما كان أصحاب تلك

۱– الوسائل ۵۸: ۱۹، الباب ۸ من صفات القاضی، الحدیث ۲۶.

۲– المصدر نفسه، الحدیث: ۶۷.

۳– المصدر نفسه، الحدیث: ۸۵.

۴– المصدر نفسه، الحدیث: ۸۶.

۵– المصدر نفسه، الحدیث: ۱۱.

۶– الکافی ۲۲۴: ۱، الحدیث ۱.

۷– المصدر نفسه، الحدیث: ۷ وغیره.

۸– الکافی ۲۳۸: ۱، الحدیث ۱، وراجع الفصول المهمّهٔ فی اصول الأئمّهٔ ۵۳۳: ۱، الحدیث ۵ وغیره فی الباب.

۹– الکافی ۲۵۵: ۱، الحدیث: ۱ وغیره.

ص: ۴۸

الآراء یکنّون لأهل البیت من الاحترام ویضمرون لهم من المرتبهٔ، بل ویتظاهرون لهم من التجلیل والحرمهٔ ویتصادقون لهم علی الفقاههٔ والعلم، إضافهٔ إلی الوثاقهٔ والضبط، بل وکانوا یعترفون لشیعتهم والرواهٔ عنهم بالفضل والفقه والوثاقهٔ والعدالهٔ مع اختلافهم معهم فی المذهب والعقیدهٔ، فلا یمنعهم ذلک من تصدیقهم وقبول أقوالهم، والشواهد علی ذلک کثیرهٔ، وأنا أکتفی فی المقام بذکر روایهٔ واحدهٔ تصدّق ما أقول وتشهد بما ذکرت.

فقد روی الکلینی بإسناده عن السیّاری قال: روی عن ابن أبی لیلی أنّه قدم إلیه رجل، فقال: إنّ هذا باعنی هذه الجاریهٔ فلم أجد علی رکبها حین کشفتها شعراً وزعمت أنّه لم یکن لها قطّ، قال: فقال له ابن أبی لیلی: إنّ الناس یحتالون لهذا بالحیل حتّی یذهبوا به فما الذی کرهت؟ قال: أیُّها القاضی إن کان عیباً فاقض لی به، قال: إصبر، حتّی أخرج إلیک فإنّی أجد أذیً فی بطنی، ثمّ دخل وخرج من باب آخر، فأتی محمّد بن مسلم الثقفی فقال له: أیّ شیء تروون عن أبی جعفر (ع) فی المرأهٔ لا یکون علی رکبها شعر، أیکون ذلک عیباً؟ فقال محمّد بن مسلم: أمّا هذا نصّاً فلا أعرفه، ولکن حدّثنی أبو جعفر (ع) عن أبیه عن آبائه عن النبیّ (ص) أنّه قال: «کلّ ما کان فی أصل الخلقهٔ فزاد أو نقص فهو عیب»، فقال له ابن أبی لیلی: حسبک، ثمّ رجع إلی القوم فقضی لهم بالعیب (۱).

وأنا أقترح علی الامّهٔ الإسلامیّهٔ من أیّ مذهب کانوا وعلی أیّ أصل عوّلوا فی عقائدهم واصول دینهم ومذهبهم أن ینظروا فیما أقول ویتأمّلوا فی کلامی هذا فإنّی لا أظنّ منافاته لمذهب من المذاهب، ولا أنّه مخالف للدِّین علی شتّی المسالک.

بل اصول المسلمین قاضیهٔ بلزوم الأخذ بما أقول وعقیدتهم حاکمهٔ بتعیّن العمل بما أذکر ألا وهو اعتبار روایات أهل بیت النبیّ (ص) وحجّیّهٔ نصوصهم، بل وتقدّمها علی آراء سائر المسلمین حیث إنّ نصوصهم هی متون أقوال النبیّ (ص)، ورو اياتهم هی اصول کلمات رسول الله (ص) ولم یزیدوا فیها من أنفسهم شیئاً ولم ینقصوا ولم یحرّفوا ولا أنّهم بدّلوا تبدیلًا.

وإن شئت مزید توضیح لهذا الکلام، أقول متوکّلًا علی الله:

إنّ أسباب الانصراف عن أحادیث أهل بیت النبیّ (ص) بعد اتّفاق المسلمین علی حجّیهٔ أخبار الثقات واعتبار أقوالهم لا تخلو من أحد مناشئ:

الأوّل: التشکیک فی وثاقهٔ أئمّهٔ أهل البیت (علیهم السلام) أنفسهم.

الثانی: التشکیک فی وثاقهٔ الرواهٔ عن الأئمّهٔ من شیعتهم ومحبّیهم.

الثالث: إرسال روایات أئمّهٔ أهل البیت لعدم إدراکهم للنبیّ (ص) فی حیاته.

الرابع: التشکیک فی کون أحادیثهم روایهٔ واحتمال کونها اجتهادات وفتاوی منهم (علیهم السلام).

وإذا بطلت هذه الاحتمالات فثبت وثاقهٔ الأئمّهٔ أنفسهم والرواهٔ عنهم، وتحقّق کون أقوالهم روایات لا فتاوی وأنّ روایاتهم متّصلهٔ الإسناد إلی رسول الله (ص) لا إرسال فیها ولا انقطاع.

لم یبق هناک مناص من اعتبار تلک الروایات، ولا مجال فی التردید فی حجّیهٔ تلک النصوص. وسوف أتعرّض بما یناسب المقام من التفصیل لکلّ من هذه الامور الأربعهٔ إن شاء الله تعالی.

أمّا ما ورد عن الأئمّهٔ (علیهم السلام) من النصوص، فهی روایات لا اجتهادات، فقد أسمعناک ما صرّحوا به أنفسهم من أنّ حدیثهم هو حدیث النبیّ (ص) ورو اياتهم هی أقوال رسول الله (ص).

وأمّا قضیّهٔ إرسال أحادیثهم، فقد سمعت أنّ روایاتهم هی بواسطهٔ آبائهم حتّی تنتهی إلی أمیر المؤمنین علیّ (ع) وهو قد أدرک النبیّ (ص) منذ بدء الرسالهٔ وصاحبه طیلهٔ حیاته ولم یفارقه حتّی وفاته (ص)، وهو أوّل مَنْ أسلم وکان ملازماً له (ص)، ناهیک

۱- الوسائل ۴۱۰: ۱۲، الباب ۱، من أحكام العيوب.

ص: ۴۹

عن أنّ روايات أئمّـة أهـل البيت (عليهم السـلام) لاـ تحتاج إلى سـند، ونصوصـهم لا تحتاج إلى بيان الوسائط؛ وذلك لأنّها مضـمون الكتاب الواصل إليهم عن جـدّهم رسول الله (ص) ألا وهو كتاب علىّ (ع) الـذى تواترت روايات أهل البيت (عليهم السـلام) فى شأنه وأنّه كتـابٌ أملاهُ رسول الله (ص) من فلق فيه على علىّ أمير المؤمنين فكتبهـا بخطّه (ع)، ومثـل هـذا الكتـاب قطعىّ لهم لا يحتاج إلى ذكر السند.

ألا ترى أنّ المسـلمين لا يحتاجون فى إسـناد كتاب البخارى ومسـلم وكتاب الكافى والتهذيب إلى مصنّفها وعزو نسخها إلى أصحابها إلى سند ووسائط، ولو ذكرت هناك الوسائط كان مجرّد تشريف، فيا تُرى أنّ أحداً يشكّ فى أنّ القانون والشفا لابن سينا حتّى يحتاج إلى ذكر سند معنعن أو طريق متّصل؟!

بل هل ترى أحداً يشكّ فى كتب وصلتنا من أفلاطون وغيره من السابقين على الإسلام أنّها لهم وهم ألّفوها؟

وإن شئت قلت: إنّ نسبة مثل هذه الكتب إلى أصحابها قطعيّة وصدورها من مؤلّفيها بتيّة لتواترها عنهم أو لغير ذلك.

ومع هـذا كلّه، فليفرض حاجـة نسـبة كتاب علىّ (ع) إليه إلى سـند بين الأئمّـة من أهل بيت نبيّه (عليهم السـلام) الـذين هم رواة كتابه ونَقَلَة آثاره.

فلم يبق إلّا قضـيّة وثاقة الأئمّة أنفسـهم أو الرواة عنهم؛ أمّا وثاقة الأئمّة فالأمر فيه أوضح من أن يسـطر وأظهر من أن يحتاج إلى إثبات، وقد تسالم المسلمون ممّن عرفوهم على ذلك ولا يرتاب فيه مَن له أدنى إنصاف، ولا يشكّ فيه إلّا أهل الاعتساف.

ولو أردت أن أتعرّض لما ذكره أرباب السِّير فى شأنهم (عليهم السـلام) لطال بنا الكلام واحتاج إلى مجلّدات، ولو أردت أن أجمع ما أثنى به أصحاب المعاجم والتراجم على أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) لكانت مجموعة ضخمة.

وحيث إنّ كثيراً من روايات أهل البيت هى من الإمامين محمّد بن على الباقر وابنه جعفر بن محمّد الصادق (عليهم السـلام) فإنّى أذكر يسـيراً من ترجمتهما واشير إلى نزر من فضلهما بما يكفى العاقل ويطمئن به ذوو الألباب، ثمّ احيل القارئ فى سائر فضلهما وفضل سائر الأئمّة من أهل البيت (عليهم السلام) إلى المراجعة إلى المصادر والوقوف على المراجع.

وأقول على الإجمال: إنّ الأئمّة من آل محمّد (ص) كلّهم نورٌ واحد وهم شـركاء فى الجلالة والفضل والسيادة والعظمة، وقد شهد لهم أعداؤهم بالفضل والسؤدد، وأقرَّ لهم مخالفوهم بالعظمة والجلال، وقديماً قالوا: الفضل ما شهدت به الأعداء.

وإنّنى أقتصـر هنـا على مصادر غير الشـيعة، حتّى لا يحتمل كون الحامل لهم على الإطراء والمـدح الاعتقاد بإمامتهم فى المـذهب، فإنّ الشيعة يعتقدون فيهم العصمة كما يرونها للأنبياء.

وقبل التعرّض لشأنهما أقول: قد توسّط بينهما وبين رسول الله (ص) فى أحاديثهما علىّ بن الحسـين زين العابدين وسـيّد الساجدين، ثمّ الواسـطة بينه وبين النبىّ (ص) أبوه وعمّه الحسن والحسـين سـيّدا شـباب أهل الجنّة وريحانتا رسول الله (ص) وسـبطاه، ثمّ الواسطة بين الحسنين وبين رسول الله (ص) حيث لم يرويا مباشرةً عنه (ص) هو أبوهما أخو رسول الله وابن عمّه وزوج ابنته علىّ بن أبى طالب (ع) وهو من إن كان الحديث عن صحبة النبىّ (ص) فلا تجد مَن هو أسبق صحبةً منه فإنّه أوّل المسلمين وأوّل مَنْ صلّى وعبد ولم يُشرك بالله طرفة عين، وما ورد فى فضـله من القرآن والحديث لا تجد فى كتاب أو دفتر ولا يحصـر فى العدد فإنّه نفس النبىّ ۹ بنصّ الكتاب وأخوه بنصّ الرسول، وزوج ابنته وأبو ذرّيته بلاـ ريب، ووصـيّه ووارث علمه وكـاتب وحيه، وإجمـال القول: إنّه مـا من فضـيلة إلّا وهو حائزها، ولا من مكرمـة إلّا وهو صاحبها، وهو خليفـة رسول الله والإمام الـذى نصَّ النبىّ (ص) على أنّه مع الحقّ والحقّ معه، يـدور معه حيثما دار.

ص: ۵۰

وإنّی لأستحیی من ربّی أن أتصدّی لإثبات وثاقة هذه السلسلة من السند أو أتعمّد لتحکیم صدق هؤلاء، وهم فی غنیً عمّن سواهم والکلّ محتاجون إلیهم، ولکن عذری فی ذلک سنّة الدهر فی ظلمه علی أصحاب الفضائل وهوانه فی عداه علی أرباب الکمال، فلا محیص لی عن التعرّض لهذا والتصدّی له وأروم الاختصار وأقصد التلخیص، بعد أن أجوز بیان شأن علیّ وابنیه والامّة عالمة بفضلهم والمسلمون مذعنون بأمانتهم وإمامتهم، أتعرّض لشأن الأئمّة الثلاثة علیّ بن الحسین وابنه محمّد بن علیّ الباقر وابنه جعفر بن محمّد الصادق (علیهم السلام).

قال الذهبی- وهو ممن یعرفه أهل السِّیر بأنّه لا یجامل ولا یبالغ فی ذِکر فضیلة لأهل بیت النبیّ (ص) إذا لم ینقصهم حقّهم أو یبخسهم فضلهم، کما أنّ موقفه مع شیعتهم معروف ولسانه فی وصف موالیهم معلوم.

أذکر کلام الذهبی وأُحیل الزیادة علیه علی سائر الکتب من مؤلّفات أرباب السِّیر والتراجم ومن جملتها تهذیب الکمال.

وکیف کان، قال الذهبی:

علیّ بن الحسین (ع) ابن الإمام علیّ بن أبی طالب بن عبد المطّلب بن هاشم ابن عبد مناف، السیّد الإمام، زین العابدین، الهاشمی العَلَویّ، المدنیّ.

یُکنّی أبا الحسین ویُقال: أبو الحسن، ویُقال: أبو محمّد، ویُقال: أبو عبدالله. وامّه امّ ولد، اسمُها سلامة سُلافة بنت ملک الفرس یزدجرد، وقیل: غزالة.

وُلِدَ فی سنة ثمان وثلاثین ظنّاً.

وحدَّث عن: أبیه الحسین الشهید، وکان معه یوم کائنة کربلاء وله ثلاثٌ وعشرون سنة، وکان یومئذ موکوعاً فلم یُقاتل، ولا تعرّضوا له، بل أحضروه مع آله إلی دمشق، فأکرمهُ یزید، وردّه مع آله إلی المدینة، وحدَّث أیضاً عن جدّه مرسلًا، وعن صفیّة امّ المؤمنین، وذلک فی «الصحیحین»، وعن أبی هریرة، وعائشة وروایته عنها فی «مسلم»، وعن أبی رافع، وعمّه الحسن، وعبدالله بن عبّاس، وامّ سَلَمة، والمِسوَر بن مخرَمة، وزینب بنت أبی سلمة، وطائفة. وعن مروان بن الحکم، وعُبید الله بن أبی رافع، وسعید بن المسیّب، وسعید بن مرجانة، وذَکوان مولی عائشة، وعمرو بن عثمان بن عفّان، ولیس بالمُکثِر من الروایة.

حدَّث عنه: أولاده: أبو جعفر محمّد، وعُمر، وزید المقتول، وعبدالله، والزُّهری، وعمرو بن دینار، والحَکَم بن عُتیبة، وزید بن أسلم، ویحیی بن سعید، وأبو الزِّناد، وعلیّ بن جُدعان، ومسلم البَطِین، وحبیب ابن أبی ثابت، وعاصم بن عبیدالله، وعاصم بن عمر بن قتادة بن النُّعمان، وأبوه عمر، والقعقاع بن حکیم، وأبو الأسود یتیم عروة، وهشام بن عروة، وأبو الزبیر المکّی، وأبو حازم الأعرج، وعبدالله بن مسلم بن هرمز، ومحمد بن الفرات التمیمی، والمِنهال بن عمرو، وخَلْقٌ سواهم.

وقد حدَّث عنه أبو سلمة، وطاووس، وهما من طبقته.

قال ابن سعد: هو علیّ الأصغر، وأمّا أخوه علیّ الأکبر، فقُتِل مع أبیه بکربلاء (۱). وکان علیّ بن الحسین ثِقَةً، مأموناً، کثیر الحدیث عالیاً، رفیعاً، ورِعاً (۲).

روی ابن عُیینة، عن الزُّهری، قال: ما رأیت قُرشیّاً أفضل من علیّ بن الحسین (۳).

وقیل: إنّ عمر بن سعد قال یوم کربلاء: لا تعرِّضُوا لهذا المریض- یعنی علیّاً.

ابنُ وَهْب: عن مالک، قال: کان عُبید الله بن عبدالله من العلماء، وکان إذا دخل فی صلاته، فقعد إلیه إنسان، لم یُقبِل علیه حتّی یفرُغ، وإنَّ علیّ بن الحسین کان من أهل الفضل، وکان یأتیه، فیجلسُ إلیه، فیطوِّل عُبید الله فی صلاته، ولا یلتفت إلیه، فقیل له: علیٌّ وهو ممّن هو منه! فقال: لابُدَّ لمَن طلب هذا الأمر أن یُعنّی به.

۱- طبقات ابن سعد: ۵/ ۱۶۳.

۲- طبقات ابن سعد: ۵/ ۱۷۲.

۳- طبقات ابن سعد: ۵/ ۱۶۷.

ص: ۵۱

وقـال: قـال نافع بن جُبیر لعلیّ بن الحسـین: إنّک تُجالس أقواماً دوناً! قال: آتی مَن أنتفعُ بمجالسـته فی دینی. قال: وکان نافعٌ یجِدُ فی نفسه، وکان علیّ بن الحسین رجلًا له فضلٌ فی الدِّین.

ابن سـعد، عن علیّ بن محمّد، عن علیّ بن مجاهد، عن هشام بن عروهٔ، قال: کان علیّ بن الحسـین یخرجُ علی راحلته إلی مکّهٔ ویرجع لا یَقْرعُها، وکان یُجالِسُ أسلمَ مولی عُمَر، فقیل له: تَدَعُ قریشاً، وتُجالسُ عَبْد بنی عدِیّ!؟ فقال: إنّما یجلس الرجلُ حیثُ ینتفع.

وعن عبـد الرحمن بن أردک (۱)- أخو علیّ بن الحسین لُامّه- قال: کان علیّ ابن الحسـین یدخل المسـجد، فیشُقُّ الناس حتّی یجلس فی حلقـهٔ زیـد بن أسـلم، فقال له نافع بن جُبیر: غفر الله لک، أنتَ سـیّد الناس، تأتی تتخطّی حتّی تجلس مع هـذا العبـد، فقال علیّ بن الحسین: العلم یُبتغی ویُؤتَی ویُطلَبُ من حیث کان.

الأـعمش، عن مسـعود بن مالـک، قال لی علیّ بن الحسـین: تسـتطیع أن تجمع بینی وبین سـعید بن جُبیر؟ قلت: ما حاجتک إلیه؟ قال: أُرید أن أسأله عنها، إنّ الناس یأتوننا بما لیس عِندنا.

ابن عُیَیْنَهٔ، عن الزُّهری، قال: ما کان أکثر مجالستی مع علیّ بن الحسین، وما رأیت أحداً کان أفقه منه، ولکنّه کان قلیل الحدیث.

وروی شعیب، عن الزُّهری، قال: کان علیّ بن الحسین من أفضل أهل بیته، وأحسنهم طاعهً، وأحبّهم إلی مروان، وإلی عبد الملک.

مَعْمَر، عن الزُّهری: لم أُدرک من أهل البیت أفضل من علیّ بن الحسین.

وروی عبد الرحمن بن زید بن أسلم، عن أبیه، قال: ما رأیتُ فیهم مثل علیّ بن الحسین.

ابن وهب، عن مالک، قال: لم یکُن فی أهل البیت مِثلُه، وهو ابنُ أمهٔ.

حمّاد بن زید، عن یحیی بن سـعید: سمعتُ علیّ بن الحسین- وکان أفضل هاشمیّ أدرکتُه- یقول: یا أیّها الناس، أحبّونا حُبَّ الإسلام، فما بَرِحَ بنا حُبّکم حتّی صار علینا عاراً.

أبو معاویهٔ، عن یحیی بن سـعید، عن علیّ: یا أهل العراق، أحبُّونا حُبَّ الإسـلام، ولا تحبّونا حُبَّ الأصـنام، فما زال بنا حُبّکم حتّی صار علینا شَیْناً.

قال الأصـمعی: لم یکن له عقِب- یعنی الحسـین- إلّا من ابنه علیّ، ولم یکن لعلیّ بن الحسـین ولدٌ إلّا من امّ عبد الله بنت الحسن وهی ابنـهٔ عمّه، فقـال له مروان: أری نسلَ أبیک قـد انقطع، فلو اتّخـذتَ السّـِراری لعلَّ الله یرزُقَکَ منهنَّ، قال: ما عنـدی ما أشتری، قال: فأنا أُقرِضُکَ. فأقرضه مائهٔ ألف، فاتّخذ السراری، ووُلدَ له جماعهٔ من الولد. ثمّ أوصی مروان لمّا احتضر أن لا یُؤخذ منه ذلک المال.

إسنادها منقطع، ومروان ما احتُضر، فإنّ امرأته غَمّتهُ تحت وسادهٔ هی وجواریها.

قال أبو بکر بن البرقی: نَسْلُ الحسـین کلّه من قِبَل ابنه علیّ الأصـغر؛ وکان أفضل أهلِ زمانه. ویقال: إنّ قریشاً رَغِبَتْ فی امّهات الأولاد بعد الزُّهد فیهنّ حین نشأ علیّ بن الحسین، والقاسم بن محمّد، وسالم بن عبدالله.

قال العِجلیّ: علیّ بن الحسین مدنیّ، تابعی، ثقهٔ.

وقال أبو داود: لم یسمع علیّ بن الحسین من عائشهٔ؛ وسمعتُ أحمد بن صالح یقول: سِنّهُ وسِنُّ الزُّهری واحد.

قلت: وَهِمَ ابن صالح، بل علیّ أسنُّ بکثیر من الزُّهریّ.

ورُوی عن أبی بکر بن أبی شیبهٔ، قال: أصحُّ الأسانید کلّها: الزُّهری، عن علیّ بن الحسین، عن أبیه، عن علیّ.

۱- هو عبـد الرحمن بن حبیب بن أردک، صـدوق، وله مـا ینکر. وقال النسائی: منکر الحـدیث انظر میزان الاعتـدال ۵۵۵: ۲، وتقریب التهذیب الترجمهٔ ۳۹۴۵ ط دار الفکر، وفیه «ویقـال: حـبیب بن عبـد الرحمن».هو عبـد الرحمن بن حـبیب بن أردک، صـدوق، وله ما

ينكر. وقال النسائي: منكر الحديث انظر ميزان الاعتدال ۵۵۵: ۲، وتقريب التهذيب الترجمة ۳۹۴۵ ط دار الفكر، وفيه «ويقال: حبيب بن عبد الرحمن».

ص: ۵۲

عبدالله بن عمر العُمری، عن الزُّهری، قال: حدَّثْتُ علیّ بن الحسین بحدیث، فلمّا فرَغْتُ قال: أحسنت! هکذا حُدِّثناهُ؛ قلتُ: ما أُرانی إلّا حدّثتک بحدیث أنتَ أعلمُ به منّی، قال: لا تَقُلْ ذاک، فلیس ما لا یُعرفُ من العِلم، إنّما العِلم ما عُرِف، وتواطأت علیه الألسن.

وقیل: إنّ رجلًا قال لابن المُسیِّب: ما رأیت أورعَ من فلان؛ قال: هل رأیتَ علیّ بن الحسین؟ قال: لا. قال: ما رأیتُ أورعَ منه.

وقال جویریةُ بن أسماء: ما أکلَ علیّ بن الحسین بقرابتهِ من رسول الله (ص) دِرهماً قطّ.

محمّد بن أبی معشر السِّندیّ، عن أبی نوح الأنصاری، قال: وقعَ حریقٌ فی بیت فیه علیّ بن الحسین وهو ساجد، فجعلوا یقولون: یا ابن رسول الله! النار. فما رفعَ رأسهُ حتّی طُفِئت. فقیل له فی ذلک، فقال: ألهَتنی عنها النار الاخری.

ابن سعد: عن علیّ بن محمّد، عن عبدالله بن أبی سلیمان، قال: کان علیّ بن الحسین إذا مشی لا تجاوز یدهُ فخذیه ولا یخطِرُ بها، وإذا قام إلی الصلاة، أخذتهُ رِعدة، فقیل له، فقال: تدرون بین یدیّ مَنْ أقوم ومَنْ اناجی (۱)!.

وعنه، أنّه کان إذا توضّأ اصفرَّ.

إبراهیم بن محمّد الشافعی، عن سفیان: حجّ علیّ بن الحسین، فلمّا أحرم، اصفرَّ وانتفضَ ولم یستطِع أن یُلبّی، فقیل: ألا تُلبّی؟ قال: أخشی أن أقول: لبّیک، فیقول لی: لا لبّیک، فلمّا لبّی، غُشیَ علیه، وسقط من راحلته، فلم یزَلْ بعضُ ذلک به حتّی قضی حجّه. إسنادها مرسل.

وروی مصعب بن عبدالله، عن مالک، أحرم علیّ بن الحسین، فلمّا أراد أن یُلبِّی، قالها، فاغمیَ علیه، وسقط من ناقته، فهُشِم. ولقد بلغَنی أنّه کان یُصلّی فی کلّ یوم ولیلة ألف رکعة إلی أن مات. وکان یُسمی زین العابدین لعبادته.

ویُروی عن جابر الجُعفی، عن أبی جعفر: کان أبی یُصلّی فی الیوم واللیلة ألف رکعة، فلمّا احتُضِر، بکی، فقلت: یا أبتِ ما یُبکیک؟ قال: یا بُنیّ، إنّه إذا کان یوم القیامة لم یبق ملَکٌ مقرّب، ولا نبیٌّ مرسل، إلّا کان لله فیه المشیئة، إنْ شاء عذّبه، وإن شاء غَفَرَ له. إسنادها تالف (۲).

عن طاووس: سمعتُ علیّ بن الحسین وهو ساجد فی الحِجْر یقول: عُبَیْدُکَ بفنائک، مسکینُک بفنائک، سائِلُکَ بفِنائک، فقیرُکَ بفِنائک. قال: فوالله ما دعوتُ بها فی کَرب قطّ إلّا کُشِفَ عنّی.

حجّاج بن أرطأة، عن أبی جعفر، أنّ أباه قاسَمَ الله تعالی مالَهُ مرّتین. وقال: إنّ الله یحبّ المُذنِبَ التوّاب.

ابن عُیینة، عن أبی حمزة الثمالی، أنّ علیّ بن الحسین کان یحمل الخُبز باللیل علی ظهره یتّبعُ به المساکین فی الظُّلمة، ویقول: إنّ الصدقة فی سواد اللیل تُطفئ غضب الرّب.

یونس بن بُکیر، عن [محمّد] (۳) بن إسحاق: کان ناسٌ من أهل المدینة یعیشون، لا یدرون من أین کان معاشهم، فلمّا مات علیّ بن الحسین، فقدوا ذلک الذی کانوا یؤتَوْنَ باللیل.

جریر بن عبد الحمید، عن عمرو بن ثابت: لمّا ماتَ علیّ بن الحسین، وجدوا بظهره أثراً ممّا کان ینقُل الجُرْبَ باللیل إلی منازل الأرامِل.

وقال شَیبةُ بن نعامة: لمّا مات علیّ وجدوه یَعُولُ مائة أهلِ بیت.

قلت: لهذا کان یُبخّل، فإنّه یُنفِق سِرّاً ویظُنُّ أهله أنّه یجمع الدراهم.

وقال بعضهم: ما فقدنا صدقة السرّ، حتّی تُوفّی علیّ.

۱- طبقات ابن سعد ۱۶۷: ۵.

۲- فی إسناده جابر بن یزید الجعفی. وثّقه بعضهم وضعّفه الأکثرون. انظر ترجمته مطوّلة فی میزان الاعتدال للمصنّف ۳۷۹: ۱- ۳۸۴.

۳- ما بین حاصرتین زیادة من حلیة الأولیاء ۱۳۶: ۳.

ص: ۵۳

وروی واقد بن محمّد العُمَری، عن سعید بن مرجانهٔ، أنّه لمّا حدَّث علیّ بن الحسین بحدیث أبی هریرهٔ: «مَن أعتق نسمهً مؤمنهً أعتق الله کلّ عضو منه بعضو منه من النار، حتّی فرْجَهُ بفَرْجِهِ» (۱) فأعتقَ علیٌّ غلاماً له، أعطاه فیه عبد الله بن جعفر عشرهٔ آلاف درهم.

وروی حـاتِمُ بن أبی صغیرهٔ، عن عمرو بن دینار، قال: دخل علیّ بن الحسین علی محمّد بن اسامهٔ بن زید فی مرضه، فجعل محمّد یبکی، فقال: ما شأنُکَ؟ قال: علیَّ دَیْن؛ قال: وکَمْ هو؟ قال: بِضعهٔ عشر ألف دینار، قال: فهی علیَّ.

علیّ بن موسی الرضا: حدّثنا أبی عن أبیه، عن جدّه، قال علیّ بن الحسین: إنّی لأستحیی من الله أن أری الأخ من إخوانی، فأسأل الله له الجنّهٔ وأبخلَ علیه بالدُّنیا، فإذا کان غداً قیل لی: لو کانت الجنّهٔ بیدک لکنتَ بها أبخَل وأبخَل.

قال أبو حازم المدنی: ما رأیتُ هاشمیّاً أفقه من علیّ بن الحسین، سمعته وقد سُئِل: کیف کانت منزلهٔ أبی بکر وعمر عند رسول‌الله (ص)؟ فأشار بیده إلی القبر، ثمّ قال: بمنزلتهما منه الساعهٔ.

رواها ابن أبی حازم عن أبیه.

أحمد بن عبد الأعلی الشیبانی: حدّثنی أبو یعقوب المدنی، وکان بین حسن بن حسن وبین ابن عمّه علیّ بن الحسین شیء، فما ترکَ حسنٌ شیئاً إلّا قاله، وعلیٌّ ساکت، فذهب حسن، فلمّا کان فی اللیل، أتاهُ علیٌّ، فخرج، فقال علیّ: یا ابن عمّی إن کنت صادقاً فغفرَ الله لی، وإن کنتَ کاذباً، فغَفَر الله لک، السلامُ علیک. قال: فالتزمه حسنٌ، وبکی حتّی رثی له.

قال أبو نُعیم: حدّثنا عیسی [بن] (۲) دینار – ثقهٔ – قال: سألتُ أبا جعفر عن المختار، فقال: قام أبی علی باب الکعبهٔ، فلَعَنَ المختار، فقیل له: تلعنُهُ وإنّما ذُبِحَ فیکم؟! قال: إنّه کان یکذِبُ علی الله وعلی رسوله.

وعن الحَکَم، عن أبی جعفر، قال: إنّا لَنُصلّی خلفَهُمْ – یعنی الأُمویّهٔ – من غیر تقیّهٔ، وأشهدُ علی أبی أنّه کان یُصلّی خلفهم من غیر تقیّهٔ. رواه أبو إسرائیل المُلائی (۳)

وروی عُمر بن حبیب، عن یحیی بن سعید، قال: قال علیّ بن الحُسین: والله ما قُتِل عثمان رحمه الله علی وجه الحقّ.

نقل غیرُ واحد، أنّ علیّ بن الحسین کان یخضِبُ بالحِنّاء والکَتَم. وقیل: کان [له] (۴) کِساءٌ أصفر یلبسُهُ یوم الجمعهٔ.

وقال عثمان بن حکیم: رأیتُ علی علیّ بن الحسین کِساء خَزّ، وجُبّهً خزّ.

وروی حُسین بن زید بن علیّ، عن عمّه، أنّ علیّ بن الحسین کان یشتری کساءَ الخَزّ بخمسین دیناراً یشتُو فیه، ثمّ یبیعه، ویتصدّقُ بثمنه.

وقال محمّد بن هلال: رأیتُ علیّ بن الحسین یَعْتَمُّ، ویُرْخی منها خلف ظهره.

وقیل: کان یَلبَسُ فی الصیف ثوبین مُمشّقین من ثیاب مِصر ویتلو: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَهَ اللهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّیِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ (۵).

وقیل: کان علیّ بن الحسین إذا سار فی المدینهٔ علی بغلته، لم یقُل لأحد: الطریق ... ویقول: هو مُشترک لیس لی أن انحّی عنه أحداً.

وکان له جلالهٔ عجیبهٔ، وحقَّ له والله ذلک، فقد کان أهلًا للإمامهٔ العظمی لشرفه وسؤدده وعِلمِه وتألّهِ وکمال عقله. قد اشتهرت قصیدهٔ الفرزدق – وهی سماعُنا – أنّ هشام بن عبد الملک حجَّ قُبیل ولایته الخلافهٔ، فکان إذا أراد استلام الحَجر زُوحِمَ علیه، وإذا دنا علیّ بن الحسین من الحجر تفرّقوا عنه إجلالًا له، فوجَمَ لها هشام وقال: مَنْ هذا؟ فما أعرفهُ،

۱- أخرجه البخاری فی الکفّارات، باب ۶، حدیث ۶۷۱۵. ومسلم فی العتق، حدیث ۲۳ ۲۲. والترمذی فی النذور باب ۱۴، حدیث ۱۵۴۱. وأحمد فی المسند: ج ۳ حدیث ۹۴۴۱ و ۹۴۶۵.

۲- ما بین حاصرتین ساقط من الأصل وأثبتناه من التهذیب وفروعه.

۳- أبو إسرائيل الملائى: هو إسماعيل بن أبى إسحاق. ضعّفوه. وقد كان شيعيّاً بغيضاً من الغلاة الذين يكفرون عثمان. وقيل: اسمه عبد العزيز. حدث عن الحكم بن عتيبة وعطية العوفى، وعنه أبو نعيم وإسماعيل بن عمرو البجلى وجماعة انظر ميزان الاعتدال ۲۲۶: ۱، ۴۹۰: ۴.

۴- زيادة لإيضاح المراد.

۵- الأعراف: ۳۱.

ص: ۵۴

فأنشأ الفرزدق يقول:

هذا الذی تعرفُ البطحاءُ وطأتهُ والبيتُ يعرِفهُ والحِلُّ والحَرَمُ

ه-- ذا ابنُ خير عبادِ الله كلّهمُ هذا التقیّ النقیّ الطاهِرُ العَلَمُ

إذا رأتهُ قريشٌ قالَ قائِلُها إلی مكارِمِ هذا ينتهی الكَرَمُ

يَكادُ يُمسِكُهُ ع-- رفان راحتِهِ رُكنَ الحطيم إذا ما جاء يَستَلِمُ

يُغضِی حياءً ويُغضی من مهابتِهِ ف-- ما يُكلِّمُ إلّا حينَ يَبْتَسِمُ

هذا ابن فاطمة إن كُنتَ جاهلُه بجدّهِ أنبياءُ الله قد خُتِموا

وهی قصيدة طويلة. قال: فأمرَ هشام بحبس الفرزدق، فحُبِسَ بعُسفان، وبعث إليه علیّ بن الحسين باثنی عشر ألف درهم، وقال: أعذِر أبا فراس. فردّها، قال: ما قلتُ ذلک إلّا غضباً لله ولرسوله. فردّها إليه وقال: بحقّی عليک لما قَبِلْتها، فقد علم الله نيّتک ورأی مكانَک. فقَبِلها.

وقال فی هشام:

أيحبُسنی بين الم-- دينة والتی

إليها قُلوبُ الناس يَهوی مُنيبُها

يُقلِّبُ رأساً لم يكُن رأسَ سيِّد

وعينين حَولاوين باد عُيوبُها

وكانت امّ علیّ من بنات ملوک الأكاسرة، تزوّج بها بعد الحسين (ع) مولاه زُبَيْد، فولدت له عبدالله بن زبيد- بياءين- قاله ابن سعد.

وقيل: هی عمّة امّ الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملک.

قال الواقدی، وأبو عبيد، والبخاری، والفلّاس: مات سنة أربع وتسعين. ورُوی ذلک عن جعفر الصادق.

وقال يحيی أخو محمّد بن عبدالله بن حسن: مات فی رابع عشر ربيع الأوّل ليلة الثلاثاء سنة أربع.

وقال أبو نُعيم وشَباب: تُوفّی سنة اثنتين وتسعين.

وقال مَعْنُ بن عيسی: سنة ثلاث. وقال يحيی بن بُكير: سنة خمس وتسعين. والأوّل الصحيح.

قال أبو جعفر الباقر: عاشَ أبی ثمانياً وخمسين سنة.

أبو جعفر الباقر (ع)

هو السيّد الإمام، أبو جعفر محمّد بن علیّ بن الحسين بن علیّ، العلویّ، الفاطمیّ، المَدَنیّ، ولَدُ زين العابدين، وُلِدَ سنة ستٍّ وخمسين فی حياة عائشة وأبی هريرة، أرّخ ذلک أحمد بن البرقی.

ص: ۵۵

روی عن: جدّیه: النبیّ (ص)، وعلیّ (ع) مرسلًا، وعن جدّیه الحسن والحسین (علیهما السلام) مرسلًا أیضاً، وعن ابن عبّاس، امّ سلمهٔ، وعائشهٔ مرسلًا، وعن ابن عمر، وجابر، وأبی سعید، وعبدالله بن جعفر، وسعید بن المسیّب، وأبیه زین العابدین، ومحمّد ابن الحنفیّهٔ، وطائفهٔ. وعن أبی هریرهٔ، وسمُرهٔ بن جُندب مرسلًا أیضاً، ولیس هو بالمُکثِر، هو فی الروایهٔ کأبیه وابنه جعفر، ثلاثتهم لا یبلغُ حدیث کلّ واحد منهم جزءاً ضخماً، ولکن لهم مسائل وفتاوٍ.

حدَّث عنه: ابنه، وعطاء بن أبی رباح، والأعرج مع تقدّمهما، وعمرو بن دینار، وأبو إسحاق السبیعی، والزُّهری، ویحیی بن أبی کثیر، وربیعهٔ الرأی، ولیث ابن أبی سُلیم، وابن جُریج، وقُرّهٔ بن خالد، وحجّاج بن أرطأهٔ، والأعمش، ومُخَوّل ابن راشد، وحربُ بن سُریج، والقاسم بن الفضل الحُدّانی، والأوزاعی، وآخرون.

وروایته عن الحسن وعائشهٔ فی سنن النسائی، وذلک منقطع.

وروایته عن سَمُرهٔ فی سُنن أبی داود.

وکان أحد مَن جمعَ بین العلم والعمل والسؤدد، والشرف، والثقهٔ، والرّزانهٔ، وکان أهلًا للخلافهٔ. وهو أحد الأئمّهٔ الإثنی عشر الذین تُبجّلهم الشیعهٔ الإمامیّهٔ وتقول بعصمتهم وبمعرفتهم بجمیع الدِّین. فلا عصمهٔ إلّا للملائکهٔ والنبیّین، وکلّ أحد یُصیبُ ویُخطئ، ویُؤخذ من قوله ویُترک سوی النبیّ (ص) فإنّه معصوم، مؤیّدٌ بالوحی.

وشُهِرَ أبو جعفر: بالباقر، مِن: بَقَرَ العلم، أی شقّهُ فعرَفَ أصلهُ وخفِیّه. ولقد کان أبو جعفر إماماً، مجتهداً، تالیاً لکتاب الله، کبیر الشأن، ولکن لا یبلغ فی القرآن درجهٔ ابن کثیر ونحوه، ولا فی الفقه درجهٔ أبی الزّناد، وربیعهٔ؛ ولا فی الحِفظ ومعرفهٔ السُّنن درجهٔ قتادهٔ وابن شهاب، فلا نُحابیه، ولا نحیفُ علیه، ونُحبّه فی الله لما تجمّعَ فیه من صفات الکمال.

[ویواصل الذهبی حدیثه قائلًا:] قال ابن فُضیل، عن سالم بن أبی حفصهٔ: سألت أبا جعفر وابنه جعفراً عن أبی بکر وعمر، فقالا لی: یا سالم، تولّهُما وابرأ من عدوِّهما، فإنّهما کانا إمامَی هدیً.

کان سالم فیه تشیّع ظاهر، ومع هذا فیَبُثُّ هذا القول الحقّ، وإنّما یَعرِفُ الفضل لأهل الفضل ذو الفضل، وکذلک ناقِلها ابن فضیل، شیعیّ ثقهٔ. فعثّر الله شیعهٔ زماننا ما أعرقهُم فی الجهل والکذب، فینالون من الشیخین وزیری المصطفی (ص)، ویحملون هذا القول من الباقر والصادق علی التقیّهٔ.

وعن عبدالله بن محمّد بن عقیل، قال: کنتُ أنا وأبو جعفر نختلفُ إلی جابر نکتبُ عنه فی ألواح، وبلغنا أنّ أبا جعفر کان یُصلّی فی الیوم واللیلهٔ مائهٔ وخمسین رکعهٔ.

وقد عدّه النسائی وغیره من فقهاء التابعین بالمدینهٔ. واتّفق الحفّاظ علی الاحتجاج بأبی جعفر.

قال الزبیر بن بکّار: کان یُقال لمحمّد بن علیّ: باقر العلم، وامّه هی امّ عبدالله بنت الحسن بن علیّ، وفیه یقول القرظی:

یا باقِرَ العلم لأهل التُّقی وخیرَ مَنْ لبّی علی الأجبُلِ

وقال فیه مالک بن أعین (۱): إذا طلَبَ الناس عِلمَ القُرآنِ

کانتْ قُریشٌ علیه عِیالا وإنْ قیل: ابن ابنِ (۲) بنتِ الرَّسولِ

نِلتَ بذلک فَرعاً طُوالا تَحُومُ تُهلِّلُ (۳) ل-- لمُدلِج-- ینَ

جِبالٌ تُورّثُ عِلماً جِبالا

۱- مالک بن أعین الجهنی. توفّی سنهٔ ثمان وأربعین ومائهٔ (انظر معجم الشعراء للمرزبانی: ۲۶۸.

۲- روایۀ المرزبانی ۲۶۸: «أین ابن ...».

۳- روایۀ المرزبانی ۲۶۸: «نجوم تهلّل».

ص: ۵۶

ابن عُقدة (۱): حدّثنا محمّد بن عبدالله بن أبی نجیح، حدّثنا علیّ بن حسّان القرشی، عن عمّه عبد الرحمن بن کثیر، عن جعفر بن محمّد، قال: قال أبی: أجلَسَنی جدّی الحسین فی حِجره، وقال لی: رسول الله (ص) یُقرِئُکَ السلام.

عن أبان بن تغلب، عن محمّد بن علیّ، قال: أتانی جابر بن عبدالله، وأنا فی الکتّاب. فقال لی: اکشِفْ عن بطنک، فکشفتُ، فألصقَ بطنهُ ببطنی، ثمّ قال: أمرنی رسول الله أن اقرئکَ منه السلام.

قال ابن عدیّ: لا أعلمُ رواهُ عن أبان غیرُ المُفضّل بن صالح أبی جمیلة النخّاس.

لوین (۲): حدّثنا أبو یعقوب عبدالله بن یحیی، قال: رأیتُ علی أبی جعفر إزاراً أصفر، وکان یُصلّی کلّ یوم ولیلة خمسین رکعة بالمکتوبة.

وعن سلمة بن کُهَیل، فی قوله: لَآیَات لِلْمُتَوَسِّمِینَ (۳) قال: کان أبو جعفر منهم.

الزُّبیر فی «النسَب»: حدّثنی عبد الرحمان بن عبدالله الزّهری، قال: حجَّ الخلیفة هشام، فدخل الحَرَم مُتّکئاً علی ید سالم مولاه، ومحمّد بن علیّ بن الحسین جالس، فقال: یا أمیر المؤمنین، هذا محمّد بن علیّ، فقال: المَفْتُونُ به أهلُ العراق؟ قال: نعم. قال: إذهب إلیه فقُل له: یقول لک أمیر المؤمنین: ما الذی یأکل الناس ویشربون إلی أن یُفصَل بینهم یوم القیامة؟

فقال له محمّد: یُحشر الناسُ علی مثل قُرصةِ النّقیّ (۴)، فیها الأنهار مفجّرة. فرأی هشام أنّه قد ظَفر، فقال: الله أکبر، إذهب إلیه، فقُل له: ما أشغَلَهُمْ عن الأکل والشرب یومئذ! ففعل. فقال: قُل له: هم فی النار أشغل، ولم یُشغَلوا أن قالوا: أَفِیضُوا عَلَیْنَا مِنْ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَکُمْ الله (۵).

قال المُطّلب بن زیاد: حدّثنا لیث بن أبی سُلیم، قال: دخلتُ علی أبی جعفر محمّد بن علیّ وهو یَذْکُر ذُنوبه وما یقول الناس فیه، فبکی.

وعن أبی جعفر، قال: من دخلَ قلبه ما فی خالص دین الله، شَغَله عمّا سِواه. ما الدُّنیا! وما عسی أن تکون! هل هو إلّا مرکبٌ رکبتَهُ وثَوبٌ لبستهُ، أو امرأةٌ أصبتها.

أبو نعیم: حدّثنا أبو جعفر الرازی: عن المِنهال بن عمرو، عن محمّد بن علیّ: قال: اذکروا من عظمة الله ما شئتم، ولا تذکرون منه شیئاً إلّا وهی (۶) أعظمُ منه؛ واذکروا من النار ما شئتم، ولا تذکرونَ منها شیئاً إلّا وهیَ أشدُّ منه، واذکروا من الجنّة ما شئتم، ولا تذکرون منها شیئاً إلّا وهی أفضل.

وعن جابر الجعفیّ، عن محمّد بن علیّ، قال: أجمع بنو فاطمة علی أن یقولوا فی أبی بکر وعُمر أحسنَ ما یکون من القول.

قلت: امّ فروة بنت القاسم بن محمّد بن أبی بکر الصدِّیق هی صاحبة أبی جعفر الباقر، وامّ ولدِهِ جعفر الصادق (۷).

أبو بکر بن عیّاش، عن الأعمش، عن أبی جعفر محمّد بن علیّ، قال: یزعمون أنّی المهدیّ، وإنّی إلی أجلی أدنی منّی إلی ما یَدْعُون.

قال سفیان الثوری: اشتکی بعضُ أولاد محمّد بن علی، فجزع علیه، ثمّ اخبر بموته، فسُرّی عنه. فقیل له فی ذلک، فقال: ندعو الله فیما نُحِبّ، فإذا وقع ما نکرهُ، لم نُخالف الله فیما أحبّ.

قال ابن عُیینة: حدّثنا جعفر بن محمّد: سمعت أبی یقول لعمّته فاطمة بنت الحسین: هذا تُوفی لی ثمانیاً وخمسین سنة. فمات فیها.

قال عفّان: حدّثنی معاویة بن عبد الکریم، قال: رأیتُ علی أبی جعفر محمّد بن علیّ جُبّة خزّ ومُطرف خزّ.

۱- هو أحمد بن محمّد بن سعید بن عقدة الحافظ أبو العبّاس، محدّث الکوفة. شیعی متوسّط. ضعّفه غیر واحد، وقوّاه آخرون انظر میزان الاعتدال ۱۳۶: ۱.

۲- هو محمّد بن حبیب بن جبیر المتوفّی سنة ۲۴۵ أو ۲۴۶. لقّب بلوین لأنّه کان یبیع الدواب فیقول: هذا الفرس لوین. ثقة. أخرج له

أبو داود والنسائى. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب: ۹: ۱۹۸ وتقريب التهذيب: ۱۶۶: ۲ والتاريخ الكبير: ۹۸: ۱ والثقات: ۱۰۱: ۹ والوافى بالوفيات: ۱۲۳: ۳.

۳- الحجر: ۷۵.

۴- النقىّ: هو الخبز الحوارى، وهو الخبز الأبيض.

۵- الأعراف: ۴۹.

۶- تصحّفت فى الأصل إلى «وهم» والصواب ما أثبتناه.

۷- انظر طبقات ابن سعد: ۲۴۶: ۵.

ص: ۵۷

وقال عبید الله بن [موسی] (۱): حدّثنا إسماعیل بن عبد الملک، قال: رأیت علی أبی جعفر ثوباً مُعْلَماً، فقلتُ له: فقال: لا ـ بأس بالأصبعین من العَلم بالإبریسم فی الثوب.

وقال عمرو بن مَوْهَب: رأیتُ علی أبی جعفر مِلحَفهً حمراء.

وروی إسرائیل، عن عبد الأعلی، أنّه رأی محمّد بن علیّ یُرسل عِمامته خلفه، وسألتهُ عن الوسْمَه، فقال: هو خضابُنا أهل البیت.

مات أبو جعفر سنهٔ أربع عشرهٔ ومائهٔ بالمدینهٔ. أرّخهُ أبو نُعَیم وسعید بن عُفیر، ومُصعَب الزُّبیری. وقیل: تُوفّی سنهٔ سبع عشرهٔ.

ومن عالی روایته: أنبأنا علیّ بن أحمد وطائفهٔ، قالوا: أنبأنا عُمر بن محمّد، أنبأنا عبد الوهاب الأنماطی، أنبأنا أبو محمّد بن هزارمرد، أنبأنا ابن حَبابَهٔ، أنبأنا أبو القاسم البَغَویّ، حدّثنا علیّ بن الجَعْد، حدّثنا القاسم بن الفضل، عن محمد بن علیّ، قال: کانت امّ سلمهٔ تقول: قال رسول الله (ص) «الحجُّ جهادُ کُلِّ ضعیف» (۲).

جعفر بن محمّد بن علیّ، ابن الشهید أبی عبدالله.

ریحانهٔ النبیّ (ص) وسبطه ومحبوبه الحسین ابن أمیر المؤمنین أبی الحسن علیّ بن أبی‌طالب عبد مناف بن شیبهٔ، وهو عبد المطّلب بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف بن قصیّ، الإمام، الصادق، شیخ بنی هاشم أبو عبدالله القرشی، الهاشمی، العلوی، النبوی، المدنی، أحد الأعلام.

وامّه هی امّ فروهٔ بنت القاسم بن محمّد بن أبی بکر التّیمیّ، وامّها هی أسماء بنت عبد الرحمن بن أبی بکر، ولهذا کان یقول: ولدنی أبو بکر الصدِّیق مرّتین.

وکان یغضب من الرافضهٔ، ویمقتُهم إذا علم أنّهم یتعرّضون لجدّه أبی بکر ظاهراً وباطناً. هذا لا ریب فیه، ولکن الرافضهٔ قوم جهلهٔ، قد هوی بهم الهوی فی الهاویهٔ، فبُعداً لهم.

ولد سنهٔ ثمانین، ورأی بعض الصحابهٔ، أحسبه رأی أنس بن مالک، وسَهل بن سعد.

حدّث عن: أبیه أبی جعفر الباقر وعُبید الله بن أبی رافع، وعروهٔ بن الزبیر، وعطاء بن أبی رباح وروایته عنه فی مسلم. وجدّه القاسم بن محمّد، ونافع العمری، ومحمّد بن المنکدر، والزُّهری، ومُسلم بن أبی مریم وغیرهم، ولیس هو بالمُکثر إلّا عن أبیه. وکانا من جلّهٔ علماء المدینهٔ.

حدَّث عنه: ابنه موسی الکاظم، ویحیی بن سعید الأنصاری، ویزید بن عبدالله ابن الهاد وهما أکبر منه، وأبو حنیفهٔ، وأبان بن تغلب، وابن جُریج، ومعاویهٔ بن عمّار الدُّهنی، وابن إسحاق فی طائفهٔ من أقرانه، وسفیان، وشُعبهٔ، ومالک، وإسماعیل بن جعفر، ووهب بن خالد، وحاتم بن إسماعیل، وسلیمان بن بلال، وسفیان بن عُیینهٔ، والحسن بن صالح، والحسن بن عیّاش أخو أبی بکر، وزهیر بن محمد، وحفص بن غیاث، وزید بن حسن الأنماطی، وسعید بن سفیان الأسلمی، وعبدالله بن

۱- ما بین حاصرتین زیادهٔ من طبقات ابن سعد: ۲۴۶: ۵.

۲- رواه الإمام أحمد فی المسند ۱۰: حدیث ۲۶۵۸۲ و ۲۶۶۴۷ و ۲۶۷۳۶. وابن ماجهٔ فی المناسک باب ۸ حدیث ۲۹۰۲.

ص: ٥٨

ميمون، وعبـد العزيز بن عمران الزُّهرى، وعبـد العزيز الـدراوردىّ، وعبـد الوهّـاب الثقفى، وعثمان بن فرقـد، ومحمّـد بن ثابت البُنانىّ، ومحمد بن ميمون الزعفرانى، ومسلم الزّنجى، ويحيى القطان، وأبو عاصم النبيل، وآخرون.

قال مصعب بن عبدالله: سمعت الدراوردى يقول: لم يرو مالك عن جعفر حتّى ظهر أمر بنى العبّاس.

قال مصعـب: كان مالك يَضُـمه إلى آخر. وقال علىّ عن يحيى بن سـعيد، قال: أملى علىَّ جعفر بن محمّـد الحـديث الطويل، يعنى فى الحجّ (١)، ثمّ قال: وفى نفسى منه! مجالد أحبُّ إلىَّ منه.

قلت: هذه من زلقات يحيى القطان، بل أجمع أئمّة هذا الشأن على أنّ جعفراً أوثق من مجالد. ولم يلتفتوا إلى قول يحيى.

[والكلام لازال للذهبى] وقال إسحاق بن حكيم: قال يحيى القطّان: جعفر ما كان كذوباً.

وقال إسحاق بن راهويه: قلت للشافعى فى مناظرة جرت: كيف جعفر بن محمّد عندك؟ قال: ثقة.

وروى عبّاس عن يحيى بن معين: جعفر بن محمّد ثقة مأمون.

وروى أحمـد بن زهير، والـدارمى، وأحمـد بن أبى مريم، عن يحيى: ثقة. وزاد ابن أبى مريم عن يحيى: كنت لا أسأل يحيى بن سـعيد عن حـديثه. فقال: لِمَ لا تسألنى عن حـديث جعفر؟ قلت: لا أريـده. فقال: إن كان يحفظ، فحـديث أبيه المسـند، يعنى حديث جابر فى الحجّ.

ثمّ قـال يحيى بن معين: وخرج حفص بن غيـاث إلى عبّادان وهو موضع ربـاط، فـاجتمع إليه البصـريّون، فقالوا: لا تحـدّثنا عن ثلاثـة؛ أشـعث بن عبـد الملك، وعمرو بن عُبيـد، وجعفر بن محمّـد. فقال: أمّا أشـعث فهو لكم، وأمّا عمرو فأنتم أعلم به، وأمّا جعفر فلو كنتم بالكوفة لأخذتكم النّعالُ المُطرَقَة.

قال ابن أبى حاتم: سـمعت أبا زُرعة، وسُـئِلَ عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، وسُـهيل عن أبيه، والعلاء عن أبيه، أيّها أصحّ؟ قال: لا يُقْرَنُ جعفر إلى هؤلاء. وسمعت أبا حاتم يقول: جعفر لا يُسأل عن مثله.

قلت: جعفر، ثقةٌ صدوق، ما هو فى الثبت كشعبة، وهو أوثق من سهيل وابن إسحاق. وهو فى وزن ابن أبى ذئب ونحوه. وغالب رواياته عن أبيه مراسيل.

قال أبو أحمـد بن عـدى: له حديث كثير عن أبيه، عن جابر وعن آبائه، ونُسَخٌ لأهل البيت. وقد حدّث عنه الأئمّة، وهو من ثقات الناس كما قال ابن معين.

وعن عمرو بن أبى المِقـدام قال: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمّـد علمت أنّه من سـلالة النبيّين، قـد رأيته واقفاً عنـد الجمرة يقول: سَلُونى، سَلُونى.

وعن صالح بن أبى الأسود، سمعتُ جعفر بن محمّد يقول: سلونى قبل أن تفقدونى، فإنّه لا يُحدِّثكم أحدٌ بعدى بمثل حديثى.

ابن عقـدة الحافظ، حـدّثنا جعفر بن محمّـد بن حسين بن حازم، حـدّثنى إبراهيم بن محمّد الرمّانى أبو نجيح، سـمعت حسن بن زياد، سمعت أبا حنيفة، وسئل: مَنْ أفقه من رأيت؟

قـال: مـا رأيت أحـداً أفقه من جعفر بن محمّـد، لمّـا أقـدمه المنصور الحيرة، بعث إلىَّ فقال: يا أبا حنيفـة، إنّ الناس قـد فُتِنُوا بجعفر بن محمّـد، فهيّئ له من مسائلك الصِّعاب. فهيّأت له أربعين مسألة. ثمّ أتيت أبا جعفر، وجعفر جالس عن يمينه، فلمّا بَصرتُ بهما، دخلنى لجعفر من الهيبة ما لا يدخلنى لأبى جعفر، فسلّمت وأذن لى، فجلست. ثمّ التفتَ إلىَّ جعفر، فقال: يا أبا عبدالله، تعرِفُ هذا؟ قال: نعم. هذا أبو حنيفة. ثمّ أتبعها: قد أتانا.

۱- هو حديث طويل وصف فيه جابر رضى الله عنه ما شاهده من أفعال النبىّ ۹ وأقواله فى حجّة الوداع. رواه مسلم فى الحجّ باب حجّة النبىّ ۹.

ص: ۵۹

ثمّ قال: یا أبا حنیفهٔ، هات من مسائلک نسأل أبا عبدالله، فابتدأت أسأله. فکان یقول فی المسألهٔ: أنتم تقولون فیها کذا وکذا، وأهل المدینهٔ یقولون کذا وکذا، ونحن نقول کذا وکذا، فربما تابَعَنا وربما تابعَ أهل المدینهٔ، وربما خالفنا جمیعاً، حتّی أتیت علی أربعین مسألهٔ ما أخرِمُ منها مسألهٔ. ثمّ قال أبو حنیفهٔ: ألیس قد روینا أنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس؟!

وبه، قال أبو نُعیم: حدّثنا أبو أحمد الغِطریفی، حدّثنا محمّد بن أحمد بن مُکرَم الضّبی، حدّثنا علیّ بن عبد الحمید، حدّثنا موسی بن مسعود، حدّثنا سفیان قال: دخلتُ علی جعفر بن محمّد وعلیه جبّهٔ خزّ دکناء أبدجانی فجعلتُ أنظر إلیه تعجّباً، فقال: ما لکَ یا ثوریّ؟ قلت: یا ابن رسول الله، لیس هذا من لباسک، ولا لباس آبائک، فقال: کان ذاک زماناً مقتراً، وکانوا یعملون علی قدر إقتاره وإفقاره، وهذا زمان قد أسبل کلّ شیء فیه عزالیه (۱). ثمّ حسر عن ردن جبّته، فإذا فیها جبّهٔ صوف بیضاء یقصر الذیلُ عن الذّیلِ، وقال: لبسنا هذا لله، وهذا لکم، فما کان لله أخفیناه، وما کان لکم أبدیناه.

وقیل: کان جعفر یقول: کیف أعتذر وقد احتججت، وکیف أحتج وقد علمت؟

روی یحیی بن أبی بکیر عن هیّاج بن بسطام، قال: کان جعفر بن محمّد یُطعم حتّی لا یَبقی لعیاله شیء.

قال المدائنی، وشباب العُصفری، وعدّهٔ: مات جعفر الصادق فی سنهٔ ثمان وأربعین ومائهٔ. وقد مرَّ أنّ مولده سنهٔ ثمانین، أرّخه الجِعَابی (۲)، وأبو بکر بن منجویه، وأبو القاسم اللّالکائی (۳)، فیکون عمره ثمانیاً وستّین سنهٔ رحمه الله.

لم یخرج له البخاری فی الصحیح، بل فی کتاب الأدب وغیره.

وله عدّهٔ أولاد: أقدمهم إسماعیل بن جعفر ومات شابّاً فی حیاهٔ أبیه، سنهٔ ثمان وثلاثین ومائهٔ، وخلّف محمّداً وعلیّاً وفاطمهٔ، فکان لمحمّد من الولد جعفر وإسماعیل فقط، فولد جعفر محمّداً، وأحمد دَرَجَ، ولم یُعقب، فولد لمحمّد بن جعفر، جعفر وإسماعیل وأحمد وحسن، فولد لحسن جعفر الذی مات بمصر سنهٔ ثلاث وتسعین ومائتین، وخلّف ابنه محمّداً، فجاءه خمسهٔ بنین، وولد لإسماعیل بن محمّد، أحمد ویحیی ومحمّد وعلی دَرَج ولم یُعقب، فولد لأحمد جماعهٔ بنین، منهم إسماعیل بن أحمد المتوفّی بمصر سنهٔ خمس وعشرین وثلاثمائهٔ، فبنُوا محمّد بن إسماعیل بن جعفر عدد کثیر کانوا بمصر، وبدمشق وقد استوعبهم الشریف العابد أبو الحسین محمد بن علیّ بن الحسین بن أحمد بن إسماعیل بن محمّد بن إسماعیل بن جعفر الصادق، ویُعرف هذا بأخی مُحسّن، کان یسکن بباب توما (۴). مات قبل الأربعمائهٔ. وذکر منهم قوماً بالکوفهٔ. وبالغ فی نفی عُبید الله المهدی من أن یکون من هذا النسب الشریف، وألّف کتاباً فی أنّه دعی، وأنّ نحلته خبیثهٔ، مدارها علی المخرقهٔ والزندقهٔ.

رجعنا إلی تتمّهٔ آل جعفر الصادق، فأجلّهم وأشرفهم ابنه:

موسی الکاظم (ت، ق). الإمام، القوهٔ، السیّد أبو الحسن العلوی، والد الإمام علیّ بن موسی الرضا، مدنیّ نزل بغداد.

وحدّث بأحادیث عن أبیه، وقیل: إنّه روی عن عبدالله بن دینار، وعبد الملک بن قدامهٔ.

حدّث عنه أولاده: علیّ، وإبراهیم، وإسماعیل، وحسین. وأخواه: علیّ بن جعفر، ومحمّد بن جعفر، ومحمّد بن صدقهٔ العنبری، وصالح بن یزید، وروایته یسیرهٔ لأنّه مات قبل أوان الروایهٔ، رحمه الله.

ذکره أبو حاتم فقال: ثقهٔ، صدوق، إمام من أئمّهٔ المسلمین.

قلت: له عند الترمذی، وابن ماجهٔ حدیثان.

قیل: إنّه ولد سنهٔ ثمان وعشرین ومائهٔ بالمدینهٔ.

قال الخطیب: أقدمه المهدی بغداد، وردّه، ثمّ قدمها. وأقام ببغداد فی أیّام الرشید، قدم فی صحبهٔ الرشید سنهٔ تسع وسبعین ومائهٔ، وحبسه بها إلی أن توفّی فی محبسه.

۱- العزالی: جمع العزلاء، وهو فم المزادة الأسفل.

۲- هو الحافظ أبو بکر محمّد بن عمر بن محمّد التمیمی البغدادی، له ترجمة فی تذکرة الحفّاظ: ۹۲۵: ۳.

۳- هو الإمام أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبری الرازی. له ترجمة فی تذکرة الحفّاظ: ۱۰۸۳: ۳.

۴- قال یاقوت فی معجم البلدان: باب توماء: أحد أبواب مدینة دمشق؛ لمّا حاصر المسلمون دمشق فی أیّام أبی بکر، نزل أبو عبیدة من قِبل باب الجابیة، ونزل خالد بن الولید بدیر یُقال له: دیر خالد بالجانب الشرقی، ونزل یزید ابن أبی سفیان بباب توماء؛ فقال عبد الرحمن بن أبی سرح وکان من أصحاب یزید بن أبی سفیان:

ألا أبلغ أبا سفیان عنّا بأنّنا

علی خیر حال کان جیشٌ یکونها

وأنّا علی باب لتوماء نرتمی

وقد حان من باب لتوما حیونُها

ص: ۶۰

ثمّ قال الخطیب: أنبأنا الحسن بن أبی بکر، أنبأنا الحسن بن محمّد بن یحیی العلوی، حدّثنی جدّی یحیی بن الحسن بن عُبید الله بن الحسین بن علیّ بن الحسین، قال: کان موسی بن جعفر یُدعی العبد الصالح من عباداته واجتهاده.

روی أصحابنا أنّه دخل مسجد رسول الله (ص) فسجد سجدةً فی أوّل اللیل، فسمع وهو یقول فی سجوده: عَظُم الذنبُ عندی فلیحسُن العفو من عندک، یا أهل التقوی، ویا أهلَ المغفرة، فجعل یُردّدها حتّی أصبح.

وکان سخیّاً کریماً، یبلغه عن الرجل أنّه یُؤذیه فیبعث إلیه بصرّة فیها ألف دینار. وکان یصرُّ الصُّرر بثلاثمائة دینار، وأربعمائة، ومائتین، ثمّ یقسِمُها بالمدینة، فمن جاءته صُرّة، استغنی. حکایة منقطعة، مع أنّ یحیی بن الحسن متّهم.

ثمّ قال یحیی هذا: حدّثنا إسماعیل بن یعقوب، حدّثنا محمّد بن عبدالله البکری، قال: قدمتُ المدینة أطلب بها دَیْناً، فقلت: لو أتیتَ موسی بن جعفر فشکوتَ إلیه، فأتیته بنَقَمی (۱) فی ضیعته، فخرج إلیَّ، وأکلتُ معه، فذکرت له قصّتی فأعطانی ثلاثمائة دینار.

ثمّ قال یحیی: وذکر لی غیرُ واحد، أنّ رجلًا من آل عمر کان بالمدینة یؤذیه ویشتم علیّاً، وکان قد قال له بعض حاشیته: دعنا نقتله، فنهاهم، وزجرهم.

وذُکر له أنّ العُمریّ یزْدَرِعُ بأرض، فرکب إلیه فی مزرعته، فوجده، فدخل بحماره، فصاحَ العُمَریّ: لا توطّئ زرعنا فوطئ بالحمار حتّی وصل إلیه، فنزل عنده وضاحکه. وقال: کم غرِمت فی زرعک هذا؟ قال: مائة دینار. قال: فکم ترجو؟ قال: لا أعلم الغیب وأرجو أن یجیئنی مائتا دینار. فأعطاه ثلاثمائة دینار. قال: هذا زرعُک علی حاله. فقام العُمریّ فقبّل رأسه، وقال: الله أعلمُ حیثُ یجعل رسالاته. وجعل یدعو له کلّ وقت. فقال أبو الحسن لخاصّته الذین أرادوا قتل العمری: أیما کان خیرٌ؟ ما أردتم أو ما أردت أن أصلح أمره بهذا المقدار؟

قلت: إن صحّت، فهذا غایة الحلم والسماحة.

وقال الخطیب: أنبأنا أبو العلاء الواسطی، حدّثنا عمر بن شاهین، حدّثنا الحُسین بن القاسم، حدّثنی أحمد بن وهب، أخبرنی عبد الرحمن بن صالح الأزدی، قال: حجَّ الرشید فأتی قبر النبیّ (ص) ومعه موسی بن جعفر، فقال: السلام علیک یا رسول الله، یا ابن عمّ، افتخاراً علی من حوله. فدنا موسی وقال: السلام علیک یا أبة. فتغیّر وجه هارون، وقال: هذا الفخر یا أبا الحسن حقّاً.

قال یحیی بن الحسن العلوی: حدّثنی عمّار بن أبان قال: حبس موسی بن جعفر عند السندی بن شاهک، فسألته اخته أن تولّی حبسَهُ وکانت تَدَیَّنُ، ففعل. فکانت علی خدمته، فحکی لنا أنّها قالت: کان إذا صلّی العَتَمة، حمدَ الله ومجّده ودعاه. فلم یَزل کذلک حتّی یزول اللیل. فإذا زالَ اللیل، قام یُصلّی حتّی یُصلّی الصبح. ثمّ یذکر حتّی تطلع الشمس، ثمّ یقعد إلی ارتفاع الضحی، ثمّ یتهیّأ ویستاک، ویأکل. ثمّ یرقد إلی قبل الزوال، ثمّ یتوضّأ ویُصلّی العصر، ثمّ یذکر فی القبلة حتّی یُصلّی المغرب، ثمّ یُصلّی ما بین المغرب إلی العَتَمة.

فکانت تقول: خابَ قومٌ تعرّضوا لهذا الرجل. وکان عبداً صالحاً.

وقیل: بعث موسی الکاظم إلی الرشید برسالة من الحبس یقول: إنّه لن ینقضی عنّی یوم من البلاء إلّا انقضی عنک معه یومٌ من الرّخاء حتّی نُفضیَ جمیعاً إلی یوم لیس له انقضاء یخسرُ فیه المُبطلون.

وعن عبد السلام بن السندی قال: کان موسی عندنا محبوساً، فلمّا مات، بعثنا إلی جماعة من العدول، من الکَرْخ فأدخلناهم علیه، فأشهدناهم علی موته، ودُفن فی مقابر الشونیزیّة.

۱- قال یاقوت فی معجم البلدان: نقمی بالتحریک والقصر من النقمة وهی العقوبة، مثل الجَمَزَی من الجمز: بجانب أُحد، کان لآل أبی

طالب.

ص: ۶۱

قلت: له مشهدٌ عظيم مشهورٌ ببغداد. دُفن معه فيه حفيده الجواد. ولولده علىّ بن موسى مشهدٌ عظيم بطُوس. وكانت وفاهٔ موسى الكاظم فى رجب سنهٔ ثلاث وثمانين ومائهٔ. عاش خمساً وخمسين سنهٔ وخلف عدّهٔ أولاد. الجميع من إماء: علىّ، والعبّاس، وإسماعيل، وجعفر، وهارون، وحسن، وأحمد، ومحمّد، وعبيد الله، وحمزهٔ، وزيد، وإسحاق، وعبد الله، والحُسين، وفضل، وسليمان، سوى البنات، سمّى الجميع: الزبير فى «النسب».

انتهى كلام الذهبى.

بعد هذا كلّه، لم يبق من موانع قبول حديث الشيعهٔ ورواياتهم إلّا قضيّهٔ وثاقتهم أنفسهم وصدقهم فى مقالهم وإنّ المسلم المنصف إذا راجع تراجم الرجال ووصف الرواهٔ فى المعاجم المعدّهٔ لذلك ليرى كوضح النهار أنّ شأن الشيعهٔ فى الوثاقهٔ والصدق لا يقلّ – على الأقلّ – من شأن غيرهم من المسلمين الذين رووا، ولا ـ أنّ أمرهم من ذلك أنقص – على الأقلّ – من أمر غيرهم؛ فترى أنّ أصحاب التراجم وكتب الرجال على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم يذكرون كثيراً من الشيعهٔ ويعترفون لهم بصدق الحديث والأمانهٔ فى القول بعدما وصفوهم بالتشيّع فى المذهب، وربّما سبّوهم أو لعنوهم لمذهبهم، ولكن لم يكن عندهم مجال للقدح فيهم من حيث الوثاقهٔ ولا لهم مناص من الاعتراف بالصدق.

فلم يؤخذ عليهم إلّا أنّ مذهبهم التشيّع ولا ـ رأوا لهم زلّهٔ إلّا موالاتهم لأهل بيت نبيّهم (ص)، وقد جمع الإمام السيّد شرف الدِّين العاملى فى كتابه المراجعات ما يزيد على مائهٔ ممّن وصف بالتشيّع مع الاعتراف من مخالفيهم لهم بالصدق والاعتماد إليهم فى الحديث والركون إليهم فى الروايهٔ.

ويكفيك فى هذا المجال أن تراجع كتاب الذهبى الذى قلّما يشذّ عن سبّه ولعنه شيعىّ أو ينجو من طعنه ولسانه موالى لأهل البيت (عليهم السلام)، ومع ذا وذاك فاعترافه بوثاقهٔ جمٍّ غفير من الشيعهٔ بيِّن، ومصادقته لهم على الوثاقهٔ فى طيّات كتابه غير خفىّ، وكفى بذلك فضلًا.

قال الذهبى فى سالم بن أبى حفصهٔ العجلى الكوفى: رأى ابن عبّاس وروى عن الشعبى وطائفهٔ؛ وعنه السفيانان ومحمّد بن فضيل.

قال الفلّاس: ضعيف مفرط فى التشيّع، وأمّا ابن معين فوثّقه.

وقال النسائى: ليس بثقهٔ.

وقال ابن عدى: عيب عليه الغلوّ، وأرجو أنّه لا بأس به (۱).

أقول: إنّما عابوا عليه تشيّعه أو غلوّه حسب زعمهم.

وقال فى محمد بن فضيل بن غزوان: كوفىّ صدوق مشهور؛ وثّقه ابن معين.

وقال أحمد: حسن الحديث شيعى.

وقال أبو داود: كان شيعيّاً محترفاً.

وقال ابن سعد: بعضهم لا يحتجّ به، وله تصانيف.

وقال النسائى: لا بأس به (۲).

أقول: ظنّى أنّ عدم احتجاج البعض لتشيّعه ولم يؤخذ عليه إلّا ذلك وكم له من نظير.

وعلى أيّهٔ حال، فهذا الذى أشرنا إليه غيضٌ من فيض فى توثيق رجالات الشيعهٔ بعد الاعتراف بتشيّعهم، ومن أراد الزيادهٔ فليراجع كتب التراجم.

١- ميزان الاعتدال ١١٠: ٢.

٢- ميزان الاعتدال ٩: ۴.

ص: ۶۲

وقد جرت سیرة الناس عامة علی نسبة المذاهب إلی أصحابها بواسطة ثبوتها عن طریق أتباعهم وشیعتهم؛ فهذه فتاوی الشافعی ومالک وأبی حنیفة وغیرهم محسوبة علیهم عند أهل السنّة؛ وإنّما نقلها عنهم أتباع مدارسهم وتلامذتهم مباشرةً أو بواسطة أو وسائط.

وثبوت مذهب أهل البیت (علیهم السلام) عنهم لا یشذّ عن هذا الوجه ولا ینبغی أن یتخلّف عن هذا المسلک.

ص: ۶۳

ص: ۶۴

فقه الحج

السياسهٔ وفقه الحج

هـل السياسهٔ بعيـدهٔ عن الحـج وفقهه وقضاياه؟ وهل يفترض بحقّ تحييـد الحـج عن قضايا السياسهٔ؟ وهل يلعب الحـج دوراً فى الحياهٔ السياسيهٔ؟

هناك فى أوساط العلماء والفقهاء المسلمين أكثر من اتجاه يختلف فى هذه القضيهٔ التى التبس فيها الأمر.

الاتجاه الأول: ويـذهب هـذا الفريق إلى علمنـهٔ العبادات الدينيـهٔ عموماً، ويرى أن الفقه الإسـلامى يقـدّم العبادات معلمنهٔ خاليهٔ من أى علاقهٔ أو دور فى الحياهٔ السياسيهٔ العامّهٔ؛ فنحن إذا قرأنا كتب بعض الفقهاء المسلمين عندما يتحدثون عن العبادات بشكل عام، والحج بصورهٔ خاصّـهٔ، نجـد غياباً تاماً للسياسهٔ والاجتماع؛ فهـل تجـد أن هنـاك كلمـهٔ لهـذا الفقيه أو ذاك فى ربط الصوم بواقع الاجتماع الإسلامى والسياسهٔ؟ ومتى وجدنا ربطاً فى كلمات الفقه الإسلامى بين الصلاهٔ وقضايا المسلمين الكبرى؟

إن الـذى يسود التصوّرات الفقهيّـهٔ للعبـادات، هو منطق علمـانى بشـكل تام أو شـبه تام؛ لهـذا يرى أنصار الاتجاه الأوّل أن من الطبيعى الفصل بين فقه العبادات عامـهٔ- والحـج خاصـهٔ- وبين قضايا السياسهٔ والاجتماع؛ لأن هـذا هو الأمر الطبيعى الـذى يخرج به أىّ مطالع لتراث المسلمين فى فقه العبادات.

إن الفصـل بين الـدين العبـادى وبين السـياسهٔ أمر نجـده حتى فى طبيعـهٔ الأعمـال الفكريـهٔ لبعض الـذين لا_يؤمنون بالفصل بين الـدين والسياسهٔ عامّـهٔ؛ فالعبادات ظلّت الجانب المحايد فى الدين عن قضايا الاجتماع السياسـى، بل نحن نجد فى ثقافهٔ المسـلمين اليوم نزعهٔ ميّالهٔ لتحييد دُوْر العبادهٔ وبيوتها أيضاً عن الاجتماع والسياسهٔ؛ فتراهم يقولون: المسجد لله؛ وليس للعمل السياسى لهذا الحزب أو ذاك التنظيم أو ذلك التجمّع .. حيّدوا المساجد عن الصراعات السياسيهٔ!!

وعندما يكبر هذا المسجد ليصير المسجد الحرام أو المسجد النبوى الشريف، فمن الطبيعى أن يتضاعف الصوت المطالب بتحييد هذين المسجدين عن مثل ذلك، وبهذه الطريقهٔ تمّت علمنهٔ العبادات، وهى علمنهٔ ساهم فيها بعض الفقهاء المسلمين أنفسهم قديماً وحديثاً.

۱- نقد نظريهٔ علمنهٔ العبادات

والذى نلاحظه على اتجاه علمنهٔ العبادات الدينيهٔ:

أولًا: إذا وجـدنا فى النصوص التى هى مرجع عمـل الفقهـاء وفتاواهم ما يؤكـد لنا الـدور السياسـى للعبادات وبيوت الصـلاهٔ والـدعاء؛ فسنكون مضطرين لاستبدال مرجعيهٔ الفقه الموروث بمرجعيهٔ أخرى هى الأصل و الأساس، عنيت مرجعيهٔ الكتاب والسنّهٔ، لأن الفقه هو الفرع الذى يخرج من ذاك الأصل، فلا يصحّ له أن يتخطاه أو يتجاوزه.

وإذا رجعنـا إلى العبادات فى الكتاب والسنّهٔ سنجد المـدلول السياسـى والاجتماعى حاضـراً؛ فالأحاديث تـذكر- ومنها خطبـهٔ الرسول الأكرم (ص) فى اسـتقبال شـهر رمضان المبارك- أن الصوم يبعث على إحساس طبقات المجتمع ببعضـها، أى إنّه يساعد على تقصـير المسافهٔ بين الطبقهٔ الغنيهٔ والطبقهٔ الفقيرهٔ، وبهذا ندخل- شـئنا أم أبينا- فى سـياق سياسـى داخلى، فى علاقات طبقات المجتمع ببعضها؛ لأن السياسهٔ لا تعنى قضايا الحرب والسلم فحسب، بل تطال- بالمفهوم العام- مختلف قضايا الاجتماع الإسلامى العامّهٔ.

ص: ۶۵

وهكذا عندما نجد أن الصلاة والحج و ... فيها مثل هذه الخصوصيات، كما سوف نلمح بعون الله تعالى.

ثانياً: لنفرض أن النصوص ليس فيها أيّ إشارة لهذا الموضوع، لكن تحليل بعض هذه العبادات يدفعنا للاقتناع بذلك، فالخمس والزكاة بأنواعهما من العبادات فی الرأی الفقهی السائد، هل يستطيع أحد أن يفصلهما عن المفهوم السياسی العام؟! ألا يدخلان فی السياسة الاقتصادية وفی علاقات الناس ببعضها؟!

ثالثاً: لنفرض أننا تنازلنا عن الأمرين السابقين، لكن وجدنا بالتجربة أنه يمكن توظيف هذه العبادة أو تلك فی الصالح العام للمسلمين، هل يكون تفعيل دور العبادات فی الصالح العام أمراً مرفوضاً؟! هل القاعدة العامة ترفض ذلك إذا استطعنا تجنّب بعض سلبيات التطبيق أم تدعمه؟! إذا جعلنا من الحج مؤتمراً سنوياً ليفتح المسلمون فيه قلوبهم لبعضهم، ويطرحوا فيه قضاياهم، ويتعرّفوا على أوضاعهم، ويتبادلوا الرأی فی حلّ مشكلاتهم الكبری، هل قوله تعالی- فی الآية التی ذكرت محرّمات الحج-: فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِی الْحَجِّ (۱) تحظر مثل هذا الأمر، أم أن العمومات والقواعد العامّة تساعد عليه، مثل الحديث الشريف: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم، ومن سمع رجلًا ينادی: يا للمسلمين، فلم يجبه، فليس بمسلم» (۲)؟!

نعم، رفض علمانية العبادات وتعطيلها عن التأثير على حياتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، يجب أن يلحظ معه بعض الأمور، حتّی لا يؤدی ذلك إلی التورّط فی بعض السلبيات، ومن هذه الأمور التی لا نقصدها ما يلی:

أ- الخلط بين القضايا السياسية والاجتماعية الكبری، وبين المخاصمات الحزبية الضيقة أو الاستغلال الحزبی والسياسی المحدود الأفق للعبادات، فعندما نقول: إنّ المسجد له دور فی الحياة السياسية، وأنّ المسجد النبوی كان مركزاً للعمل السياسی فی حياة الرسول (ص)، وأنّه يمثل البرلمان الإسلامی على حدّ قول الدكتور علی شريعتی .. عندما نقول ذلك، لا يعنی أن تنقسم مساجدنا انقساماً سياسياً، فهذا المسجد للجماعة الفلانية، وذاك للجماعة الأخری، وهذا المسجد لا ندخله؛ لأنّه للحزب الفلانی، وآخر ندخله لأنه للحزب الآخر الذی ننتمی إليه.

وحتّی لو تخطينا المدلول الضيّق لتسييس المسجد، فإن الأمر عينه يجری على مذهبة المساجد، فهذا المسجد شيعی إذاً فلا يدخله السنی، وهذا المسجد سنی إذاً فلا يدخله الشيعی، وذاك المسجد أباضی إذا فلا يدخله الإسماعيلی ...

هذا المعنی لتسييس المساجد ومذهبتها لا أساس له فی الدين، فهنا نقول: المسجد لله تعالی، هو للصلاة، هو بيت الله، لا بيت هذا الزعيم ولا ذاك، هو بيت الرحمن لا بيت هذا الحزب السياسی أو ذاك، هو بيت الصلاة، وليس بيت هذا المذهب أو ذاك.

وهذا ما يظهر جلياً فی المساجد والمشاهد الإسلامية الكبری، فهی للمسلمين عموماً وإن تولاها هذا المذهب أو ذاك، أو هذه الجماعة السياسية أو تلك، أو هذا الزعيم أو ذاك، أو هذه الدولة أو تلك.

فعندما أدخل المسجد الحرام فأنا أدخل مسجد الله ومكان عبادته، ولا أدخل مسجداً سلفياً أو سعودياً أو عربياً، وهكذا عندما أدخل الحرم الرضوی فی مدينة مشهد فی إيران، فأنا لا أدخل مشهداً شيعياً ولا إيرانياً ...

نعم، هذا المعنی للتسييس مرفوض؛ إنّه استغلال لبيت الله وللعبادات وليس استخداماً له لخدمة الدين، فعلينا أن لا نخلط بين علاقة العبادة بالسياسة والاجتماع، وبين هذه المعانی الضيّقة للسياسة.

ب- تغيب الدور الروحی للعبادات؛ فعندما نتحدّث عن علاقة العبادات- ومنها الحج- بالسياسة والاجتماع الإسلاميين، فهذا لا يعنی تغييب أو إضعاف الدور الروحی للعبادات؛ حيث يفترض أن لا يكون هذا على حساب ذاك، ولا ذاك على حساب هذا، بل يفترض تحقيق التوازن الذی يضع كل واحدة فی موضعها؛ تفادياً لأیّ إفراط أو تفريط.

۱- البقرة: ۱۹۷.

۲- الكافى ۱۶۴: ۲.

ص: ۶۶

وبهذا یتبین أن اتجاه علمنة العبادات لیس اتجاهاً صائباً عند ما یؤخذ علی إطلاقه.

۲- الحج واتجاه الاعتدال بین الحقّ والخلق

الاتجاه الثانی: وهو الاتجاه الذی یری أن للعبادات وجهین: أحدهما روحی غیبی فی اتصاله مع الله سبحانه، وثانیهما اجتماعی- سیاسی فی علاقته بالخلق، وأنه لا یصح تجاهل أحد الوجهین لصالح الآخر، بل یفترض إیجاد التوازن بینهما.

وطبقاً لهذا الإطار العام الذی یحکم العبادات، یجری تطبیق المفهوم عینه علی الحج، فللحج بُعد سیاسی ووحدوی واجتماعی کما یقول الشیخ محمود شلتوت (۱)، ونجد ما ینصر هذا البعد فی آیات القرآن الکریم، قال تعالی: جَعَلَ اللهُ الْکَعْبَةَ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْیَ وَ الْقَلائِدَ ... (۲)، فکلمة «قیاماً» لها دلالة علی مکانة هذه المسمیات الواردة فی الآیة فی إقامة شؤون الناس.

وقال سبحانه: وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَکُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَکُمْ فِیها خَیْرٌ فَاذْکُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَیْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَکُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ کَذلِکَ سَخَّرْناها لَکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۳)، وقال عز من قائل: لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ یَذْکُرُوا اسْمَ اللهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَةِ الْأَنْعامِ فَکُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِیرَ (۴).

فهذه الآیات تضع الهدی فی سیاق تعاون اقتصادی یکفل فیه الغنیّ الفقیر لیطعمه، فلا ینظر للجانب الروحی الصرف، وإنما یربط العبادة بجانبها الاجتماعی أیضاً.

من هنا، نمیل إلی الاتجاه الثانی الذی یحافظ علی کلا بُعدی العبادة، فلا یفرط هنا أو هناک، ونحن نجد فی السیرة النبویة کیف لم ینأی الرسول (ص) عن إقحام القضایا السیاسیة فی الحج، فلم یقل: إنّ الناس فی حج، ولا ینبغی فی أثناء العبادات أن نعلن البراءة من المشرکین، بل أرسل علیاً (ع) لیعلن هذا القرار السیاسی الهام جداً، والذی أمره به القرآن الکریم فی مطلع سورة التوبة (۵).

نعم، قد نختلف فی کیفیة وطریقة وآلیة المحافظة علی البعد السیاسی فی الحج، وربما أرجّح طریقةً وترجّح أنت أخری، وهذا شیء طبیعی لا یضرّ بأصل الحفاظ علی الحیثیة الاجتماعیة والسیاسیة لهذه الفریضة، إنما حدیثنا عن المبدأ الذی لا ینبغی هدره لأجل الخلاف فی التفاصیل والآلیات.

بین فقه الحج و فقه الزیارة

فی قضیة فقه الحج وفقه الزیارة، نجد أنّه لابدّ من دراسة هذا الموضوع ورصده علی مستوی الاهتمام، فنحن نلاحظ وجود تیارات ثلاثة فی هذا المجال، وهی:

التیار الأول: یری أنصار هذا التیار الفکری والدینی والثقافی أن الزیارات مبدأ مرفوض، فلا معنی لزیارة القبور فی البقیع وغیرها، وأن الله تعالی قد نهانا عن ذلک من خلال السنّة النبویة، فالحاج علیه الذهاب إلی الحج وأداء أعماله ومناسکه، وأن لا یلتهی بمثل هذه الزیارات للقبور ونحوها عن أعمال الحج وذکر الله والتضرّع إلیه، نعم زیارة الرسول الأکرم (ص) وردت بها السنّة من حیث زیارة المسجد النبوی.

التیار الثانی: ویری أو یمارس اهتماماً عظیماً بأمر الزیارات، حتّی أننا نجده یذهب إلی الحجاز والزیارة حاضرة فی قلبه ومشاعره أکثر من حضور الحج نفسه، إنّه یعتقد أن الزیارات مقوّم أساس لإیمان المرء وأنّها یجب أن تکون فی سلّم الأولویات فی فقه الحج وقضایاه.

۱- محمود شلتوت، من توجیهات الإسلام: ۴۰۳، دار القلم، القاهرة.

٢- المائدة: ٩٧.

٣- الحج: ٣۶.

۴- الحج: ٢٨.

۵- التوبة: ٣.

ص: ۶۷

التیار الثالث: وهو الذی نمیل إلیه، فنحن نعتقد أنّه لابد من إصلاحات علی وجهة نظر الفریق الأوّل والثانی معاً؛ لوضع الأمور فی نصابها الطبیعی والصحیح، فعلی مستوی الفریق الأوّل نقول: إن زیارة المشاهد والمراقد والأماکن التاریخیة فی مکة والمدینة وعامة بلاد الحجاز لیست أمراً محرماً فی حدّ نفسه حتّی نتشدّد معه بهذه الطریقة، فأیّ مانع أن یرتبط الناس بهؤلاء العظماء فی البقیع وغیرها من وجوه وکبار أئمة أهل البیت النبوی والصحابة والشهداء وغیرهم، إنّه ارتباط بالقیم والمثل التی حملوها فی تاریخ حیاتهم، وزیارة المشاهد التاریخیة تذکّر بتاریخ الإسلام لیبقی راسخاً فی ذاکرة الحاجّ والمعتمر، یحدّث عن هؤلاء العظماء وعن ذاک التاریخ الحافل، بعد عودته إلی موطنه، إنها مقاصد شرعیة علیا تظهر جلیة فی هذا الأمر، وبدل أن نحاربها علینا أن ندعمها ونرسّخها لربط الناس بهذا التاریخ وبهؤلاء الرجال.

نحن نعتقد أنه حتی الرسائل العملیة الفقهیة یجب أن تحوی- ولو باختصار- موجزاً عن تاریخ الإسلام فی بلاد الحجاز والشخصیات الکبری والأولی فی هذا التاریخ؛ فالحاج عندما یذهب إلی هناک یذهب واعیاً للتاریخ ولما هو موجود، فیکون حجّه عن وعی، فکلما رأی مَعْلَماً تذکّر کل ذلک المجد العریق للإسلام، فبدل أن ندمّر هذه الذاکرة التاریخیة العظیمة علینا المحافظة علیها، فإن فی ذلک ربط الناس- کما قلت- بالإسلام ومثله وقیمه.

نعم، نستدرک- وهنا نتحاور مع بعض أنصار الفریق الثانی أیضاً- ونقول: قد تصدر هنا أو هناک طرائق فی التعبیر لا نتفق معها، فالحدیث عن عدم الاهتمام بالحج و شعائره وعدم الحضور الروحی معها لصالح التفاعل العاطفی مع الزیارات فحسب ... هذا الحدیث غیر صحیح إسلامیاً، ویجب ترشید الناس الذین لا- نوایا خبیثة لهم، ففی الزیارات- کما فی أیّ عبادة أخری- یجب علی الفقه الإسلامی وعلی القیّمین علی تطبیق الفقه والأخلاق، أن ینتبهوا من أیّ ممارسات مبالغ بها وتحوی إفراطاً وخروجاً عن جادّة الشرع، لیقفوا فی وجهها حتّی لو کان فاعلها غیر سیئ النیة، فیجب ممارسة الإرشاد معه فی هذا المجال أو ذاک، وهذا شیء لا یحصل فی الزیارات فقط، بل یحصل فی کل الأمور، فإذا ارتکب بعض المسلمین أخطاء فی إحیاء المولد النبوی الشریف فلا یعنی ذلک حرمة إحیاء هذا المولد، بل یعنی ضرورة تصحیح هذه الأخطاء لو کانت موجودة. وإذا فعل الحجاج خطأ ما فی طوافهم أو سعیهم فالمطلوب تصحیح الخطأ لا إلغاء الطواف والسعی.

نعم، من واجب علماء الدین فی المذاهب کافة، أن ینتبهوا علی الدوام للأخطاء التی یرتکبها عامة الناس أثناء أدائهم لعبادة هنا أو هناک، وأن یکونوا المصفاة التی تنقّی الدین من الکادورات التی تعلق به، إما عن عمد وسوء نیة من بعض الناس أو عن جهل وعدم قصد سیئ من آخرین، وهذا یسری علی المذاهب کافة ولا یختص بمذهب أو بآخر، حتّی نضع کل اهتمامنا بمذهب وکأن أتباع المذاهب الأخری منزهون عن ذلک أو مثله!!

إذن، فرفض الزیارات بمعناها الواسع مرفوض لأنّه لا مبرّر شرعی له، کذلک إرخاء العنان للعامة من الناس أن یفعلوا أو یعتقدوا ما شاؤوا دون تصویب حرکتهم أمر غیر صحیح؛ فالمفترض التوازن والسیر علی جادّة الشریعة، کلٌّ حسب مذهبه، ولا یصح لنا الدخول فی نوایا الناس وقصودها لاتهام هذا بالشرک وذاک بالغلو، وثالث بالتقصیر ورابع باللامبالاة، بل نتعامل مع الظاهر ونحمل المؤمن والمسلم علی الأحسن، کما أمرنا فی الکتاب والسنة أن نتعامل بود وأخوة مع المسلمین.

ص: ۶۸

ص: ۶۹

(والفجر* و ليال عشر)

سورة الفجر سورة مكية وآياتها ثلاثون آية. بدأت بأقسام أربعة وَ الْفَجْر* وَ لَيالٍ عَشْرٍ* وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْر* وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ ... فى هذه المقالة نقف عند الآيتين الأوليين فأكثر الكلام فيهما وأكتفى ببعض الإشارات أو الأقوال للآية وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْر.

إن الأيام كلها عند الله تعالى- وهى من مخلوقاته- تعد أوقات بركة، وأبواب خير ورحمة للناس، إلا أن عملية التفضيل تبقى مع ذلك- أمراً وارداً فيها، كما هو فى كل شىء وفى كل ما خلق الله تعالى .. لهذا وبعد أن خلق الله سبحانه وتعالى الأرض ميّز بعضها على بعض، وفضل بعضها على بعض، وخلق الزمان وفضل بعض أيامه على بعضها الآخر، فخصّ بعض الشهور والأيام والليالى بمزايا وفضائل لا تجدها فى غيرها، يعظم فيها الأجر، ويضاعف فيها الثواب من قبله سبحانه وتعالى، ويكثر فيها الفضل والعطاء، رحمة منه بعباده، و تشجيعاً لهم على الزيادة فى العمل الصالح والرغبة فى الطاعة، وعوناً منه تعالى لهم فى تجديد النشاط؛ ليحظى المسلم بنصيب وافر من التقوى، فالأجر والثواب .. ويتأهب للموت قبل قدومه ويتزود للآخرة قبل أوانها: وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى.

فالأيام والأزمنة وكذا الأماكن، التى تميزها السماء وتفضلها على غيرها هى فى الحقيقة وقفات تدبر وتأمل و محطات تزوّد، كما وأنها مواسم مباركة تصب بخيرها علينا .. مواسم عبادة يحب الله تعالى أن يعبد فيها ويجزل فيها العطاء للعابدين، فصول يستدرك فيها الإنسان ما فاته ويسد الخلل، ويبدل النقص، ويعوض ما فاته فى حياته، فيستأنف نشاطاً سليماً مرضياً عند بارئه وخالقه عز وجل، وما من موسم من هذه المواسم الفاضلة، إلا وقد شرع لله تعالى فيه وظيفة من وظائف الطاعة يتقرب بها العباد إليه .. وإلا لله تعالى فيها لطيفة من لطائف كرمه، ونفحة من نفحاته يصيب بها من يشاء بفضله ورحمته، فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات خصوصاً المفضلة سماوياً، وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من طاعات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار، ولا يصيبه شقاء بعدها، والنفحات جمع نفحة والنفحة لغةً تعنى الطيب الذى ترتاح له النفس. (۱)

وقد نسب إلى رسول الله (ص) قوله:

«إن لربكم فى أيام دهركم نفحات، فتعرضوا لها، لعل أحدكم أن يصيبه منها نفحة لا يشقى بعدها أبداً». (۲)

إن لَيالٍ عَشْر هى العشر الأوائل من ذى الحجة، وهو قول يعد أصحّ الأقوال كما يبدو من خلال دراسة أقوالهم العديدة فيها والتى سنأتى عليها، وهى تعد من أعظم المناسبات، فقد ثبت أن لهذه الليالى العشر الأوائل من شهر ذى الحجة فضلًا كبيراً نستقيه:

أولًا: من كتاب الله سبحانه وتعالى فقد قال الله تعالى:

وَ الْفَجْر* وَ لَيالٍ عَشْرٍ

وإذا أقسم الله بشىء دلّ هذا على عظم مكانته وفضله؛ إذ العظيم لا يقسم إلا بالعظيم.

ثانياً: من كونها أياماً معلومات شرع الله تعالى فيها ذكره المبارك، ويحظون فيها بمنافع عظيمة ويؤدون فيها أموراً أخرى كالذى حمله قوله تعالى:

لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ* ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۳)

و هذه الأيام هى عشر ذى الحجة كما عليه الأكثر، حتى ورد كما نسب إلى رسول الله (ص) أنه شهد أنها أفضل أيام الدنيا.

۱- انظر المعجم الوسيط.

۲- انظر الدر المنثور للسيوطی.

۳- الحج: ۲۸- ۲۹.

ص: ۷۰

فعن جابر ۲ عن النبی (ص) قال:

«أفضل أيام الدنيا أيام العشر- يعنی عشر ذی الحجة- قيل: ولا مثلهن فی سبيل الله؟ قال: ولا مثلهن فی سبيل الله إلا رجل عفر وجهه بالتراب.»

ثالثاً: مما صح من الأحاديث عن رسول الله (ص) التی توضح فضلها؛

فعن ابن عباس عن النبی (ص) أنه قال: ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلی الله من هذه الأيام العشر فقالوا: يا رسول الله! ولا الجهاد فی سبيل الله؟ فقال: ولا الجهاد فی سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلک بشیء»

«أنه ما من أيام أحب إلی الله تعالی العمل فيهن من هذه الأيام، يعنی أيام العشر، قالوا: ولا الجهاد فی سبيل الله يا رسول الله؟ قال: ولا الجهاد فی سبيل الله إلا أن يخرج الرجل بنفسه وماله فلم يرجع من ذلک بشیء».

رابعاً: من العبادات: الصلاة والصيام والصدقة والحج .. فمن أظهر أسباب فضل وامتياز هذه الأيام العشر من ذی الحجة، اجتماع أفضل العبادات فيها، وهی الصلاة والصيام والصدقة والحج ..

وفی الفتح قال الحافظ ابن حجر: «والذی يظهر أن السبب فی امتياز عشر ذی الحجة لمكان اجتماع أمهات العبادة فيها، وهی الصلاة والصيام والصدقة والحج، ولا يتأتی ذلک فی غيره». «... وإن صيام يوم منها يعدل بصيام سنة، والعمل فيهن يضاعف بسبعمائة ضعف».

«ما من أيام أحب إلی الله أن يُتعبد له فيها من عشر ذی الحجة، يعدل صيام كل يوم منها بسنة وكل ليلة منها بقيام ليلة القدر».

وفی التاج الجامع قالت أم سلمة أو حفصة: كان النبی (ص) يصوم تسع ذی الحجة ويوم عاشوراء. وفی الهامش: إلا إذا كان فی الحج فلا يصوم عرفة.

و صيام يوم عاشور فيه كلام ليس هذا محله.

وعن أبی هريرة عن النبی (ص) أنه قال: «ما من أيام أحب إلی الله أن يتعبد له فيها من عشر ذی الحجة يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر».

رواه الترمذی وإن كان سنده ضعيفاً كما يشيرون، ولكنهم يؤيدونه بالذی قبله ثم يقولون: ومعناه أن الله تعالی يحب العبادة فی عشر ذی الحجة أكثر من كل وقت، بل ثواب صوم اليوم الواحد منهنّ كثواب صوم سنة، وقيام الليلة فيها كقيام ليلة القدر، وهذا ترغيب عظيم وفضل الله أعظم.

وفی هامش الصفحة ۹۴: ۲ من التاج: وهی التی أقسم الله بها فی قوله تعالی:

وَ الْفَجْرِ* وَ لَيالٍ عَشْرٍ* وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ* وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ* هَلْ فِی ذلِکَ قَسَمٌ لِذِی حِجْرٍ

وهی العشر الأول من ذی الحجة. فالعمل الصالح فی هذه العشر أفضل منه فی كل وقت، إلا من خرج يجاهد بنفسه وماله فی سبيل الله فاستشهد فإن درجته أعظم. (۱)

ومعروف أن الصيام، وهو من أعظم الأعمال الصالحة، وهو العبادة التی لا يمكن أن يدخلها رياء، يمتاز بأن الله تعالی اصطفاه لنفسه كما فی الحديث القدسی: قال الله تعالی: «كل عمل بنی آدم له إلا الصيام فإنه لی وأنا أجزی به».

خامساً: من استحباب التبكير إلی الفرائض فی هذه الليالی والأيام والإكثار من التكبير فقد نسب الی رسول الله (ص) القول:

۱- صحيح البخاری ومسلم. والترمذی. والتاج الجامع للأصول فی أحاديث الرسول ۹ للشيخ منصور علی ناصف ۹۴: ۲. الترغيب والترهيب للمنذری.

ص: ۷۱

«مـا من أيـام أعظم عنـد الله سبحانه ولاـ أحب إليه العمـل فيهنّ من هـذه الأيـام العشـر، فـأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميـد».

«فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير وذِكْر الله ..»

وعن الصادق (ع): «إن أبواب السماء لا تغلق تلك الليلة لأصوات المؤمنين، لهم دوى كدوى النحل يقول الله عز وجل: أنا ربكم وأنتم عبادى، أديتم حقى وحقٌّ على أن أستجيب لكم، فيحط تلك الليلة عمن أراد أن يحط عنه ذنوبه ويغفر لمن أراد أن يغفر له».

حتى قال الشيخ الصـدوق فى عقب هـذه الروايـة: فإذا ازدحم الناس فلم يقـدروا على أن يتقدموا ولا يتأخروا كبروا فإن التكبير يذهب بالضغاط. (۱)

ولأهمية التكبير وفضيلته قال بعضهم: فالتكبير المطلق يجوز من أول ذى الحجة إلى أيام العيد، له أن يكبر فى الطرقات وفى الأسواق، وفى منى، ويلقى بعضـهم بعضاً فيكبر الله ويكبر أهـل الأـسواق حتى ترتـج منى تكبيراً .. والتكبير المقيـد فهو مـا كان عقب الصـلوات الفرائض، وخاصـة إذا أديت فى جماعـة، وكـذلك فى مصـلى العيـد .. فى الطريق إليه، وفى الجلوس فيه، على الإنسـان أن يكـبر، ولا يجلس صامتاً .. سواء فى عيد الفطر، أو عيد الأضحى؛ لأن هذا اليوم ينبغى أن يظهر فيه شعائر الإسلام، ومن أبرز هذه الشعائر التكبير .. وقد قيل: «زيّنوا أعيادكم بالتكبير».

سادساً: من استحباب الإكثار من النوافل وأفضلها قيام الليل، فإن أبواب السماء لا تغلق فى تلك الليالى فهى ليالى الرحمة والمغفرة ..

سابعاً: استحباب الإكثار من السجود؛ لقوله (ص):

«عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجدلله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة» (۲)

ثامنـاً: من اسـتحباب الإكثار من التصـدق والإنفاق وفعل غيرهما من أعمال البر والخير والصـلاح .. فعن ابن عباس حول العمل الصالح فيهـا أن رسول الله (ص) قـال: «مـا من أيـام العمـل الصالـح فيهـا أحب إلى الله من هـذه الأيام، يعنى أيام العشـر، قالوا يا رسول الله! ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد فى سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع بشىء».

وعن سـعيد بن جبير عن ابن عبـاس قـال: قـال رسول الله (ص): «ما من أيام أفضل عنـد الله، ولا العمل فيهن أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام».

تاسـعاً: من ذلك اليوم العظيم؛ الحج عرفة: إنه يوم عرفة يوم الحج الأكبر، ويوم مغفرة الذنوب، ويوم العتق من النيران، ولو لم يكن فى عشر ذى الحجة إلا يوم عرفة لكفاها ذلك فضلًا.

و يوم عرفـة هو: اليوم التاسع من ذى الحجـة، حيث يقف الحجيـج بعرفات (على بعـد اثنى عشـر ميلًا من مكة)، والوقوف بعرفات ركن الحج الأعظم لقول النبى (ص): «الحج عرفة»، وهو يوم مبارك، وهو:

«أفضل الأيام يوم عرفة».

«مَا مِنْ يَوْمٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، يَنْزِلُ اللهُ تَعَالَى إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِى بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَهْلَ السَّمَاءِ».

كلاهما عن الصحابى الجليل جابر عن رسول الله (ص).

وفى رواية: «إِنَّ اللهَ يُبَاهِى بِأَهْلِ عَرَفَةَ مَلائِكَتَهُ، فَيَقُولُ: يَا مَلائِكَتِى، انْظُرُوا إِلَى عِبَادِى، قَدْ أَتَوْنِى شُعْثًا غُبْرًا ضَاحِينَ».

كما يشهد لفضل يوم عرفة قول الله عز وجل: وَ الْفَجْرِ* وَ لَيالٍ عَشْرٍ

۱- من لا يحضره الفقيه ۱۴۱: ۲.

۲- رواه مسلم.

ص: ۷۲

وهو قَسَم يحمل عظمة هذه الأيام وعرفة منها، فالله عز وجل يقسم ببعض مخلوقاته لبيان فضلها، وقسمه سبحانه بالليالى العشر لبيان منزلتها، والترغيب بالعمل الصالح فيها .. إنه يوم مغفرة الذنوب والعتق من النار.

فعن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «الحاج إذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه».

وقال أبو جعفر (ع): «ما يقف أحد على تلك الجبال بر ولا فاجر إلا استجاب الله له، فأما البر فيستجاب فى آخرته ودنياه، وأما الفاجر فيستجاب له فى دنياه».

وقال الصادق (ع): «ما من رجل من أهل كورة (المدينة والناحية) وقف بعرفة من المؤمنين إلا غفر الله لأهل تلك الكورة من المؤمنين، وما من رجل وقف بعرفة من أهل بيت من المؤمنين إلا غفر الله لأهل ذلك البيت من المؤمنين».

«سمع على بن الحسين (عليهما السلام) يوم عرفة سائلًا يسأل الناس، فقال له: «ويحك أغير الله تسأل فى هذا اليوم؟ إنه ليرجى لما فى بطون الحبالى فى هذا اليوم أن يكون سعيداً».

«ومن أعتق عبداً له عشية يوم عرفة فإنه يجزى عن العبد حجة الإسلام ويكتب للسيد أجران: ثواب العتق وثواب الحج».

«وأعظم الناس جرماً من أهل عرفات الذى ينصرف من عرفات وهو يظن أنه لم يغفر له، يعنى الذى يقنط من رحمة الله عز وجل».

وقال الصادق (ع): «إذا كان عشية عرفة بعث الله عز وجل ملكين يتصفحان وجوه الناس، فإذا فقدا رجلًا قد عود نفسه الحج، قال أحدهما لصاحبه: يا فلان ما فعل فلان؟ قال: فيقول: الله أعلم، قال: فيقول أحدهما: اللهم إن كان حبسه عن الحج فقر فأغنه، وإن كان حبسه دين فاقض عنه دينه، وإن كان حبسه مرض فاشفه، وإن كان حبسه موت فاغفر له وارحمه». (۱)

وعن عائشة أن رسول الله (ص) قال:

«ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهى بهم الملائكة فيقول ما أراد هؤلاء». قال ابن عبد البر: وهو يدل على أنهم مغفور لهم؛ لأنه لا يباهى بأهل الخطايا والذنوب إلا بعد التوبة والغفران.

وفى صيام هذا اليوم نسب إلى رسول‌الله ٩ القول:

«صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله، والسنة التى بعده». (۲)

فقالوا يستحب صيامه لغير الحاج، أما الحاج فلا ينبغى أن يصومه حتى يتقوى على الوقوف وذكر الله تعالى.

وعن صيام يوم عرفة- تحت باب صيام عرفة لغير الحاج فى التاج الجامع- نسب إلى رسول الله (ص) قوله:

عن أبى قتادة عن النبى (ص): «صيام يوم عرفة إنى أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده».

أحتسب على الله أى أرجوه، ورجاؤه (ص) محقق، فصوم يوم من عرفة يكفر ذنوب السنة الماضية والسنة الآتية، إن وقعت فيها ذنوب تقع مغفورة، والمراد الصغائر وإن لم تكن فيرجى التخفيف من الكبائر وإلا رفع له به درجات. (۳)

وفى أفضلية الدعاء فى يوم عرفة، روى الترمذى أن رسول الله (ص) قال:

«أفضل الدعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير».

وروى أيضاً أن الإمام على بن أبى‌طالب (ع) قال:

أكثر ما دعا به النبى (ص) يوم عرفة فى الموقف:

۱- انظر من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ۱۴۰: ۲.

۲- صحيح مسلم.

۳- انتهى ما جاء فى هامش الصفحة ۹۵ من الجزء ۲ من الجامع.

ص: ۷۳

«اللهم لک الحمد کالذی نقول وخیراً مما نقول، اللهم لک صلاتی ونسکی ومحیای ومماتی، وإلیک مآبی ولک ربی تراثی. اللهم إنی أعوذ بک من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر .... (۱)

عاشراً: وتقتبس فضیلتها من ذلک الیوم العظیم المبارک التاسع من ذی الحجة یوم إکمال الدین و إتمام النعمة ورضا الله تعالی، وقد نزل فیه قوله تعالی:

الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الإِسْلامَ دِیناً (۲)

وعن مجمع البیان فی تفسیر الآیة: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ قیل فیه أقوال:

أحدها: أن معناه أکملت لکم فرائضی وحدودی وحلالی وحرامی بتنزیلی ما أنزلت وبیانی ما بینت لکم، فلا زیادة فی ذلک ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا الیوم، وکان ذلک یوم عرفة عام حجة الوداع عن ابن عباس والسدی واختاره الجبائی والبلخی قالوا: ولم ینزل بعد هذا علی النبی (ص) شیء من الفرائض فی تحلیل ولا تحریم وأنه مضی بعد ذلک بإحدی وثمانین لیلة، فإن اعترض معترض فقال: أکان دین الله ناقصاً وقتاً من الأوقات حتی أتمّه فی ذلک الیوم؟ فجوابه أن دین الله لم یکن إلا فی کمال کاملًا فی کل حال ولکن لما کان معرضاً للنسخ والزیادة فیه ونزول الوحی بتحلیل شیء أو تحریمه لم یمتنع أن یوصف بالکمال إذا أمن من جمیع ذلک فیه کما توصف العشرة بأنها کاملة، ولا یلزم أن توصف بالنقصان لما کانت المائة أکثر منها وأکمل.

وثانیها: أن معناه الیوم أکملت لکم حجکم وأفردتکم بالبلد الحرام تحجّونه دون المشرکین ولا یخالطکم مشرک، عن سعید بن جبیر وقتادة. واختاره الطبری قال: لأن الله سبحانه أنزل بعده: یَسْتَفْتُونَکَ قُلِ اللهُ یُفْتِیکُمْ فِی الْکَلالَةِ قال الفراء: وهی آخر آیة نزلت وهذا الذی ذکره لو صحّ لکان لهذا القول ترجیح لکن فیه خلاف.

وثالثها: أن معناه الیوم کفیتکم الأعداء وأظهرتکم علیهم، کما تقول: الآن کمل لنا الملک وکمل لنا ما نرید بأن کفینا ما کنا نخافه عن الزجاج.

والمروی عن الإمامین أبی جعفر وأبیعبدالله ۸ أنه إنما أنزل بعد أن نصب النبی ۹ علیاً ۷ علماً للأنام یوم غدیر خم منصرفه عن حجة الوداع قالا: وهو آخر فریضة أنزلها الله تعالی ثم لم ینزل بعدها فریضة.

وأما البخاری فقد روی بسنده: قالت الیهود لعمر: إنکم تقرءون آیة لو نزلت فینا لاتخذناها عیداً فقال عمر رضی الله عنه: إنی لأعلم حیث أنزلت، وأین أنزلت وأین کان رسول الله (ص) حین أنزلت: نزلت یوم عرفة إنا والله بعرفة قال سفیان: وأشک کان یوم الجمعة أم لا: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَرَضِیتُ لَکُمُ الإِسْلَامَ دِینًا (۳)

وإکمال الدین فی ذلک الیوم حصل؛ لأن المسلمین لم یکونوا حجوا حجة الإسلام من قبل فکمل بذلک دینهم لاستکمالهم عمل أرکان الإسلام کلها، ولأن الله أعاد الحج علی قواعد إبراهیم (ع)، ونفی الشرک وأهله فلم یختلط بالمسلمین فی ذلک الموقف منهم أحد.

وأما إتمام النعمة فإنما حصل بالمغفرة فلا تتم النعمة بدونها، کما قال الله تعالی لنبیه: لِیَغْفِرَ لَکَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِکَ وَمَا تَأَخَّرَ وَیُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ (۴) وهی تختم بأول یوم من أیام عید الأضحی؛

فعن أبی أمامة أن النبی (ص) قال:

«یوم عرفة ویوم النحر وأیام التشریق عیدنا أهل الإسلام، وهی أیام أکل وشرب» (۵)

«فنزول هذه الآیة فی عرفة التی هی أظهر معالم الحج وفی یوم جمعة الذی هو عید الأسبوع معلنة بإکمال الدین وإتمام النعمة، واختیار أحسن الأدیان جدیر بأن یکون من أعظم الأعیاد فلله مزید الحمد ووافر الشکر». (۶)

۱- رواه الترمذی.

۲- المائدة: ۳.

۳- المائدة: ۳.

۴- الفتح: ۲.

۵- رواه أبو داود.

۶- انظر التاج الجامع للأصول للشیخ منصور علی ناصف ۴: هامش ۱۰۲.

ص: ۷۴

حادی عشر: وتحظی بفضلها من یوم النحر وهو أعظم أیام السنة عند بعض العلماء، قال رسول الله (ص):

«أعظم الأیـام عنـد الله یـوم النحر، ثم یوم القر، ویوم القر هو الیوم الـذی یلی یوم النحر؛ لأـن النـاس یقرون فیه بمنی بعـد أن فرغوا من الطواف والنحر واستراحوا». (۱)

وعن الإمام الصادق (ع): «ما من عمل أفضل یوم النحر من دم مسفوک، أو مشی فی بر الوالدین أو ذی رحم قاطع یأخذ علیه بالفضل ویبدأه بالسلام، أو رجل أطعم من صالح نسکه ثم دعا إلی بقیته جیرانه من الیتامی وأهل المسکنة والمملوک وتعاهد الأسراء».

«یغفر لصاحب الأضحیة عند أول قطرة تقطر من دمها».

والأضـحیة شـکر لنعمة الله تعالی، وإحیاء لسـنة خلیله إبراهیم (ع). وفیها تذکر معانی الصبر، وتقدیم محبة الله تعالی علی شهوة النفس، وفیها توسعة علی الأهل والجار والفقیر.

فإن کنت ممن وسع الله فی رزقه فـاحرص علی الأضـحیة. فقـد ورد ذلـک فی الکتاب والسـنة، قال تعالی: (فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ) (۲)، المعنی صلِّ العید وانحر البدن، وقد ثبت فی صـحیح مسـلم عن أنس رضـی الله عنه أن رسول الله (ص) ضحی بکبشین أملحین أقرنین ذبحهما بیده وسمی وکبر.

ثـانی عشـر: کونهـا أی لَیالٍ عَشْر هی التی- کما علیه بعض المفسـرین- أعطاها الله تعالی لنبیه موسـی (ع) وهی عشر ذی الحجة لیتم المیقات کما جاء بالآیة المبارکة:

وَ واعَدْنا مُوسی ثَلاثِینَ لَیْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِیقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِینَ لَیْلَةً (۳)

وفی الیوم العاشـر منها یؤدی المسـلمون صـلاة عیـد الأضـحی وأنها من ضـمن ما تؤشـر إلیه هـذه الصـلاة أنها تعبیر عن شـکر الإنسان المؤمن لما أنعم الله تعالی علیه فی هذه الأیام المبارکة من الطاعة، ویسأل فیه الله تعالی أن یقبل أعماله وأن یثیبه وأن یجنبه کل سوء .. فهو یوم شـکر ورجـاء .. وأخیراً ینبغی علی هـذا المسـلم أن یحرص حرصـاً شدیـداً ویعزم عزمـاً جاداً علی عمارة هـذه الأیام بالأعمال والأقوال الصالحة، ومن عزم علی شیء أعانه الله وهیأ له الأسباب التی تعینه علی إکمال العمل، ومن صدق الله صدقه الله، قال تعالی: (وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا) (۴)

بعـد أن تعرضـنا لمـا أودع الله تعـالی فی هـذه الأیـام من فضائـل ومن أجر وخیر وثواب، نبـدأ الکلاـم عن الآیتین المبارکتین والأقوال المختلفة فیها وما تحملانه وما قیل فیهما:

الآیتان إعراباً ولغةً وقراءةً:

الـواو: حرف قسم وجر، والفجر مجرور بـواو القسم، والجـار والمجرور متعلقـان بـأقسم، والـواو حرف عطف، ولیـال عطف علی الفجر مجرور، وعلامـة جره الفتحـة نیابـة عن الکسـرة المقـدرة علی الیاء المحذوفـة لالتقاء الساکنین. وقـد أشار ابن مالک إلی هـذه القاعدة الهامة بقوله:

وکن لجمع مشبه مفاعلا أو المفاعیل بمنع کافلا

وذا اعتلال منه کالجواری رفعاً وجراً أجره کساری

۱- رواه أبو داود والنسائی وصححه الألبانی.

۲- الکوثر: ۲.

۳- الأعراف: ۱۴۲.

۴- العنكبوت: ۶۹.

ص: ۷۵

واختلف فی جواب القسم فقیل: هَلْ فِی ذلِکَ قَسَمٌ لِذِی حِجْرٍ وقیل: هی للتقریر کقولک: ألم أنعم علیک إذا کنت قد أنعمت، والجواب علی هذا محذوف مضمر وتقدیره: لنجازین کل أحد بما عمل، وقدّره الزمخشری: لتعذبن وقیل: الجواب مذکور وهو إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ ..

وفی مجمع البیان للشیخ الطبرسی: جواب القسم إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ وقیل: جوابه محذوف تقدیره لیقبضن علی کل ظالم أو لینتصفن کل مظلوم من ظالمه ..

وفی الدر المصون قوله: وَلْفَجْر: جوابُ هذا القَسَم قیل: مذکورٌ وهو قولُه: إِنَّ رَبَّکَ لَبِلْمِرْصَادِ

قاله ابن الأنباری.

وقیل: محذوفٌ لدلالةِ المعنی علیه، أی: لَنُجازِیَنَّ أحداً بما عَمل؛ بدلیلِ تعدیدِه ما فعلَ بالقرونِ الخالیةِ. وقدَّر الزمخشری: لیُعَذِّبَنَّ قال: یَدُلُّ علیه أَلَمْ تَرَ (۱) إلی قولِه: فَصَبَّ (۲)

وقدَّر بما دَلَّتْ علیه خاتمةُ السورةِ قبلَه سورة الغاشیة: إِنَّ إِلَیْنا إِیابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَیْنا حِسابَهُمْ لإِیابُهم إلینا وحِسابُهم علینا. (۳)

وعشر نعت للیال.

الفجر: من الفعل فجر .. وهو انکشاف ظلمة اللیل عن نور الصبح وهما فجران: أحدهما المستطیل وهو الکاذب، والآخر المستطیر المنتشر فی الأفق وهو الصادق. (۴)

وفی مجمع البیان فی تفسیر القرآن، الآیة، قال الشیخ الطبرسی فی اللغة: الفجر شق عمود الصبح فجره الله لعباده فجراً إذا أظهره فی أفق المشرق مبشراً بإدبار اللیل المظلم وإقبال النهار المضیء. وهما فجران: أحدهما الفجر المستطیل وهو الذی یصعد طولًا کذنب السرحان ولا حکم له فی الشرع. والآخر هو المستطیر المنتشر فی أفق السماء وهو الذی یحرم عنده الأکل والشرب لمن أراد أن یصوم فی شهر رمضان وهو ابتداء الیوم.

ولصاحب تفسیر البحر المحیط أبی حیان کلام فی تنکیر لیال:

فإن قلت: فما بالها منکرة من بین ما أقسم به؟ قلت: لأنها لیال مخصوصة من بین جنس اللیالی العشر، بعض منها أو مخصوصة بفضیلة لیست لغیرها.

فإن قلت: فهلا عرفت بلام العهد لأنها لیال معلومة معهودة؟ قلت: لو فعل ذلک لم تستقل بمعنی الفضیلة الذی فی التنکیر، ولأن الأحسن أن تکون اللامات متجانسة لیکون الکلام أبعد من الألغاز والتعمیة، انتهی.

وعن کتاب مسائل الرازی من غرائب آی التنزیل یقول:

فإن قیل: کیف نکر اللیالی العشر دون سائر ما أقسم به، وهلا عرفها بلام العهد وهی لیالی معلومة معهودة، فإنها لیالی عشر ذی الحجة فی قول الجمهور؟

قلنا: لأنها مخصوصة من بین جنس اللیالی العشر بفضیلة لیست لغیرها، فلم یجمع بینها وبین غیرها بلام الجنس، وإنما لم تعرف بلام العهد لأن التنکیر أدل علی التفخیم والتعظیم بدلیل قوله تعالی: وَ إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ ونظیره قوله تعالی: لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ فعرفه ثم قال وَوالد فنکّره، والمراد به آدم وإبراهیم أو محمد (ص)، ولأن الأحسن أن تکون اللامات کلها متجانسة، لیکون الکلام أبعد عن الألغاز والتعمیة، وهی فی الباقی للجنس.

انتهی ما قاله محمد بن أبی بکر بن عبد القادر الرازی فی سورة الفجر.

۱- الفجر: ۶.

۲- الفجر: ۱۳.

۳- انظر: اعراب القرآن الكريم وبيانه لمحيى الـدين الدرويش ۴۶۷: ۱۰ السورة والآية. ومجمع البيان فى تفسير القرآن، والدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى السورة والآية.

۴- انظر المعجم الوسيط الفعل فجر.

ص: ۷۶

وعن القراءة:

قرأ ابن عباس: «وليالِ عَشْرٍ» بالإضافةِ. فبعضهم يكتبُ «ليالِ» في هذه القراءةِ دونَ ياءٍ، وبعضُهم قال: «وليالى» بالياء، وهو القياسُ. قيل: والمرادُ: وليالى أيام عشرٍ، وكان مِنْ حَقِّه على هذا أن يُقال: عشرةٍ؛ لأنَّ المعدودَ مذكرٌ. ويُجاب عنه: بأنَّه إذا حُذِف المعدودُ جاز الوجهان، ومنه «وأتبعه بسِتٍّ من شوال» وسَمَعَ الكسائى: «صُمْنا من الشهر خمساً».

والعامَّةُ على «ليالٍ» بالتنوين، «عَشْرٍ» صفةٌ لها.

وقد قرأ أبو الدينار الأعرابى: والفجر، والوتر، ويسر بالتنوين فى الثلاثة. قال ابن خالويه: هذا كما روى عن بعض العرب أنه وقف على آخر القوافى بالتنوين، وإن كان فعلًا، وإن كان فيه ألف ولام. قال الشاعر:

أقلىّ اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا

انتهى.

وهذا ذكره النحويون فى القوافى المطلقة إذا لم يترنم الشاعر، وهو أحد الوجهين اللذين للعرب إذا وقفوا على الكلم فى الكلام لا فى الشعر، وهذا الأعرابى أجرى الفواصل مجرى القوافى.

وقرأ الجمهور: وَ لَيالٍ عَشْرٍ بالتنوين؛ وابن عباس: بالإضافة، فضبطه بعضهم. وَ لَيالٍ عَشْرٍ بلام دون ياء، وبعضهم وليالى عشر بالياء، ويريد: وليالى أيام عشر. ولما حذف الموصوف المعدود، وهو مذكر، جاء فى عدده حذف التاء من عشر.

والجمهور: والوتر بفتح الواو وسكون التاء، وهى لغة قريش. والأغر عن ابن عباس، وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن: بخلاف عنه؛ والأخوان: بكسر الواو، وهى لغة تميم، واللغتان فى الفرد، فأما فى الرحل فالكسر لا غير.

وحكى الأصمعى فيه اللغتين؛ ويونس عن أبى عمرو: بفتح الواو وكسر التاء. والجمهور: (يسر) بحذف الياء وصلًا ووقفاً؛ وابن كثير: بإثباتها فيهما؛ ونافع وابن عمرو: بخلاف عنه بياء فى الوصل وبحذفها فى الوقف. (۱)

هذا ما ورد فى اللغة والإعراب والقراءة.

الأقوال:

ولهم فى تفسير الفجر أقوال:

۱- الفجر فجر يوم عرفة ويبدو أنه قول أكثر المفسرين.

۲- فجر يوم النحر؛ لأنه يقع فيه القربان ويتصل بالليالى العشر عن أبى مسلم.

۳- فجر أول يوم من ذى الحجة؛ لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال: (وَ لَيالٍ عَشْرٍ) وهى عشر ذى الحجة عن مجاهد والضحاك.

۴- فجر أول المحرم لأنه تتجدد عنده السنة عن قتادة.

۵- فجر كل يوم أو فجر النهار وهو انفجار الصبح كل يوم، عن عكرمة والحسن والجبائى ورواه أبو صالح عن ابن عباس .. أقسم به كما أقسم بالصبح، ويراد به الجنس، لا فجر يوم مخصوص.

۶- أراد بالفجر النهار كله عن ابن عباس.

۷ فجر يوم الجمعة.

۸- الفجر هو صلاة الصبح. وقرآنها هو قرآن الفجر.

۹- وقيل: فجر العيون من الصخور وغيرها.

وفى وَ لَيالٍ عَشْرٍ لهم أقوال عديدة،

۱- انظر البحر المحيط لأبی حيان.

ص: ٧٧

وقبل ذلك يمكننا أن نشير إلى أن هناك قولين يعدان من أهم الأقوال فى المراد من وَ لَيالٍ عَشْرٍ نؤشر عليهما باختصار:

القول الأول: هو عشر ذى الحجة لما ذكرناه من أسباب خصت بها هذه الليالى منحتها صفات رائعة وجعلتها أياماً فاضلة.

القول الثانى: إن المراد ب- وَ لَيالٍ عَشْرٍ ليال العشر الأخيرة من رمضان؛ لأن الأصل فى الليالى أنها الليالى وليست الأيام، وقالوا: إن ليال العشر الأخيرة من رمضان فيها ليلة القدر التى قال الله عنها فى سورة القدر: خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ وقال: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيم (١)

وقال هذا الفريق: وهذا القول أرجح من القول الأول، وإن كان القول الأول هو قول الجمهور، لكن اللفظ لا يسعف قول الجمهور، وإنما يرجح القول الثانى أنها الليالى العشر الأواخر من رمضان، وأقسم الله بها لشرفها، ولأن فيها ليلة القدر، ولأن المسلمين يختمون بها شهر رمضان الذى هو وقت فريضة من فرائض الإسلام وأركان الإسلام، فلذلك أقسم الله بهذه الليالى.

ويمكن أن يقال: إن اللغة العربية من السعة بدرجة عالية تسمح بأن تطلق الليالى ويراد بها الأيام والأيام تطلق ويراد بها الليالى.

بعد هذا نذكر الأقوال:

١- العشر الأول من ذى الحجة عن ابن عباس والحسن وعبدالله بن الزبير وقتادة ومجاهد والضحاك والسدى. قال ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك: وهى العشر الأول من ذى الحجة شرفها الله تعالى ليسارع الناس فيها إلى عمل الخير واتقاء الشر على طاعة الله فى تعظيم ماعظم وتصغير ما صغره، وينالون بحسن الطاعة الجزاء بالجنة.

وقد اعتمد هذا القول الشيخ الطوسى فى تبيانه بعد أن أضاف للقائلين به كلًا من عبدالله بن الزبير ومسروق وابن زيد. وذكر القول الثانى: العشر من أول محرم، قال: والأول هوالمعتمد.

٢- العشر الأوائل من شهر محرم.

٣- العشر الأواخر من شهر رمضان فى رواية أخرى عن ابن عباس.

۴- وقيل: إنها عشر موسى للثلاثين ليلة التى أتمها الله بها.

وفى تفسير الأمثل تفصيل وأقوال أخرى ننقلها كما جاءت عنده:

الْفَجْر: فى الأصل، بمعنى الشقّ الواسع، وقيل للصبح «الْفَجْر»؛ لأنّ نوره يشقّ ظلمة الليل.

وكما هو معلوم فالفجر فجران: كاذب وصادق.

الفجر الكاذب: هو الخيط الأبيض الطويل الذى يظهر فى السماء، ويشبّه بذنب الثعلب، تكون نقطة نهايته فى الافق، وقسمه العريض فى وسط السماء.

الفجر الصادق: هو النور الذى يبدأ من الافق فينتشر، وله نورانية وشفافية خاصة، كنهر من الماء الزلال يغطى افق الشرق ثمّ ينتشر فى السماء.

ويعلن الفجر الصادق عن انتهاء الليل وابتداء النهار، وعنده يمسك الصائمون، وتصلى فريضة الصبح.

وفُسّر الْفَجْر فى الآية بمعناه المطلق، أى: بياض الصبح.

١- الدخان: ٣- ۴.

ص: ۷۸

ولا ـ شک فهو من آيات عظمة الله سبحانه وتعالى، ويمثل انعطافاً فى حركة حياة الموجودات الموجودة على سطح الأرض، ومنها الإنسان، ويمثل كذلك حاكمية النور على الظلام، وعند مجيئه تشرع الكائنات الحية بالحركة والعمل، ويعلن انتهاء فترة النوم والسكون.

وقد أقسم الله تعالى ببداية حياة اليوم الجديد.

وفسّره بعض، بفجر أوّل يوم من محرم وبداية السنة الجديدة.

وفَسّره آخرون، بفجر يوم عيد الأضحى، لما فيه من مراسم الحج المهمّة ولاتصاله بالليالى العشرة الاولى من ذى الحجّة.

وقيل أيضاً: إنّه فجر أوّل شهر رمضان المبارک، أو فجر يوم الجمعة.

ثم يخلص إلى أن مفهوم الآية أوسع من أن تحدد بمصداق من مصاديقها، فهى تضم كلّ ما ذكر.

وذهب البعض إلى أوسع ممّا ذكر حينما قالوا: هو كلّ نور يشع وسط ظلام .. وعليه، فبزوغ نور الإسلام ونور المصطفى (ص) فى ظلام عصر الجاهلية هومن مصاديق الفجر، وكذا بزوغ نور قيام المهدى [فى وسط ظلام العالم (كما جاء فى بعض الرّوايات) (۱)

ومن مصاديقه أيضاً، ثورة الحسين (ع) فى كربلاء الدامية، لشقها ظلمة ظلام بنى اميّة، وتعرية نظامهم الحاكم بوجهه الحقيقى أمام النّاس.

ويكون من مصاديقه، كلّ ثورة قامت أو تقوم ضدّ الكفر والجهل والظلم على مرّ التاريخ ..

وحتى انقداح أوّل شرارة يقظة فى قلوب المذنبين المظلمة تدعوهم إلى التوبة، فهو «فجر».

وممّا لا شک فيه أنّ المعانى هى توسعة لمفهوم الآية، أمّا ظاهرها فيدل على «الفجر» المعهود.

وأخيراً وبعد ذكره لكل هذه الأقوال يذكر ما يلى:

والمشهور عن «ليال عشر»: إنّهن ليالى أوّل ذى الحجّة، التى تشهد أكبر اجتماع عبادى سياسى لمسلمى العالم من كافة أقطار الأرض، وورد هذا المعنى فيما رواه جابر بن عبد الله الأنصارى عن النّبى (ص). (۲)

وقيل: ليالى أوّل شهر محرم الحرام.

وقيل أيضاً: ليالى آخر شهر رمضان، لوجود ليلة القدر فيها.

والجمع بين كلّ ما ذُكر ممكن جدّاً.

وذكر فى بعض الرّوايات التى تفسّر باطن القرآن: إنّ «الفجر» هو «المهدى المنتظر [» .. و «ليال عشر» هم الأئمّة العشر قبله (عليهم السلام) .. و «الشفع»– فى الآية– هما علىّ وفاطمة (عليهما السلام).

وعلى أيّة حال، فالقسم بهذه الليالى يدلّ على أهميتها الإستثنائية نسبة لبقية الليالى، وهذا هو شأن القسم، ولا مانع من الجمع بين كلّ ما ذكر من معان.

وفى الهامش يذكر جاءت: وَلَيالٍ عَشْرٍ بصيغة النكرة للدلالة على عظمتها وأهميتها، وإلّا فهى تنطبق على كلّ ما ذكر أعلاه.

انتهى ما قاله صاحب التفسير الأمثل الشيخ مكارم الشيرازى عند تفسيره سورة الفجر.

ملاحظة:

وإن كان حديثنا يتناول الآيتين الأولى والثانية فقط من سورة الفجر، فمن الضرورى ذكر المراد من الآية: وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ باختصار:

۱– راجع تفسير البرهان ۴۵۷: ۴، الحديث ۱.

۲- تفسیر أبی الفتوح الرازی، ۷۴: ۱۲.

ص: ۷۹

لهم أيضاً فی الآیهٔ وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ أقوال عدیدهٔ کما هی فی الآیتین السابقتین، ومن ضمن هذه الأقوال فی المراد من الشفع والوتر:

الأول:

الشفع: هو یوم النحر.

الوتر: هو یوم عرفهٔ.

وهـذان ینسـبان إلی کل من ابن عباس وعکرمهٔ والضـحاک وهی روایهٔ جابر عن النبی (ص)، والوجه فیه أن یوم النحر یشـفع بیوم نفر بعده، وینفرد یوم عرفهٔ بالموقف.

الثانی:

الشفع: یوم الترویهٔ.

الوتر: یوم عرفهٔ.

وروی ذلک عن أبی جعفر وأبی عبد الله ٨.

الثالث:

قیل: إن الشـفع والوتر فی قول الله عز وجل: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِی یَوْمَیْنِ فَلا إِثْمَ عَلَیْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَیْهِ فالشـفع النفر الأول، والوتر النفر الأخیر .. (۱)

هذا، وقد ذکر کتاب التحریر والتحبیر فیها سـتهٔ وثلاثین قولًا وذکر ابن عطیهٔ فی الشـفع والوتر أربعهٔ عشر قولًا، والزمخشری ثلاثهٔ أقوال ...

ومن الأقوال: ماروواه أبو أیوب عنه (ص):

«الشفع یوم عرفهٔ ویوم الأضحی، والوتر: لیلهٔ النحر».

فیما روی جابر عنه (ص):

«الشفع یوم النحر، والوتر یوم عرفهٔ».

وفی حدیث عن جابر:

«صوم عرفهٔ وتر لأنه تاسعها، ویوم النحر شفع لأنه عاشرها».

وفی حـدیث آخر عن أبی الزبیر عن جابر عن النبی (ص) قال: «إن العشـر عشـر الأضـحی، والوتر یوم عرفهٔ، والشـفع یوم النحر»، ورواه النسائی. وذکره ابن کثیر فی تفسیره.

وسنجد هذا فی أقوال بعضهم.

قالوا عن: لَیالٍ عَشْرٍ

لهم العدید من الأقوال عن هذه الأیام المبارکهٔ، نسجل بعضها:

عن سعید بن جبیر:

۱. «لا تطفئوا سرجکم لیالی العشر»، کنایهٔ عن القراءهٔ والقیام.

۲. ابن حجر:

السبب فی امتیاز عشر ذی الحجهٔ: لمکان اجتماع أمهات العبادهٔ فیه، وهی الصلاهٔ والصیام والصدقهٔ والحج، ولا یأتی ذلک فی غیره.

۳. ابن رجب:

۱- انظر مجمع البيان فی تفسير القرآن للشيخ الطبرسی: سورة الفجر.

ص: ۸۰

لما كان الله سبحانه قد وضع فى نفوس عباده المؤمنين حنيناً إلى مشاهدهٔ بيته الحرام، وليس كل أحد قادراً على مشاهدته كل عام، فرض على المستطيع الحج مرهٔ واحدهٔ فى عمره، وجعل موسم العشر مشتركاً بين السائرين والقاعدين.

۴- وقال آخرون:

أيام عشر ذى الحجهٔ أفضل الأيام، وليالى العشر الأواخر من رمضان أفضل الليالى.

۵- أيام عشر ذى الحجهٔ أفضل من أيام العشر من رمضان، والليالى العشر الأواخر من رمضان أفضل من ليالى عشر ذى الحجهٔ.

۶- أنس بن مالک:

كان يقال: أيام العشر بكل يوم ألف يوم، ويوم عرفهٔ بعشرهٔ آلاف يوم.

۷. الإمام الأوزاعى:

بلغنى أن العمل فى اليوم من أيام العشر كقدر غزوهٔ يصام نهارها ويحرس ليلها إلا أن يختص امرؤ بشهادهٔ ..

أقوال بعض المفسرين:

وهنا نذكر بإيجاز ما قاله عدد من المفسرين بخصوص هاتين الآيتين: وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ

بدأ الرازى فى تفسيره لهذه الآيات بقوله:

اعلم أن هذه الأشياء التى أقسم الله تعالى بها لا بد وأن يكون فيها إما فائدهٔ دينيهٔ، مثل كونها دلائل باهرهٔ على التوحيد، أو فائدهٔ دنيويهٔ توجب بعثاً على الشكر، أو مجموعهما، ولأجل ما ذكرناه اختلفوا فى تفسير هذه الأشياء اختلافاً شديداً، فكل أحد فسّره بما رآه أعظم درجهٔ فى الدين، وأكثر منفعهٔ فى الدنيا.

ثم راح يعدد فقط وجوهاً لتفسير المراد من: وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ.

وقال عن وَلَيَالٍ عَشْرٍ إنما جاءت منكرهٔ من بين ما أقسم الله به لأنها ليال مخصوصهٔ بفضائل لا تحصل فى غيرها والتنكير دال على الفضيلهٔ العظيمهٔ.

وقبل أن يصوب الطبرى قولًا، يذكر عدداً من الروايات عن مراد وَلَيَالٍ عَشْرٍ وهذه هى:

وقوله: وَلَيَالٍ عَشْرٍ اختلف أهل التأويل فى هذه الليالى العشر أىّ ليال هى؟ فقال بعضهم: هى ليالى عشر ذى الحجهٔ.

حدثنا ابن بشار، قال: ثنا ابن أبى عدىّ، وعبد الوهاب ومحمد بن جعفر، عن عوف، عن زرارهٔ، عن ابن عباس، قال: إن الليالىَ العشر التى أقسم الله بها، هى ليالى العشر الأول من ذى الحجهٔ.

حدثنى محمد بن سعد، قال: ثنى أبى، قال: ثنى عمى، قال: ثنى أبى، عن أبيه، عن ابن عباس: وَلَيَالٍ عَشْرٍ: عشر الأضحى قال: ويقال: العشر: أولَ السنهٔ من المحرم.

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وَهب، قال: أخبرنى عمر بن قيس، عن محمد بن المرتفع، عن عبد الله بن الزّبير وَلَيَالٍ عَشْرٍ: أوّل ذى الحجهٔ إلى يوم النحر.

حدثنى يعقوب، قال: ثنا ابن عُلَيهٔ، قال: أخبرنا عوف، قال: ثنا زرارهٔ بن أوفى، قال: قال ابن عباس: إن الليالى العشر اللاتى أقسم الله بهنّ: هن الليالى الأُوَل من ذى الحجهٔ.

ص: ۸۱

حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا إسرائيل، عن أبی إسحاق، عن مسروق وَلَيالٍ عَشْرٍ قال: عشر ذی الحجة، وهی التی وعد الله موسی (ع).

حدثنی يعقوب، قال: ثنا ابن عُلَيَة، قال: أخبرنا عاصم الأحول، عن عكرِمة وَلَيالٍ عَشْرٍ قال: عشر ذی الحجة.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، عن الأغرّ المنقریّ، عن خليفة بن حصين، عن أبی نصر، عن ابن عباس وَلَيالٍ عَشْرٍ قال: عشر الأضحی.

حدثنی محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسی، وحدثنی الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء، جميعاً، عن ابن أبی نجيح، عن مجاهد، فی قول الله: وَلَيالٍ عَشْرٍ قال: عشر ذی الحجة.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة وَلَيالٍ عَشْرٍ قال: كنا نحدّث أنها عشر الأضحی.

حدثنا ابن عبد الأعلی، قال: ثنا ابن ثَور، عن معمر، عن يزيد بن أبی زياد، عن مجاهد، قال: ليس عمل فی ليال من ليالی السنة أفضل منه فی ليالی العشر، وهی عشر موسی التی أتمَّها الله له.

حدثنا ابن عبد الأعلی، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن أبی إسحاق، عن مسروق، قال: ليال العشر، قال: هی أفضل أيام السنة.

حُدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ، يقول: ثنا عبيد، قال: سمعت الضحاك يقول فی قوله: (وَلَيالٍ عَشْرٍ) يعنی: عشر الأضحی.

حدثنی يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، فی قوله: وَلَيالٍ عَشْرٍ قال: أوّل ذی الحجة، وقال: هی عشر المحرّم من أوّله.

بعد أن ذكر الرازی ذلک يخلص إلی:

والصواب من القول فی ذلک عندنا: أنها عشر الأضحی، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، وأن عبد الله ابن أبی زياد القَطْوانیّ:

حدثنی قال: ثنی زيد بن حباب، قال: أخبرنی عياش بن عقبة، قال: ثنی جُبير بن نعيم، عن أبی الزبير، عن جابر، أن رسول‌الله (ص) قال: وَالْفَجْرِ* وَلَيالٍ عَشْرٍ، قال: عَشْرُ الأَضْحَی.

وفی تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور:

وقوله: وَلَيالٍ عَشْرٍ: هی ليال معلومة للسامعين موصوفة بأنها عشر واستُغنی عن تعريفها بتوصيفها بعشر وإذ قد وصفت بها العدد تعين أنها عشر متتابعة، وعدل عن تعريفها مع أنها معروفة ليتوصل بترْك التعريف إلی تنوينها المفيد للتعظيم، وليس فی ليالی السَّنة عشرُ ليال متتابعة عظيمة مثل عشر ذی الحجّة التی هی وقتُ مناسک الحج، ففيها يكون الإحرام ودخول مكة وأعمال الطواف، وفی ثامنتها ليلة التروية، وتاسعتها ليلة عرفة وعاشرتها ليلة النحر. فتعين أنها الليالی المرادة بليال عشر. وهو قول ابن عباس وابن الزبير ..

ابن كثير فی تفسيره:

.. والليالی العشر المراد بها: عشر ذی الحجة؛ كما قاله ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف، وقد ثبت فی صحيح البخاری عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلی الله فيهن من هذه الأيام» يعنی: عشر ذی الحجة، قالوا: ولا الجهاد فی سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد فی سبيل الله، إلا رجلًا خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلک بشیء».

ص: ٨٢

وواصل كلامه في ذكر القول الثاني:

وقيل: المراد بـذلك: العشـر الأول من المحرم، حكاه أبو جعفر بن جرير، ولم يعزه إلى أحـد، وقـد روى أبو كدينة عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس: (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) قال: هو العشر الأول من رمضان.

ثم ينتهي إلى القول:

والصحيح القول الأول. قال الإمام أحمد: حـدثنا زيـد بن الحباب، حدثنا عياش بن عقبة، حدثني خير بن نعيم عن أبي الزبير عن جابر عن النبي (ص) قال: «إن العشـر عشـر الأضـحى، والوتر يوم عرفة، والشـفع يوم النحر»، ورواه النسائي عن محمد بن رافع وعبدة بن عبد الله، وكل منهما عن زيـد بن الحباب به. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زيد بن الحباب به، وهذا إسـناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة، والله أعلم.

وقوله تعالى: وَلشَّفْعِ وَلْوَتْرِ قـد تقدم في هذا الحديث: أن الوتر يوم عرفة؛ لكونه التاسع، وأن الشـفع يوم النحر؛ لكونه العاشـر، وقاله ابن عباس وعكرمـة والضـحاك أيضاً (قول ثان) وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سـعيد الأشج، حدثني عقبة بن خالد عن واصل بن السائب قـال: سـألت عطـاء عن قوله تعالى: وَلشَّفْعِ وَلْوَتْرِ قلت: صـلاتنا وترنا هـذا؟ قال: لا، ولكن الشـفع يوم عرفـة، والوتر ليلـة الأضـحى (قول ثالث) قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصـبهاني، حدثني أبي عن النعمان، يعني: ابن عبد السـلام، عن أبي سعيد بن عوف، حدثني بمكة قال: سـمعت عبد الله بن الزبير يخطب الناس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين! أخبرني عن الشفع والوتر، فقـال: الشـفع قول الله تعـالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ والوتر قوله تعـالى: وَمَن تَأَخَّرَ فَلاـ إِثْمَ عَلَيْهِ. وقال ابن جريـج: أخبرني محمد بن المرتفع: أنه سمع ابن الزبير يقول: الشفع أوسط أيام التشريق، والوتر آخر أيام التشريق ...

القرطبي في تفسيره:

قوله تعالى: وَلْفَجْرِ أقسم بالفجر. وَلَيالٍ عَشْرٍ* وَلشَّفْعِ وَلْوَتْرِ* وَللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ أقسام خمسة.

واختُلِف في «الفجر»، فقال قوم: الفجر هنا: انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم؛ قاله عليّ وابن الزُّبير وابن عباس رضـي الله عنهم. وعن ابن عباس أيضاً أنه النهار كله، وعَبَّر عنه بالفجر لأنه أوّله. وقال ابن مُحَيْصِن عن عطيـة عن ابن عباس: يعني فجر يوم المحرم. ومثله قال قتادة. قال: هو فجر أوّل يوم من المحرم، منه تنفجر السنة. وعنه أيضاً: صلاة الصبح.

وروى ابن جريـج عن عطاء عن ابن عباس قال: «والفجر»: يريـد صبيحـة يوم النحر؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله، إلا يوم النحر لم يجعل له ليلـة قبله ولا ليلـة بعـده؛ لأن يوم عرفـة له ليلتان: ليلـة قبله وليلـة بعـده، فمن أدرك الموقف ليلـة بعـد عرفة، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر، فجر يوم النحر. وهذا قول مجاهد.

وقال عكرمة: «والفجر» قال: انشـقاق الفجر من يوم جَمْع. وعن محمد بن كعب القُرَظيّ: «والفجرِ» آخر أيام العشـر، إذا دفَعْتَ من جَمْع. وقال الضـحاك: فجر ذي الحجة، لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال: وَلَيالٍ عَشْرٍ أي ليال عشر من ذي الحجة. وكذا قال مجاهد والسدّيّ والكلبيّ في قوله: وَلَيالٍ عَشْرٍ هو عشر ذي الحِجة، وقال ابن عباس. وقال مسروق هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى (ع)

وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ (١)

وهي أفضل أيام السنة.

١- الأعراف: ١٤٢.

ص: ۸۳

وروى أبو الزبير عن جابر: أن رسول‌الله (ص) قال: «وَلْفَجْرِ* وَلَيالٍ عَشْرٍ- قال: عشر الأضحى، فهى ليال عشر على هذا القول؛ لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه، إذ قد خصها الله بأن جعلها موقفاً لمن لم يدرك الوقوف يوم عرفة. وإنما نكرت ولم تعرّف لفضيلتها على غيرها، فلو عُرِّفت لم تستقل بمعنى الفضيلة الذى فى التنكير، فنكرت من بين ما أقسم به، للفضيلة التى ليست لغيرها. والله أعلم.

وعن ابن عباس أيضاً: هى العشر الأواخر من رمضان؛ وقاله الضحاك. وقال ابن عباس أيضاً ويمان والطبرىّ: هى العشر الأول من المحرّم، التى عاشِرها يوم عاشوراء. وعن ابن عباس «وَلَيَالِ عَشْرٍ» (بالإضافة) يريد: وليالى أيام عشر.

وأما الزمخشرى فى تفسير الكشاف فقد صرح بأنه أراد بالليالى العشر: عشر ذى الحجة.

فإن قلت: فما بالها منكرة من بين ما أقسم به؟ قلت: لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالى العشر بعض منها. أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها. فإن قلت: فهلا- عرفت بلام العهد، لأنها ليال معلومة معهودة؟ قلت: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذى فى التنكير؛ ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة، ليكون الكلام أبعد من الألغاز والتعمية، وبالشفع والوتر: إما الأشياء كلها شفعها ووترها، وإما شفع هذه الليالى ووترها. ويجوز أن يكون شفعها يوم النحر، ووترها يوم عرفة، لأنه تاسع أيامها وذاك عاشرها، وقد روى عن النبى (ص) أنه فسرهما بذلك. وقد أكثروا فى الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه، وذلك قليل الطائل، جدير بالتلهى عنه ..

والسيد الطباطبائى لا يستبعد أن يكون المراد بالفجر هو فجر يوم النحر وهو عاشر ذى الحجة فيما يصف الوجوه الأخرى أنها ردية كما يعبر، أما فيما يتعلق بالآية: وَ لَيالٍ عَشْرٍ فهو يميل إلى أنها الليالى العشر من أول ذى الحجة، وأن وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ يوم التروية ويوم عرفة. وهذا هو نص كلامه:

ولعل ظاهر قوله:

وَ الْفَجْرِ أن المراد به مطلق الفجر ولا يبعد أيضاً أن يراد به فجر يوم النحر وهو عاشر ذى الحجة.

وقيل: المراد فجر ذى الحجة، وقيل: فجر المحرم أول السنة وقيل: فجر يوم الجمعة، وقيل فجر ليلة جمع، وقيل: المراد به صلاة الفجر، وقيل: النهار كله وقيل: فجر العيون من الصخور وغيرها وهى وجوه ردية.

وقوله: وَ لَيالٍ عَشْرٍ لعل المراد بها الليالى العشر من أول ذى الحجة إلى عاشرها والتنكير للتفخيم.

وقيل: المراد بها الليالى العشر من آخر شهر رمضان، وقيل: الليالى العشر من أوله، وقيل الليالى العشر من أول المحرم، وقيل: المراد عبادة ليال عشر على تقدير أن يراد بالفجر صلاة الفجر.

وقوله وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ يقبل الانطباق على يوم التروية ويوم عرفة، وهو الأنسب على تقدير أن يراد بالفجر وليال عشر فجر ذى الحجة والعشر الأول من لياليها. (۱)

كما أن على بن إبراهيم القمى يذهب فى تفسيره إلى أن وَ لَيالٍ عَشْرٍ هى عشر ذى الحجة، وكذا زيد بن على (عليهما السلام) (۱۲۰ ه-) فى تفسير غريب القرآن.

وَ لَيالٍ عَشْرٍ .. حقاً إنها آيات جميلة، لا يعلم أسرارها إلا الله سبحانه وتعالى، سواء أكان مرادها العشرالأواخر من شهر رمضان المبارك أم مرادها العشرالأوائل من شهر ذى الحجة المبارك المؤيد بالروايات وبما ذهب إليه عدد من كبار المفسرين، فهى أيام لها وقع عظيم على النفوس المؤمنة وهى أوقات طيبة، تشكل موسماً يكفى فى بركاته وفضائله وعطاءاته أنه أيام معلومات اختارها الله تعالى؛ لتطل السماء من خلالها على خلائق اجتمعت تلبيةً لنداء خالد أطلقه خليل الرحمن إبراهيم منذ أربعة آلاف عام تزيد أو تنقص قليلًا: وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ

۱- انظر تفسير الميزان سورة الفجر.

ص: ۸۴

* لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ ...(۱) لتطل رحمة ربك على وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة، تنتظرمغفرة ربها و رحمته وثوابه ..!

۱- الحج: ۲۸- ۲۹.

ص: ۸۵

ص: ۸۶

شخصیات من الحرمین الشریفین (۲۴) أبی بن کعب

«لِیُهْنِکَ العِلْمُ أبا المنذر» حدیث شریف

أبی بن کعب بن قیس بن عبیـد بن زید بن معاویة بن عمرو بن مالک بن النجار- وهو تیم الله- بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج، من بنی النجار، من الخزرج، فهو النجاری الخزرجی المدنی، وهو الصحابی الأنصاری، وهو البدری العقبی.

أمه صـهیلة بنت الأـسود بن حرام بن عمرو بن مالک بن النجار، تجتمع هی وأبوه فی عمرو بن مالک بن النجار، وهی عمـة أبی طلحة زید بن سهل بن الأسود بن حرام الأنصاری، زوج أم سلیم.

وکان لأبی بن کعب من الولد: الطفیل ومحمد، وأمهما أم الطفیل بنت الطفیل بن عمرو بن المنذر بن سبیع بن عبد نهم من دوس، وأم عمرو بنت أبی ..

کنیته: أبو المنذر، وأبو الطفیل. ویدل علیها أن رسول الله (ص) کان حین یرید أن یقول له شیئاً، ینادیه: یا أبا المنذر ... وکان أبی حین یخاطب عمر بن الخطاب یقول له: یا ابن الخطاب؛ فیقول له عمر: یا أبا الطفیل ..

صفته: کان ربعة نحیفاً أو رجلًا دحداحاً، وقالوا: لیس بالقصیر ولا بالطویل، أبیض الرأس واللحیة، لا یغیر شیبه. (۱)

لقـد کان من المتفوقین فی مدرسـة الصـحبة المبارکـة، إیماناً وعلماً وجهاداً .. وکیف لا یکون کـذلک وقد حظی بمنزلة عالیة ومرتبة فاضلة؛ أن یذکر فی الملأ الأعلی ذلک کونه مرجعاً أمیناً فی القرآن الکریم؛ حتی خص بامتیازات جلیلة منها أن تقرأ علیه سورة البینة، والآمر بهـذا هو رب العالمین، والمأمور بالقراءة هو رسول الله (ص)، نعم لقـد خص صاحب هذه الترجمة بأنه أول من یقرأ علیه رسول الله (ص) بأمر من قبله تعالی سورة البینـة، وکان أول من ذکر اسـمه فی الملإ الأعلی، فکان أقرأ هـذه الأمـة للقرآن، وکان أحد الأربعة الذین أمر النبی (ص) أن یؤخذ منهم القرآن، وکان من أبرز المفسرین للقرآن من الصحابة، وکان صاحب منهج أو مدرسة فی التفسیر .. وکـان سـید الأنصـار کما أحب رسول الله (ص) أن ینادوا أبیاً به، فعن عمرو بن العاص- کما فی مختصـر دمشق- قال: کنت جالساً عند رسول الله (ص) فی یوم عید، فقال: «ادع لی سید الأنصار» فدعوا أبی بن کعب ..

إسلامه

أعلن إسـلامه، وتوثقت أرکان إیمانه، وصار رجلًا معروفاً فی مدرسة القرآن الکریـم ومدرسة الصحبة النبویة الشریفة، وخلد ذکره علی مر الأجیال کمجاهد وصاحب منهج قرآنی، وراویة للسـنة النبویة الشریفة .. توفر علی کل هذه المناقب، بعد أن نشأ أبو المنذر رضوان الله تعـالی علیه فی دیـار یثرب غاضـباً علی حیاة قومه، معترضاً علی دینها، متأملًا فی الکون من حوله، وعلی الرغم من وجود الیهود فی المدینة آنذاک، إلا أن ما وقع فی یده من وریقاتها لم یشف غلیله، ولم یرو عطشه، ولم تهد حیرته، ولم تشبع نهمه،

وکان أبی ۲ یتأمـل فی الکون من حوله لیلًا ونهـاراً، وفی إحـدی اللیالی خرج ۲ یطوف بـدیار المدینة، فسـمع حواراً فی دار سـعد بن الربیع، فسـمع بـأذنه کلاماً عن الإسـلام و نبی الإسـلام ۹، وعلم أن مصـعب بن عمیر أتی سـفیراً، وکـأول سـفیر للإسـلام؛ لیعلم الناس الإسـلام أحکاماً وآداباً ومفاهیم، فما أن سمع الحوار حتی طرق الباب علی سعد، وأعلن إسلامه؛ لیحظی ۲ بالسفر إلی مکة؛ ثم لیشهد بیعة العقبة مع السبعین من الأنصار کما فی مختصر دمشق.

۱- انظر فی هذا مختصر تاریخ دمشق ۱۹۷: ۴- ۱۹۸. والاستیعاب، والإصابة، والحاکم فی المستدرک.

ص: ٨٧

وهـذا يعنى أن المقصود العقبـة الثانية، ولكنى وللأسف لم أجد له اسـماً فى السـيرة النبوية لابن هشام، وهو يذكر أسـماء أهل البيعتين الأولى والثانية من الأوس والخزرج.

وكان أبى بن كعب من الأنصار الذين نصـروا رسول الله، واسـتقبلوه فى يثرب، وقد شـهد كل الغزوات مع النبى (ص). وبقيئة المشاهد، وجمع القرآن فى حياة الرسول (ص) وكان رأساً فى العلم وبلغ فى المسـلمين الأوائل منزلة رفيعة .. حتى قال عنه رسول الله (ص): أبى سيد الأنصار .. ونسب إلى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب أنه قال عنه مادحاً: أبى سيد المسلمين.

وهكذا توالت عليه هذه المناقب، وعظم حب المسـلمين له، واشتد ودهم له، ولاذوا به فى معرفة ما يشكل عليهم من علم ومعرفة، حتى جاء فى الخبر عن قيس بن عبـاد أنه قال: كنت آتى المدينـة فألقى أصـحاب النبى (ص)، وكان أحبهم إلىّ أبى بن كعب ... وقال: ثم قعد يحدث، فما رأيت الرجال مدت أعناقها إلى رجل مثلما مدت أعناقها متوجهة إلى أبى بن كعب ...

المؤاخاة

مشـروع المؤاخاة بين المسـلمين، الذى أسسه رسول الله (ص) فى المدينة، كان من أروع المشاريع، وأعظمها نفعاً على كل المستويات الإيمانية والاجتماعية والسياسـية .. وكان الأساس المتين والصلب لبناء قاعدة إيمانية تمهيداً لبناء مجتمع آمن متكافل، فدولة قائمة على الحب والمودة والتضامن الفاعل .. حتى غـدا مجتمع المدينـة ودولته فى عهـد رسول الله (ص) مثالًا لنموذج فـذ نادر، يحلم به الشـرفاء والأحرار ..

قـال السـهيلى: آخى رسول الله ٩ بين أصـحابه حين نزلوا بالمدينـة؛ ليـذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسـهم من مفارقة الأهل والعشـيرة، ويشدّ أزر بعضـهم ببعض، فلما عز الإسـلام، واجتمع الشـمل، وذهبت الوحشة، أنزل الله سـبحانه: أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِى كِتابِ اللهِ أعنى فى الميراث. ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة، فقال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ يعنى فى التوادد، وشمول الدعوة.

فقـد راح رسول الله (ص) يؤاخى بين المهاجرين والأنصار .. وآخى بين سـعد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبى بن كعب، وهو أخو بنى النجار أخوين. (١)

أبى مجاهداً:

مـا أن هـاجر النبى (ص) إلى المدينـة حتى كان أبىّ ملازماً لرسول الله (ص)، فاشترك فى بناء المسجد، ثم فى معركـة بـدرٍ الكبرى، فكان واحداً من أهلها، ولم يتخلف عن مشاهد رسول الله (ص) قط، بل حضرها كلها ..

ابَىّ قرآنياً

كـان المسـلمون ينظرون إلى أُبى بـن كعـب نظرتهـم إلى ذلـك الرجـل القرآنى الرشـيد المسـتقيم السـيرة، الطيب العنصـر، العظيم فى الإسلام، وجاء فى الخبر أن رسول الله (ص)، قال فى يوم عيد: أدعو لى سيد الأنصار؛ فدعو أُبى بن كعب.

وإنه كذلك فقد نال أبى ٢ شـرفاً ربما لم ينله غيره من أصحاب رسول الله (ص)، ومن ذلك- كما ذكرنا- أمر الله لنبيه (ص) أن يقرأ عليه سورة البينـة، فقـد ذكر كـل من البخـارى ومسـلم فى صـحيحيهما: أن رسول الله (ص) قـال لأـبى: إن الله عز وجـل أمرنى أن أقرأ عليك: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا (٢)

قال: وسمانى لك؟ قال نعم. فبكى ..

١- السيرة النبوية ٥٠٥: ٢- ٥٠٦، والهامش.

٢- سورة البينة: ١.

ص: ۸۸

وکان فی حفظه القرآن وترتیله وفهم آیاته من المتفوقین، قال له رسول‌الله (ص): «یا أبی بن کعب، إنی أمرت أن أعرض علیک القرآن».

وأبی یعلم أن رسول الله (ص) انما یتلقی أوامره من الوحی، هنالک سأل الرسول الکریم فی نشوة غامرة: «یا رسول الله! بأبی أنت وأمی، وهل ذکرت لک باسمی؟».

فأجاب الرسول (ص): نعم، باسمک ونسبک فی الملإ الأعلی ..

وکان حریاً ۲ أن یؤمر الرسول (ص) بعرض القرآن علیه، وفی هذا یقول أبی: قال رسول الله (ص): إنی أمرت أن أعرض علیک القرآن.

فقال أبی: بالله آمنت وعلی یدیک أسلمت ومنک تعلمت.

قال: فرد الرسول (ص) القول.

فقال: یا رسول الله وذکرت هناک؟

قال: نعم بإسمک ونسبک فی الملإ الأعلی.

قال: اقرأ إذًا یا رسول الله. (۱)

ولما سئل ۲: فرحت بذلک؟

قال: وما یمنعنی وهو تعالی یقول:

قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِکَ فَلْیَفْرَحُوا (۲)

ولقد کان فقه أبی بالقرآن یظهر علی لسانه، ومن ذلک أن رسول‌الله ۹ سأله یوماً عن أی آیة فی القرآن أعظم؟

فقال أبی: اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ (۳)

فضرب النبی (ص) علی صدره، وقال: لیهنک العلم أبا المنْذر. (۴)

ولم یکن بالمستغرب کذلک أن یأمر النبی ۹ بأخذ القرآن عنه فإنه جدیر بهذه المنزلة، ولم لا؟ وهو من أمر النبی ۹ أن یقرأ علیه القرآن وفی الحدیث: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبی بن کعب». (۵)

وکیف لا یکون الأمر کذلک؟ وهو أقرأ هذه الأمة بالقرآن بنص حدیث رسول الله (ص) حیث نسب إلیه (ص) أنه قال: ... وأقرؤهم أبی بن کعب. کما رواه الترمذی، فقد کان هذا الصحابی الجلیل أقرأ الناس إلی جانب کونه طیب الصوت حسن الأداء.

أبیّ کاتباً

کان أبی بن کعب فی مقدمة الذین یکتبون الوحی ویکتبون الرسائل،

کان هناک عدد من الصحابة ممن وفقوا لأن یکونوا ممن یکتبون لرسول‌الله (ص) ما ینزل إلیه من السماء عن طریق الوحی، ویکتبون رسائله إلی من یرید، وما یملیه من أجوبة عن رسائل ترد إلیه، وما یبرمه من عهود ومواثیق .. وکان من هؤلاء أبی بن کعب، بل هو فی مقدمة الذین یکتبون الوحی ویکتبون الرسائل.

تقول الروایة: وکان أبی بن کعب یکتب فی الجاهلیة قبل الإسلام. وکانت الکتابة فی العرب قلیلة، وکان یکتب فی الإسلام الوحی لرسول الله (ص).

قال ابن أبی خیثمة: هو أول من کتب الوحی بین یدی رسول الله (ص) کان سیداً جلیل القدر، ورأساً فی العلم والعمل.

وقیل أول من کتب لرسول الله (ص) أبی بن کعب، وکان إذا غاب أبی کتب له زید بن ثابت. (۶)

قال الواقدی: وهو أول من کتب للنبی (ص) وأول من کتب فی آخر الکتاب: وکتب فلان بن فلان ..

۱- رواه الترمذی.

۲- سورة یونس: ۵۸. رواه أحمد.

۳- سورة البقرة: ۲۵۵.

۴- رواه مسلم.

۵- رواه البخاری.

۶- الطبری ۲۱۸: ۲.

ص: ۸۹

وفی أسماء من کتب للنبی (ص) علی بن أبی طالب، وعثمان بن عفان، کانا یکتبان الوحی، فإن غابا کتبه أبی بن کعب وزید بن ثابت. (۱)

أبیّ جامعاً للقرآن

وکان فی حفظه القرآن وترتیله وفهم آیاته من المتفوقین، قال له رسول‌الله (ص): یا أبی بن کعب، إنی أمرت أن أعرض علیک القرآن ... وأبی یعلم أن رسول الله (ص) إنما یتلقی أوامره من الوحی؛ هنالک سأل الرسول الکریم فی نشوة غامرة: یا رسول‌الله! بأبی أنت وأمی، وهل ذکرت لک باسمی؟ ... فأجاب الرسول (ص) «نعم، باسمک ونسبک فی الملأ الأعلی» ... کما قال الرسول (ص): «أقرأ أمتی أبَیّ ..».

قام أبی بن کعب بجمع القرآن الکریم فی حیاة النبی (ص) وعرض علی النبی (ص) وحفظ منه علماً مبارکاً.

قال أنس بن مالک: جمع القرآن علی عهد رسول الله (ص) أربعة کلهم من الأنصار: أبی بن مالک، ومعاذ بن جبل، وزید بن ثابت، وأبو زید أحد عمومتی.

وروی الطبرانی وابن عساکر عن الشعبی، قال: جمع القرآن علی عهد رسول الله (ص) ستة من الأنصار: أبی بن کعب، وزید بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وسعد بن عبید، وأبو زید ...

قال محمّد بن سیرین: إن عثمان بن عفان جمع اثنی عشر رجلًا من قریش والأنصار، فیهم أُبی بن کعب وزید بن ثابت فی جمع القرآن.

وعده ابن الندیم فی فهرسته من الذین جمعوا القرآن علی عهد النبی (ص) فقال ما صورته: الجمّاع للقرآن علی عهد النبی (ص)، وعدّ جماعة ثم قال: أبی بن کعب وساق نسبه ..

أبیّ قارئاً

منّ الله تعالی علیه بحفظه للقرآن الکریم، وبصوت طیب، ومنهج فی القراءة متمیز وقد اشتهر به، وأعجب به من حوله، حتی عد من أعظم قرّاء القرآن، وفی الطبقة الأولی من صحابة النبی الأکرم (ص)، وقد وفق لأن یکون کما قال عنه رسول الله (ص): «أقرأ أمتی أبَیّ».

عن أنس بن مالک أن رسول الله (ص)، قال لأُبی بن کعب: إن الله أمرنی أن أقرأ علیک القرآن، قال: الله سمّانی لک؟ قال: نعم سماک لی، قال: فجعل أُبی یبکی. وفی روایة: فذرفت عیناه.

وفی روایة قال أُبی فی نشوة غامرة: یا رسول الله! بأبی أنت وأمی، آلله سمَّانی لک؟ فقال الرسول: «نعم»، فجعل أبی ۲ یبکی من شدة الفرح. (۲)

عن أنس قال: قال رسول الله (ص): أقرأ أمتی أبی.

وجاءت الروایة عن أبی عبد الله الصادق (ع): نحن نقرأ بقراءة أُبی بن کعب.

وفی خصوص المتعة ... قال القرطبی: قال الجمهور المراد نکاح المتعة، الذی کان فی صدر الإسلام، وقرأ ابن عباس، وأبی، وابن جبیر: «فما استمتعتم به منهن إلی أجل مسمی فآتوهن أجورهن». وقال ابن کثیر فی تفسیره: وکان ابن عباس وأبی بن کعب، وسعید بن جبیر، والسدی، یقرأون: «فما استمتعتم به منهن إلی أجل مسمی فآتوهن أجورهن فریضة». (۳)

۱- تاریخ الطبری ۳: ۵۳۳.

۲- رواه مسلم.

۳- تفسير القرطبى و ابن كثير: الآية.

ص: ۹۰

أبيّ مفسراً:

يعد هذا الصحابى من جملة من اشتهر من الصحابة بالتفسير. وقد عده السيوطى من جملة العشرة الذين اشتهروا بالتفسير من الصحابة من الطبقة الأولى من المفسرين، وهو أول من ألف فى فضائل القرآن، قال ابن النديم فى الفهرست: (الكتب المؤلفة فى فضائل القرآن) وعدّها أحد عشر كتاباً لأحد عشر مؤلفاً وهم ... (۷) أبى بن كعب الأنصارى ...

ثم يقول: وليس فى العشرة الباقية أحد إلا وزمانه متأخر عن أبى، فعلم من ذلك أن أبياً أول من ألف فى فضائل القرآن .. وعده ابن النديم فى فهرسته من الذين جمعوا القرآن على عهد النبى (ص) فقال ما صورته: الجمّاع للقرآن على عهد النبى (ص)، وعد جماعة ثم قال: أبى بن كعب وساق نسبه .. (۱)

وقد وردت عنه نسخة كبيرة فى التفسير رواها أبو جعفر الرازى بسنده عنه. (۲)

ويرجع ذلك- كما يبدو- إلى أسباب منها:

أ- ما حظى به من دعاء النبى (ص) الخاص حين قال له: ليهنك العلم أبا المنذر. (۳)

ب- لكونه قريباً من مصدر الرسالة والوحى، فهو من كتّاب الوحى، مما جعله عالماً بعلوم القرآن والتفسير ومنها: أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد والعام والخاص، وأجواء الآيات .. وكيف لا يكون كذلك؟ وهو القائل للخليفة الثانى: «يا أمير المؤمنين إنى تلقيتُ القرآن ممن تلقّاه من جبريل وهو رطب.»

ج- وعلى القول بأنه كان قبل إسلامه حبرًا من أحبار اليهود العارفين بأسرار الكتب السماوية، مما جعله على مبلغ كبير من العلم ومعرفة آيات الكتاب المجيد.

وهنا لا بد لى من وقفة تحت عنوان:

هل كان أبيّ حبراً؟

إن كونه مطلعاً على الكتب القديمة، وما ورد فيها، و تركت عنده ثقافة واسعة، وحباً للقرآن الكريم، خصوصاً وقد وجد فيه فرقاً كبيراً، وامتيازات كبيرة، ومناقب عالية تفوق كثيراً عما وجده فيما سبقه من كتب، هذا شىء. وكونه حبراً من أحبار اليهود، وبالتالى كان يهودياً شىء آخر. وإن كان هذا لا ضير فيه، ولا يقدح بإيمان الرجل، إلا أننى لم أجد فيما تيسر لى من مصادر من يذكر هذا الأمر، سوى صاحب كتاب الأعلام خير الدين الزركلى (۱۹۷۶ م) حيث قال: «كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود، مطلعاً على الكتب القديمة، يكتب ويقرأ على قلة العارفين بالكتابة فى عصره، ولما أسلم كان من كتاب الوحى». ورده الدكتور محمد حسين الذهبى (۱۳۹۸ ه) صاحب كتاب: التفسير والمفسرون، والقيسى فى تاريخ التفسير .. ويبدو أن ما ذكروه كان إما وهماً واشتباهاً، أو أنه وقع خطأً نتيجة التقارب بين الاسمين: «كعب الأحبار وأبى بن كعب».

منهجه فى التفسير

كان له منهج متميز وله خصائصه، فقد عرف بتمسكه بما ورد عن رسول الله (ص) واستفاد منه فى تفسيره للآيات القرآنية الكريمة، ولهذا جاء أكثر تفسيره بهذه الطريقة .. وأن رواياته جاءت موصولة السند برسول الله (ص)، ويدلل اهتمامه الكبير بهذه الروايات فى تفسيره على منهجه الأهم وأسلوبه الأمثل فى تفسير القرآن الكريم. وإن لم يجد من المأثور ما يفسر به، ينتقل إلى أساليب أخرى، كتفسير القرآن بالقرآن واجتهاده ..

۱- انظر الاتقان للسيوطى وأعيان الشيعة لمحسن الأمين ۳۶۱: ۱. و ۲۰۶: ۶. تفسير القرطبى وابن كثير: الآية.

۲- التفسير والمفسرون للذهبى ۹۲: ۱.

۳- رواه مسلم وغيره.

ص: ٩١

هذا، وكان لتلاميذه مع أصحاب زيد بن أسلم مشاركة فى إنشاء مدرسة التفسير فى المدينة المنورة، والتى كان من أقطابها ثلاثة من أئمة أهل البيت، وهم: الإمام على بن الحسين، وولده الباقر، وحفيده الصادق (عليهم السلام)، وقد امتازت هذه المدرسة بفضل وجود الأئمة الثلاثة (عليهم السلام) بالعمق والموضوعية، فيما أثر عنها من روايات تفسيرية نجدها فى أمهات التفسير.» (١)

نماذج من تفسيره

تفسير القرآن بالقرآن

كان أبى يعتمد روايات عن رسول الله (ص) لتفسير آية من القرآن الكريم

ففى تفسير التبيان للشيخ الطوسى (٤٦٠ ه) ولدى تفسير «الظلم» من قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٢)

وبعد أن يذكرالشيخ الطوسى أن الظلم المذكور فى الآية هو الشرك عند أكثر المفسرين: ابن عباس وسعيد بن المسيب وقتادة ومجاهد وحماد بن زيد وأبىُّ بن كعب وسلمان (رحمة الله عليه). يقول:

قال أبىُّ: ألم تسمع قوله:

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (٣)

وهو ما جاء فيما روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لما نزلت هذه الآية شق على الناس، وقالوا: يا رسول الله! وأيّنا لا يظلم نفسه، فقال: إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا إلى ما قال العبد الصالح:

يا بُنَىَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

آيات ذات موضوع واحد

ولقد وجد فى تفسير أبى بن كعب محاولة لجمع الآيات ذات الموضوع الواحد، ومن أمثلته ما جاء عنه فى تفسير الآية الكريمة: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ لْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ

قال: «جمعهم يومئذ جميعاً ما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم استنطقهم، وأخذ عليهم الميثاق، ثم قال: وفيهم الأنبياء (عليهم السلام) يومئذ مثل السرج، وخص الأنبياء بميثاق آخر، قال الله:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ لنَّبِيِّيْنَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقاً غَلِيظاً (٤)

وهو الذى يقول تعالى ذكره: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ للهِ لَّتِى فَطَرَ لنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ للهِ ذَلِكَ لدِّينُ لْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ لنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥) وفى ذلك قال: هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ لنُّذُرِ لأُوْلَى (٦) يقول: أخذنا ميثاقه مع النذر الأولى،

ومن ذلك قوله: (وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) (٧) ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُمْ بِلْبَيِّنَتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ لْمُعْتَدِينَ (٨) قال: كان فى علمه يوم أقروا به من يصدق ومن يكذب» (٩)

التفسير بالمأثور

١- انظر: التفسير والمفسرون للذهبى ٩٢: ١.

٢- سورة الأنعام: ٨٢.

۳- سورة لقمان: ۳۱.

۴- سورة الأحزاب: ۷.

۵- سورة الروم: ۳۰.

۶- سورة النجم: ۵۶.

۷- سورة الأعراف: ۱۰۲.

۸- سورة يونس: ۷۴.

۹- جامع البيان للطبری ۱۵: ۹.

ص: ۹۲

کثیراً مما روی عن أبی بن کعب هو من التفسیر بالمأثور، فقد راح یفسّر الآیات بما روی عن رسول الله (ص) ومن أمثلة هذا النوع من التفسیر، ما رواه فی تفسیر قوله تعالی: ... لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَی لتَّقْوَی ... (۱)

عن رسول الله (ص) أنه سئل عن المسجد الذی أسس علی التقوی. فقال: «مسجدی هذا» (۲)

التفسیر بالاجتهاد

هناک روایات تفسیریة عن أبی بن کعب وموقوفة علیه، وهی قلیلة جداً، ولأنها لم ترفع إلی رسول الله (ص) یمکن عدها من اجتهاده، ومن أمثلتها ما جاء فی قوله تعالی: إِنَّا عَرَضْنَا لأَمَانَةَ عَلَی لسَّماواتِ وَلأَرْضِ وَلْجِبَالِ فَأَبَیْنَ أَن یَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا لإِنْسَانُ إِنَّهُ کَانَ ظَلُوماً جَهُولًا (۳)

فقد روی الطبری بسنده عن أبی بن کعب أنه قال: «من الأمانة أن المرأة أئتمنت علی فرجها». (۴)

معرفة أبیّ بالقراءات:

لطالما أثبت حجیة قراءته وصحتها بالقرآن الکریم، فقد ورد عنه أنه قرأ قوله تعالی: وَلسَّابِقُونَ لأَوَّلُونَ مِنَ لْمُهَاجِرِینَ وَلأَنْصَارِ وَلَّذِینَ تَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِیَ للهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ (۵)

وقد کان عمر بن الخطاب یقرأ: وَلسَّابِقُونَ لأَوَّلُونَ مِنَ لْمُهَاجِرِینَ وَلأَنْصَارِ وَلَّذِینَ تَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ بضم الأنصار وحذف حرف الواو من (الذین) حتی أنه أنکر علی رجل قرأها بقراءة أبی، ولما حضر أبی بن کعب، وسأله عمر، استدل أبی بعدة آیات علی صحة قراءته قائلًا:

«وتصدیق ذلک فی أول الآیة التی فی أول الجمعة، وأوسط الحشر، وآخر الأنفال، أما أول الجمعة: وآخَرِینَ مِنْهُمْ لَمَّا یَلْحَقُوا بِهِمْ، وأوسط الحشر: وَالَّذِینَ جَاءُوا مِنَ بَعْدِهِمْ یَقُولُونَ رَبَنَا اغْفِرْ لَنَا ولإخْوانِنا الَّذِینَ سَبَقُونَا بالإِیمَانِ، وأما آخر الأنفال: والَّذِینَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وجَاهَدُوا مَعَکُمْ فأُولَئِکَ مِنْکُمْ (۶)

فقال عمر: إذن نتابع أبیاً. (۷)

معرفة أبیّ بأسباب النزول

کان کثیر الاهتمام بأسباب النزول، ومن اهتمامه کان لا یتأخر إذا ما فاته شیء منها، ولا یتوقف عن السؤال عنها أبداً، حتی أنه سأل أنس بن مالک (۹۳ ه) وکان خادم رسول الله (ص) عن سبب نزول الآیة: وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ... إِنَّ ذلِکُمْ کَانَ عِندَ للهِ عَظِیماً (۸)

فقد روی الطبری بسنده، عن أنس بن مالک أنه قال: «سألنی أبیّ بن کعب عن الحجاب، فقلت: أنا أعلم الناس به، نزلت فی شأن زینب، أولم النبی (ص) علیها بتمر وسویق، فنزلت: یأَیُّهَا لَّذِینَ آمَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُیُوتَ لنَّبِیِّ إِلَّا أَن یُؤْذَنَ لَکُمْ إِلَی طَعَامٍ غَیْرَ نَاظِرِینَ إِنَاهُ وَلَکِنْ إِذَا دُعِیتُمْ فَدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَنْتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَأْنِسِینَ لِحَدِیثٍ إِنَّ ذلِکُمْ کَانَ یُؤْذِی لنَّبِیَّ فَیَسْتَحْیِی مِنکُمْ وَللهُ لَا یَسْتَحْیِی مِنَ لْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذلِکُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِکُمْ وَقُلُوبِهِنَّ (۹)

ولأبیّ بن کعب أیضاً

فی قوله تعالی: وَ مَنْ کَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِیلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلی عَذابِ النَّارِ (۱۰)

قال أبی: هو قول الرب تعالی ذکره.

۱- سورة التوبة: ۱۰۸.

۲- جامع البيان للطبرى ۲۸: ۱۱.

۳- سورة الأحزاب: ۷۲.

۴- جامع البيان للطبرى ۵: ۲۲.

۵- سورة التوبة: ۱۰۰.

۶- سورة الأنفال: ۷۵.

۷- جامع البيان للطبرى ۸: ۱۱.

۸- سورة الأحزاب: ۵۳.

۹- المصدر نفسه؛ وانظر: جامع البيان ۳۷: ۲۲.

۱۰- سورة البقرة: ۱۲۶.

ص: ۹۳

وفی قوله تعالی: کانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً (۱)

قال أبی: کانوا أمـة واحدة حیث عرضوا علی آدم ففطرهم یومئذ علی الإسلام، وأقروا له بالعبودیة، وکانوا أمة واحدة مسلمین کلهم، ثم اختلفوا من بعد آدم، فکان أبی یقرأ: کانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ إلی فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ وإن الله إنما بعث الرسل وأنزل الکتب عند الاختلاف.

وفی قوله تعالی: قُلْ ما یَعْبَؤُا بِکُمْ رَبِّی لَوْ لا دُعاؤُکُمْ فَقَدْ کَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ یَکُونُ لِزاماً (۲)

قال أبی: هو القتل یوم بدر. (۳)

أبیّ عالماً

کان فی حفظه القرآن وترتیله وفهم آیاته من المتفوقین؛ لهذا تجده وقد سجل أبیّ بن کعب حضوراً متمیزاً فی التفسیر والقراءة، وفی الفقه حتی عدّ أبرز فقهاء الصحابة وقرّائهم .. وکان صاحب همة عالیة فی خدمة الناس، ولا یبخل علیهم بعلمه .. فمع أنه کثیر العبادة، لکنه طالما فرغ نفسه لتعلیم الآخرین. فعن أبی العالیة: کان أُبی بن کعب صاحب عبادة، فلما احتاج إلیه الناس، ترک العبادة، وجلس للقوم.

سأله النبی (ص) یوماً: یا أبا المنذر، أی آیة من کتاب الله أعظم؟

فأجاب قائلًا: الله ورسوله أعلم.

وأعاد النبی (ص) سؤاله: یا أبا المنذر، أی آیة من کتاب الله أعظم؟

وأجاب أبی: اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ.

فضرب الرسول (ص) صدره بیده، ودعا له بخیر، وقال له والغبطة تتألق علی محیاه: لِیُهْنِکَ العلم أبا منذر. (أی هنیئًا لک العلم).

وعن أبی بن کعب أن رسول الله (ص) صلّی بالناس، فترک آیة فقال: أیُّکم أخذ علیّ شیئاً من قراءتی؟

فقال أبیٌّ: أنا یا رسول الله، ترکتَ آیة کذا وکذا.

فقال النبی (ص): قد علمتُ إنْ کان أحدٌ أخذها علیّ فإنّکَ أنت هو.

وقال أبی بن کعب لعمر بن الخطاب: یا أمیر المؤمنین! إنی تلقیتُ القرآن ممن تلقّاه من جبریل وهو رطب ..

وکان عمر یسمیه سید المسلمین. ویقول: اقرأ یا أبی.

وأخرج الأئمة أحادیثه فی صحاحهم وعدّه مسروق فی الستة من أصحاب الفتیا وممن روی عنه من الصحابة عمر، وکان یسأله عن النوازل ویتحاکم إلیه فی المعضلات. ولما مات فی خلافة عمر بن الخطاب- علی روایة- قال عمر: الیوم مات سید المسلمین.

وکان- رضی الله عنه- واحدًا من الستة أصحاب الفُتْیَا- کما روی- الذین أذن لهم رسول الله بالحکم فی حوائج الناس، وفض المنازعات التی تحدث بینهم، وردِّ المظالم إلی أهلها، وکان منهم الإمام علی بن أبی طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبی بن کعب، وزید بن حارثة ... ومما قاله (ص) فیه: وأقرؤهم لکتاب الله أبی بن کعب .. (۴)

قصة الخضر وموسی:

۱- سورة البقرة: ۲۱۳.

۲- سورة الفرقان: ۷۷.

۳- انظر جامع البیان للطبری فی تفسیره للآیات المذکورة.

۴- انظر الترمذی وابن ماجه.

ص: ٩٤

ومن معرفته العالية فى كتاب الله تعالى، والرواية عن رسول الله (ص) وفى التاريخ، من ذلك قصة الخضر وموسى: فقد روى أبىّ بن كعب فى ذلك عنه (ص) ما حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا يحيى بن آدم، قال: حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن سعيد، قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى، فقال: كـذبَ عدو الله، حدثنا أبىّ بن كعب عن رسول الله (ص) قال: إن موسى قام فى بنى إسرائيل خطيباً فقيل: أىّ الناس أعلم. فقال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يردّ العلم إليه، فقال: بل عبدٌ لى عند مجمع البحرين، فقال: يا ربّ! كيف به؟ قال: تأخذ حوتاً فتجعله فى مكْتل فحيث تفقده فهو هناك. قال: فأخذ حوتاً فجعله فى مكتل، ثم قال لفتاه: إذا فقدتَ هذا الحوت فأخبرنى. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر حتى أتيا صخرة، فرقّد موسى فاضطرب الحوت فى المكتل، فخرج فوقع فى البحر، فأمسك الله عنه جَرْية الماء فصار مثل الطاق، فصار للحوت سرَباً، وكان لهما عجباً. ثم انطلقا، فلما كان حين الغداء قال موسى لفتاه: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هذَا نَصَباً قال: ولم يجد موسى النصَب حتى جاوز حيث أمَره الله، قال: فقال: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فإنى نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ

وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى البَحْرِ عَجَباً قال: فقال: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً. قال: يقّصان آثارهما. قال: فأتيا الصخرة فإذا رجل نائم مسجًّى بثوبه، فسلّم عليه موسى فقال: وأنَّى بأرضنا السلام! قال: أنا موسى، قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، قال: يا موسى، إنى على علْم من علم الله، علّمنيه الله لا ـ تعلمه، وأنت على علم من علم الله علّمكه الله لا ـ أعلمه، قال: فإنى أتبعك على أن تعلمنى ممَّا عُلمْتَ رُشْداً. قال فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْأَلْنِى عَنْ شَىْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً. فانطلقا يمشيان على الساحل، فإذا بملاح فى سفينة، فعرف الخضر، فحمله بغير نَوْل، فجاء عصفور فوقع على حرفها فنقر- أو فنقد- فى الماء، فقال الخضر لموسى: ما ينقص علمى وعلمك من علم الله إلا مقدار ما نقر- أو نقد- هذا العصفور من البحر. قال أبو جعفر: أنا أشكُّ، وهو فى كتابى هذا "نقر "قال: فبينما هم فى السفينة لم يُفجأ موسى إلا وهو يتد وتداً أو ينزع تخْتاً منها، فقال له يا موسى: حمَلنا بغير نَوْل وتخرقها لتُغْرقَ أهْلها! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إمْراً* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيْعَ مَعِىَ صَبْراً* قال لَا تُؤاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ

قال: فكانت الأولى من موسى نسياناً، قال: ثم خرجا فانطلقا يمشيان، فأبصرا غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ برأسه فقتله، فقال له موسى: أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً قال أَلَمْ أقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيْعَ مَعِىَ صَبْراً قَالَ إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّى عُذراً.

فانطلقا حتى أتيا أهلَ قرية استطعما أهلها، فلم يجدا أحداً يطعمهم ولا يسقيهم، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه بيده- قال: مسحه بيده- فقال له موسى: لم يُضيفونا ولم ينزلونا، لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أجْراً قَالَ هذا فِراقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ قال: فقال رسول الله (ص): «لوددت أنه كان صبَر حتى يقصّ علينا قصصهم».

وعن العباس بن الوليد، قال: أخبرنى أبى قال: حدثنا الأوزاعى، قال: حدثنى الزهرىّ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس: أنه تمارى هو والحُرّ بن قيس بن حصن الفزارىّ فى صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو الخضر، فمر بهما أبىّ بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إنى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى (ع) الذى سأل السبيلَ إلى لقائه، فهل سمعت رسول الله يذكر شأنه؟ قال: نعم إنى سمعت رسول الله (ص) يقول: «بينا موسى (ع) فى ملأٍ من بنى إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان أحد أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى إلى موسى: بَلى عبدنا الخضر، فسأل موسى السبيلَ إلى لقائه، فجعل الله الحوت آية، وقال له: إذا افتقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان موسى يتبع أثر الحوت، فى البحر فقال فتى موسى لموسى: أ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وقال موسى: ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً، فوجدا الخضر، فكان من شأنهما ما قصّ الله فى كتابه». (1)

۱- تاریخ الطبری ۲۲۱: ۱- ۲۲۲. فی قصة الخضر وخبره وخبر موسی وفتاه یوشع:. وانظر: فتح الباری ۲۴: ۱۰.

ص: ٩٥

أبيّ فى كتب الرجال

سجل أبى بن كعب مكاناً متميزاً فى كتب الرجال، كما هو فى كتب التاريخ والتراجم ..

ففى؛

رجال الطوسى

(أبى) بن كعب بن قيس بن عبيـد بن زيـد بن معاويـة بن عمرو بن مالك بن النجار، يكنى أبا المنذر، شـهد العقبة مع السـبعين، وكان يكتب الوحى، آخى رسول الله بينه وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، شهد بدراً والعقبة الثانية وبايع لرسول الله (ص).

معجم رجال الحديث

قال الشيـخ: «أبى بن كعب بن قيس بن عبيـد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، من أصـحاب رسول الله (ص)، يكنى أبا المنـذر، شـهد العقبـة مع السـبعين، وكان يكتب الوحى، آخى رسول الله (ص) بينه وبين سـعيد بن زيـد بن عمرو بن نفيل، شـهد بـدراً والعقبة الثانية، وبايع لرسول الله (ص).

وذكره البرقى وقال: «عربى مدنى من بنى الخزرج».

وعده فى آخر رجاله من الإثنى عشر الذين أنكروا على أبى بكر.

وذكره- كذلك- الصدوق فى الخصال فى أبواب الإثنى عشر. (١)

وفى سير أعلام النبلاء للحافظ شمس الدين الذهبى (٧۴٨ ه) وأيضاً فى أسـد الغابة وفى الإصابة والاستيعاب ومستدرك الحاكم كما فى غيرها:

أبى بن كعب بن قيس بن زيد بن معاوية بن عمر بن مالك بن النجار، سيد القراء، أبو المنذر الأنصارى شهد العقبة الثانية وبدراً، جمع القرآن فى حيـاة النبى (ص) وعرض على النبى (ص) وكـان رأساً فى العلم والعمل. وكان أحـد فقهاء الصـحابة وأقرأهم لكتاب الله عز وجل ...

وقال عنه الرسول (ص): (اقرأ أمتى أبى) (٢)

وقال الألبانى: صحيح (٣)

قـال الواقـدى: هو أول من كتب للنـبى (ص)، وأول من كتب فى آخر الكتـاب وكتب فلاـن بن فلاـن، توفى فى سـنة ٢٢ ه- بالمدينة، وقيل: فى خلافة عثمان سنة ٣٠ ه-. (۴)

ولاؤه لأهل البيت:

ممـا كتب عنه يظهر أنه كـان محبـاً لأهـل بيت النبوة والرسالـة، ومن أوائـل الصـحابة الـذين تابعوا مدرسـة أهل البيت (عليهم السـلام) وناصروهم بالحجة والدليل، وصدحوا بحقهم أمام الآخرين.

ففى تعليقـة البهبهـانى على منهـج المقـال: فى المجـالس مـا يظهر منه جلالته وإخلاصه لأهل البيت (عليهم السـلام). والظاهر أن مراده بالمجـالس مجـالس المؤمنين ففيهـا مـا تعريبه: فى الكامـل البهـائى أن أبى بن كعب قـال: مررت عشـية يوم السـقيفة بحلقـة الأنصـار، فسألونى من أين أتيت؟ قلت: من عند أهل بيت رسول الله (ص). فقالوا: على أى حال تركتهم؟ قلت: ما يكون حال قوم

١- معجم رجال الحديث للسيد الخوئى ٣٧٥: ١.

٢- الترمذى وابن ماجه.

۳- انظر مشكاة المصابيح ۶۰۶۵.

۴- انظر سير أعلام النبلاء ۳۸۹: ۱- ۴۰۲. وفى أسد الغابة ۶۱: ۱- ۶۲. وفى الإصابة ۲۶: ۱- ۲۷. والاستيعاب، والمستدرك للحاكم وغيرها.

ص: ۹۶

لم یزل بیتهم محط قدم جبرائیل ومنزل رسول الله (ص) إلی الیوم، وقد زال ذلک عنهم الیوم، وخرج حکمهم من أیدیهم، ثم بکی أبیّ وبکی الحاضرون.

وفی الدرجات الرفیعة للسید علی خان الشیرازی: .. وروی عن أبی، وذکر مثله، وفی زیارته لأهل البیت فی ذلک الوقت، واجتماعه معهم، وعدم اجتماعه مع الناس، وتوجعه لهم، أکبر دلیل علی إخلاصه فی حبهم. وذکره فی کتابه الدرجات الرفیعة فی طبقات الشیعة، وقال: من فضلاء الصحابة، شهد العقبة ... إلی آخر عبارة الشیخ الطوسی فی رجاله. ثم قال: کان یسمی سید القراء.

والسید المرتضی عده من الشیعة، وکذا المحقق السید محسن الأعرجی فی العدة.

وفی احتجاج الطبرسی عن أبان بن تغلب أنه قال لأبی عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع): جعلت فداک، هل کان أحد فی أصحاب رسول الله (ص) أنکر علی الخلیفة الأول فعله وجاوسه مجلس رسول‌الله (ص)؟

قال: نعم، کان الذی أنکر علیه اثنا عشر رجلًا من المهاجرین ... ومن الأنصار ... وأبی بن کعب .. فلما صعد المنبر تشاوروا بینهم، فقال بعضهم: والله لنأتینه ولننزلنه عن منبر رسول الله (ص). وقال آخرون منهم: والله لئن فعلتم ذلک فقد أعنتم علی أنفسکم، قال الله عز وجل: وَ لا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَةِ

فذهبوا إلی أمیر المؤمنین (ع) واستشاروه، فقال لهم فی کلام طویل: وأیم الله، لو فعلتم ذلک لما کنتم لهم إلا حرباً، ولکنکم کالملح فی الزاد، وکالکحل فی العین، إلی أن قال: فانطلقوا بأجمعکم إلی الرجل، فعرفوه ما سمعتم من قول نبیکم؛ لیکون ذلک أوکد للحجة، وأبلغ للعذر، فساروا حتی أحدقوا بالمنبر یوم الجمعة،

فلما صعد المنبر، قال المهاجرون للأنصار: تقدموا وتکلموا، فقال الأنصار: بل تقدموا وتکلموا أنتم، فإن الله قدمکم فی الکتاب، فأول من تکلم خالد بن سعید بن العاص، ثم باقی المهاجرین من الأنصار. وروی أنهم کانوا غیّباً عن وفاة رسول الله (ص) ... ثم قام أبی بن کعب فقال: یا فلان! لا تجحد حقاً جعله الله لغیرک، ولا تکن أول من عصی رسول الله (ص) فی وصیه، وصدف عن أمره، وأردد الحق إلی أهله تسلم، ولا تتماد فی غیک فتندم، وبادر الإنابة یخف وزرک، ولا تخص نفسک بهذا الأمر الذی لم یجعله الله لک، فتلقی وبال عملک، فعن قلیل تفارق ما أنت فیه، وتصیر إلی ربک، فیسألک عما جنیت، وما ربک بظلام للعبید.

وروی له فی الاحتجاج أیضاً خطبة طویلة یحتج بها علی القوم، ویذکر فضائل أمیر المؤمنین (ع) وأنه أحق بالخلافة ... (۱)

من روی عنه

بعد أن رَوی أبی بن کعب أحادیث عن رسول الله (ص)، راح یروی عنه الجماعة من الصحابة والتابعین؛ ومن الذین رووا عنه: أبو أیوب الأنصاری، وابن عباس، وجندب بن عبد الله البجلی، وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وعبد الرحمن بن أبی لیلی، وعبد الرحمن بن أبزی، وسعید بن المسیب، وعمر بن الخطاب، ومسروق بن الأجدع، وزر بن حبیش الأسدی، وأنس بن مالک، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وسهل بن سعد، وعبادة بن الصامت، و أبو موسی، وسلیمان بن صرد الخزاعی، وعطاء بن یسار، والمغیرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو الأسود الدؤلی، وأبو هریرة، وسهل بن سعد، کما روی عنه أولاده: الطفیل بن أُبی بن کعب، ومحمد، وعبد الله ..

من مرویاته:

۱- انظر ما کتبه السید محسن الأمین فی أعیان الشیعة، الجزء الأول: وعده فی طبقات المفسرین من الشیعة، وفی الجزء السادس: ۲۰۱- ۲۱۰.

ص: ٩٧

له العديد من الروايات، يروى بعضها بنفسه، وبعضها الآخر يشترك معه آخرون، ومنها:

عن عثمان وابن مسعود وأبى: أن رسول الله (ص) كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمهم القرآن والعمل جميعاً.

وعن أبى نفسه قال: قال لى رسول الله (ص): إنى أمرت أن أقرأ عليك القرآن.

قال: قلت: يا رسول الله (ص)، وسميت لك؟ قال: نعم.

وعنه: كان رسول الله (ص) إذا ذهب ربع الليل قام فقال: أيها الناس! أذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه.

وعنه: قال لى رسول الله ٩: ألا ـ أعلمك مما علمنى جبريل ٧؟ قال: قلت: نعم يا رسول‌الله! قال: قل اللهم اغفر لى خطاياى، وعمدى، وهزلى، وجدى، ولا تحرمنى بركة ما أعطيتنى، ولا تفتنّى فيما حرمتنى.

وعنه، قال: قال رسول الله (ص): بشر هذه الأمة بالسناء والنصر والتمكين، ومن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا فلم يكن له فى الآخرة من نصيب. (١)

زهده وورعه وتقواه

عرف هذا الصحابى العالم الجليل بزهده وورعه وتقواه، فقد ورد عن جُندب بن عبد الله البجلى قال: أتيت المدينة ابتغاء العلم، فدخلت مسجد رسول الله (ص) فإذا الناس فيه حَلَقٌ يتحدّثون، فجعلت أمضى الحَلَقَ حتى أتيتُ حلقةً فيها رجل شاحبٌ عليه ثوبان كأنّما قدم من سفر.

فسمعته يقول: «هلك أصحاب العُقدة ورب الكعبة، ولا آسى عليهم» ... أحسبه قال: مراراً ... فجلست إليه فتحدّث بما قُضىَ له ثم قام، فسألت عنه بعدما قام قلت: من هذا؟.

قالوا: هذا سيد المسلمين أبى بن كعب ..

فتبعته حتى أتى منزله، فإذا هو رثُّ المنزل رثُّ الهيئة، فإذا هو رجل زاهد منقطعٌ يشبه أمره بعضه بعضاً ... هذا فى زهده.

قال أبى بن كعب: يا رسول الله (ص) إنى أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك فى صلاتى؟

قال: ما شئت، وإن زدت فهو خيرٌ ... قال: الرُّبع؟ ..... قال: ما شئت، وإن زدت فهو خيرٌ .. قال: أجعلُ النصف؟.

قال: ما شئت، وإن زدت فهو خيرٌ ...

قال: الثلثين؟

قال: ما شئت، وإن زدت فهو خيرٌ.

قال: اجعل لك صلاتى كلّها؟

قال: إذاً تُكفى همَّك ويُغفَر ذنبُك.

وبعد انتقال الرسول (ص) إلى الرفيق الأعلى، ظل أبىّ على عهده فى عبادته وقوة دينه، وكان دوماً يذكر المسلمين بأيام الرسول (ص) ويقول: لقد كنا مع الرسول (ص) ووجوهنا واحدة، فلما فارقنا اختلفت وجوهنا يميناً وشمالًا. وعن الدنيا يتحدث ويقول: إن طعام ابن آدم، قد ضرب للدنيا مثلًا، فإن ملحه وقزحه فانظر إلى ماذا يصير؟

١- انظر مختصر تاريخ دمشق: ١٩٧: ۴- ٢٠۵. وحلية الأولياء ٢۵٠: ١- ٢۵۶.

ص: ۹۸

وحين اتسعت الدولة الإسلامية ورأى المسلمين يجاملون ولاتهم، أرسل كلماته المنذرة: هلكوا ورب الكعبة، هلكوا وأهلكوا، أما إنى لا آسى عليهم، ولكن آسى على من يهلكون من المسلمين .. وكان أكثر ما يخشاه هو أن يأتى على المسلمين يوم يصير بأس أبنائهم بينهم شديد.

وكان أبى بن كعب من ورعه وتقواه يبكى إذا ذكر الله تعالى، ويهتز كيانه حين يرتل آيات القرآن أو يسمعها، وكان إذا تلا أو سمع قوله تعالى: قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (۱)، يغشاه الهم والأسى.

وقد روى أن رجلًا من المسلمين، قال: يا رسول الله! أرأيت هذه الأمراض التى تصيبنا وما نلاقيها؟ قال: (كفارات)، فقال أبى ابن كعب: يا رسول الله! وإن قَلَّتْ؟ قال: (وإن شوكة فما فوقها)،

فدعا أبى أن لا يفارقه الوَعْك حتى يموت، وأن لا يشغله عن حج، ولا عمرة ولا جهاد، ولا صلاة مكتوبة فى جماعة، فقال أبو سعيد الخدرى ۲: فما مس إنسان جسده إلا وجد حرَّه حتى مات. (۲)

وقد كان أبى ۲ مستجاب الدعوة، فيحكى ابن عباس أن عمر بن الخطاب ۲ قال لجمع من الصحابة: اخرجوا بنا إلى أرض قومنا. فكان ابن عباس مع أبى بن كعب فى مؤخرة الناس، فهاجت سحابة، فدعا أبى قائلًا: اللهم اصرف عنا أذاها. فلحق ابن عباس وأبى الناس، فوجدوا أن رحالهم ابتلت: فقال عمر: ما أصابكم؟ (أى: كيف لم تبل رحالكما؟) فقال ابن عباس: إن أبيًا قال: اللهم اصرف عنا أذاها. فقال عمر: فهلا دعوتم لنا معكم.

وقعة الجابية

شهد أبى بن كعب مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية، وقد خطب عمر بالجابية فقال: أيها الناس من كان يريد أن يسأل عن القرآن فليأتِ أبيَّ بن كعب ...

وأبى هو الذى كتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس، حيث جاء عن أبى الحويرث، قال: كان يهود من بيت المقدس، وكانوا عشرين رأسهم يوسف بن نون، فأخذ لهم كتاب أمان، وصالح عمر بالجابية، وكتب كتاباً، ووضع عليهم الجزية، وكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، أنتم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم ما لم تحدثوا أو تؤوا محدثاً، فمن أحدث منهم أو آوى محدثاً، فقد برئت منه ذمة الله، وإنى برىء من معرة الجيش؛ شهد معاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن جراح، وكتب أبيّ بن كعب». (۳)

أقواله ووصاياه

وكان لا يخاف فى الله لومة لائم، وكان من الذين لا يطلبون من الدنيا عرضاً، فليس لها نصيب فى قلوبهم، فعندما اتسعت بلاد المسلمين ورأى الناس يجاملون ولاتهم فى غير حق قال:

هلكوا وربِّ الكعبة، هلكوا وأهلكوا، أما إنى لا آسى (أحزن عليهم) ولكن آسى على من يهلكون من المسلمين.

وقال: ما ترك أحد منكم لله شيئاً إلا آتاه الله ما هو خير له منه من حيث لا يحتسب، ولا تهاون به وأخذه من حيث لا يعلم إلا آتاه ما هو أشد عليه من حيث لا يحتسب. وقال له رجل- ذات يوم-: أوصنى فقال له أُبيٌّ: اتخذ كتاب الله إماماً، وارض به قاضياً وحكماً، فإنه الذى استخلف فيكم رسولكم، شفيع، مطاع، وشاهد لايتهم، فيه ذكركم وذكر من قبلكم، وحكم ما بينكم، وخبركم وخبر ما بعدكم.

۱- سورة الأنعام: ۶۵.

۲- رواه أحمد وابن حبان.

۳- مختصر تاریخ دمشق ۱۹۷: ۴.

ص: ۹۹

قال رجل لأبی بن کعب: أوصنی یا أبا المنذر، قال: لا تعترض فیما لا یعنیک، واعتزل عدوک، واحترس من صدیقک، ولا تغبط حیاً إلا بما تغبطه به میتاً، ولا تطلب حاجة إلی من لا یبالی ألا یقضیها لک.

وجاء رجل إلی أبیّ فقال: یا أبا المنذر! آیة فی کتاب الله قد غمتنی. قال: أی آیة؟ قال: مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً یُجْزَ بِهِ قال: ذاک العبد المؤمن ما أصابته من نکبة مصیبة فیصبر، فیلقی الله تعالی، فلا ذنب له.

وعنه أنه قال: المؤمن بین أربع؛ إن ابتلی صبر، وإن أعطی شکر، وإن قال صدق، وإن حکم عدل. فهو یتقلب فی خمسة من النور، وهو الذی یقول الله: نُورٌ عَلی نُور (۱) کلامه نور، وعلمه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصیره إلی نور یوم القیامة.

والکافر یتقلب فی خمسة من الظلم؛ فکلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه فی ظلمة، ومصیره إلی الظلمات یوم القیامة. (۲)

رافقته الحمی!

عاش أبو المنذر رضوان الله تعالی علیه حیاته مریضاً بالحمی، وقد لازمته، لکنها لم تثنه عما یرید، فقد واصل حیاته- بعزم وهمة عالیة قل نظیرها مجاهداً فی میادین النزاع دفاعاً عن الدین الذی آمن به بصدق وإخلاص .. و متعلماً وعالماً ومعلماً فی مدرسة القرآن الکریم والصحبة النبویة المبارکة ..

کیف لا یکون کذلک، وقد أبکاه ما سمعه من رسول الله (ص) حین قال (ص) له: أمرت أن أقرئک القرآن.

فقال أبی له: أو ذکرت هناک؟

قال: نعم.

فبکی أبی، فلا أدری أشوق أم خوف ..

وقال أبی: انطلقت إلی رسول الله (ص) فضرب بیده صدری.

ثم قال: أعیذک بالله من الشک والتکذیب.

قال: ففضت عرقاً، وکأنی أنظر إلی ربی فرقاً!

کل هذا وغیره جعل أبیاً متعالیاً علی مرضه وآلامه وأوجاعه، وأعظم ثباتاً فی کدحه وجهاده، وجعله أکثرعزماً فی خدمته للقرآن الکریم، الذی تمیزت به حیاته المبارکة ..

سأل أبیّ الرسول ۹ جزاء الحمَّی؟

قال: تجری الحسنات علی صاحبها ما اختلج علیه قدم أو ضرب علیه عرق.

فقال أبی: اللهم إنی أسألک حمّی لا ـ تمنعنی خروجاً فی سبیلک، ولا ـ خروجاً إلی بیتک ولا مسجد نبیک، فلم یمس أبی إلا وبه حمّی.

وعن عبد الله بن أبی نُصیر قال: عُدْنا أبی بن کعب فی مرضه، فسمع المنادی بالأذان فقال: (الإقامة هذه أو الأذان؟) ... قلنا: (الإقامة) ... فقال: (ما تنتظرون؟ ألا ـ تنهضون إلی الصلاة؟) ... فقلنا: (ما بنا إلا مکانک) ... قال: (فلا تفعلوا قوموا، إن رسول الله (ص) صلی بنا صلاة الفجر، فلمّا سلّم أقبل علی القوم بوجهه فقال: (أشاهدٌ فلان؟ أشاهدٌ فلان؟).

حتی دعا بثلاثة کلهم فی منازلهم لم یحضروا الصلاة فقال: إن أثقل الصلاة علی المنافقین صلاة الفجر والعشاء، ولو یعلمون ما فیهما لأتوهما ولو حَبْواً،

۱- سورة النور: ۳۵.

۲- انظر حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى ۲۵۲: ۱- ۲۵۳.

ص: ١٠٠

واعلم أنّ صلاتک مع رجلٍ أفضل من صلاتک وحدک، وإن صلاتک مع رجلين أفضل من صلاتک مع رجل، وما أكثرتم فهو أحب إلى الله، وإن الصفّ المقدم على مثل صف الملائکة، ولو يعلمون فضيلته لابتدروه، ألا وإن صلاة الجماعة تفضل على صلاة الرجل وحدَه أربعاً وعشرين أو خمساً وعشرين.

قال الرسول (ص): «ما مِنْ شيءٍ يصيب المؤمن في جسده إلا كفَّر الله عنه به من الذنوب ..». فقال أبى بن كعب: اللهم إنّى أسألک أن لا تزال الحُمّى مُضارِعةً لجسدِ أبى بن كعب حتى يلقاک، لا يمنعه من صيام ولا صلاة ولا حجّ ولا عُمرة ولا جهاد فى سبيلک. فارتكبته الحمى فلما تفارقه حتى مات، وكان فى ذلک يشهد الصلوات ويصوم ويحج ويعتمر ويغزو ...

وفاته رضوان الله تعالى عليه

اختلف فى سنة وفاته فقيل: فى السنة التاسعة عشرة للهجرة النبوية الشريفة، وقيل: فى سنة عشرين منها، وقيل: بعد ثلاث وعشرين سنة من الهجرة، وقيل: فى سنة ثلاثين، وقيل: فى سنة اثنتين وثلاثين، وقيل: قبل مقتل الخليفة الثالث عثمان. وقيل: فى زمن الخليفة عمر، وقيل: فى زمن عثمان، ولعل الثانى هو الأصحّ، أى فى سنة ثلاثين، وقد ارتضاه كل من الواقدى وابن سعد، وهو أثبت الأقاويل كما عبرا عنه،

ومن الدلائل عليه: خبر محمّد بن سيرين:

قال محمّد بن سيرين: إن عثمان بن عفان: جمع إثنى عشر رجلًا من قريش والأنصار، فيهم أُبى بن كعب وزيد بن ثابت فى جمع القرآن.

وقبله ابن الأثير صاحب أسد الغابة فى معرفة الصحابة حيث قال: وقيل: سنة ثلاثين فى خلافة عثمان. قال: وهو الصحيح؛ لأن زر بن حبيش لقيه فى خلافة عثمان.

ولما مات قال ابن ضمرة: رأيت أهل المدينة يموجون فى سككهم، فقلت: ما شأن هؤلاء؟

فقال بعضهم: ما أنت بأهل البلد؟

قلت: لا.

قال: فإنه قد مات اليوم سيد المسلمين، أبى بن كعب.

ويقول آخر وهو عُتىّ السعدىّ: قدمت المدينة فى يوم ريحٍ وغُبْرةٍ، وإذا الناس يموج بعضهم فى بعض.

فقلت: ما لى أرى الناس يموج بعضهم فى بعض؟

فقالوا: أما أنت من أهل هذا البلد؟

قلت: لا.

قالوا: مات اليوم سيد المسلمين، أبىّ بن كعب.

حقاً لقد كنت من أولئک الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه!

فسلام عليک– أبا المنذر– فى الخالدين مع الأبرار والصالحين!

ص: ١٠١

ص: ١٠٢

ص: ۱۰۳

أيام التشريق فى القرآن الكريم

وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون (۱).

أوشك موسم الحج أن ينقضى، وقربت مناسكه من نهايتها، وما هو إلا وقت يسير حتى يعود الحاج إلى أهله وبلده، وهنا يأتيه النداء الأخير ليكمل به عمله الذى بدأه، وشعائره التى تلبس بها، ومناسكه التى حرص على أدائها، وبالتالى يتم حجه الذى قدّم فى سبيله ما كان غالياً عنده من جهد ومال وبُعد عن الأحبة والأهل والأولاد، وعطل لأدائه نشاطه من تجارة وكد وكسب ..

يأتيهم نداء السماء المبارك

وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ

شاءت السماء أن لا يغادر الحاج ساحة الحج حتى يذكر الله تعالى كما يحب سبحانه وتعالى وكما يريد، وفى الوقت الذى يشاء أن يذكر فيه فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ.

أيام معدودات لا غير، أيام حبيبة إليه تعالى، لها شأن عظيم عنده، فيها جزاء خاص لديه .. تريدها السماء للحاج؛ ليتزود فيها بما يعصمه من سيئات الدنيا وعذاب الآخرة، وليأخذ من عطاء مائدتها ما يهيئه لجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ..

إنها أيام الذكر؛ ذكر الله تعالى، إنها أيام التشريق، إنها أيام منى، وقد جاءت تتميماً لأيام سبقتها أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ذات بركات كبيرة للحجيج لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ (۲). وجاءت أيضاً بعد يوم عظيم؛ عرفة (الحج عرفة) وجاءت أخيراً وقد اقترنت بيوم النحر بيوم الأضحى، فغدت أيام الحج: يوم عرفة والنحر والتشريق .. ما أجلّها من أيام! وما أعظمها من أيام! وما أجملها من أيام! ... أيام ترغب السماء أن يكثر عباد الله الصالحون من ذكر الله تعالى فيها، فهى مفضلة وصالحة للذكر، وهى معدة للعبادة، وهى مهيئة للعطاء ... وهى تذكرهم بيوم الحشر، وتشدهم إلى يوم الحساب، إنه يوم مهيب ومخيف .. ذاك هو يوم الحشر الأكبر الذى لا ينجو فيه إلا المتقون ..

وبما أن الحاج على وشك الانتهاء من أعمال الحج، وتَرْك تلك الأماكن المباركة، والعودة إلى صخب الحياة وزخرفها، أعقب ذلك سبحانه ببيان أن لزوم المؤمن لتقوى الله ينبغى أن يكون على كل حال، وفى كل زمان، فليست تقوى الله خاصة بزمان محدد، ولا بمكان معين، وإنما هى مطلوبة فى الحِلِّ والترحال، والعبادة والحياة، والشدة والرخاء، كما ثبت فى الحديث: «اتق الله حيثما كنت»، فى أى مكان كنت، وعلى أى حال صرت، لا كما يفعل بعض المسلمين اليوم، عند خروجهم من عبادة، كانتهاء رمضان، حيث يعودون إلى ما كانوا عليه من أعمال لا ترضى الله تعالى ورسوله (ص)؛ ولهذا جاءت: وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون.

أمر القرآن الكريم بالتقوى فى خاتمة الكلام، وراح يذكرنا بالحشر والبعث؛ لأن التقوى لا تتم، والمعصية لا تجتنب، بل والحياة لا تستقيم، إلا مع ذكر يوم الجزاء، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ ..) (۳).

۱– البقرة: ۲۰۳.

۲

۲- الحج: ۲۸.

۳- ص: ۲۶.

ص: ۱۰۴

وفی اختیار لفظ الحشر فی قوله تعالی: أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون، مع ما فی نسک الحج من حشر الناس وجمعهم لطف ظاهر، وإشعار بأن الناسک ینبغی- وهو یعیش هـذا الجمع المهیب والإفاضـة- أن یذکر یوماً یحشر فیه الناس جمیعاً .. وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (۱).

هـذا وأن من أروع ما فی الحـج وکله رائع، ومن أجمل ما فی الحج وکله جمیل، ومن أنفع ما فی الحج وکله نافع .. هو تلک الدروس الکبیرة المستفادة من مظاهره ومناسکه، التی أهمها وأجلها: توحیـد الله تعالی، بـدءاً بالإحرام نیة وأحکاماً وآداباً مروراً بالمناسک الأخری التالیـة له، فمثلًا الحـاج حینما یفرغ من الطواف وأدعیته التوحیدیـة، تراه یصلی رکعتی الطواف، فیقرأ فی الرکعـة الأولی بعد الفاتحـة سورة الکافرون وفی الرکعـة الثانیـة یقرأ سورة الإخلاص، وفی هاتین السورتین توحیـد الربوبیـة وتوحید الألوهیة، ففی السورة الأولی البراءة من دین المشرکین وإفراد الله بالعبادة. وفی السورة الثانیة إفراد الله بصـفات الکمال وتنزیهه عن صـفات النقص، وبذلک یعرف العبد ربه، ویخلص له العبادة ویتبرأ من عبادة ما سواه. وهکذا فی السعی بین الصفا والمروة ...

ومن ذلـک یتعلم المسلـم أنه لایحـل الطواف و السعی فی أی مکان من الأرض إلا فی المکان المخصـص لهما حول البیت المبارک وبین الصـفا والمروة، وهکـذا بقیـة المناسـک والمواقف؛ لأنهـا من شـعائر الله تعالی، فالسـعی مثلًا بین هـذین المکانین إنما هو بأمر الله تعـالی، فکـل سـعی فی مکان غیرهما فلیس عبادة لله، لأنه سـعی بغیر أمره تعالی، ولیس فی زمنه المعین، وبعیـداً عن مکانه المحـدد .. ویتجلی بینهما ذکر الله تعالی ومظاهر التوحید، وکذا موقفه فی عرفة «الحج عرفة» وهکذا المزدلفة، تتبین فی کل هذه المحطات مظاهر توحیـد الله تعـالی فی الحـج، ثم تتضـح فی منی وما فیها من مناسک عدیـدة عبر ما شـرعه الله تعالی فی یوم العیـد وأیام التشـریق. قال تعالی:

وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ (۲).

وذکر الله فی هـذه الأیـام یتجلی فی الشـعائر العظیمـة التی تؤدی فی أیام منی، من رمی الجمار، وذبـح الهـدی، وأداء الصـلوات فرضـاً کانت أو اسـتحباباً فی هـذا المشـعر المبارک والأیام المبارکـة، کل هـذه الأعمال ذکر لله عز وجل. فرمی الجمار ذکر لله، ولهـذا یقول المسلـم عنـد رمی کـل حصـاة: (الله أکبر)، وذبـح الهـدی ذکر لله عز وجل کما قال تعالی: وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ (۳)، وهکذا کل ما یعمله الحاج هو ذکر لله تعالی، ومصداق للآیة المبارکة.

ومن فوائـد هـذه الآیـة أنها تعد الأخیرة فی بیان مناسک الحجّ. وقد أبطلت سـنناً جاهلیة، حیث کانوا یتفاخرون فی موسم العید بآبائهم وأجدادهم وأمجادهم التی یزعمون، فسنّت بدل ذلک ذکر الله سبحانه وتعالی، فجاءت وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ.

وبقرینـة الآیات السابقة لهذه الآیة، جاء هذا الأمر بذکر الله تعالی ناظراً إلی الأیّام الحادی عشـر والثانی عشـر والثالث عشـر التی تسـمّی بلسان الروایات (أیّام التشـریق). وکأن صـدی هـذه المناسک یتردد فی جنبات منی، فیؤدی إلی إشـراقة الروح المؤمنة، وهی تؤدی بل تعیش مناسک الحج، وخصوصاً فی أیامها الأخیرة حیث قمة المناسک وختامها.

وقت النزول

هذا وأن الوقت الذی نزلت فیه هذه الآیات هو فی حجة الوداع، آخر حجة حجها رسول‌الله (ص)، وفیها تم تشریع حج التمتع.

الآیة لغة وإعراباً وقراءة

۱- الکهف: ۴۷.

۲- البقرة: ۲۰۳.

۳- الحج: ۲۸.

ص: ۱۰۵

الإعراب والقراءة

واذكروا الله: واو عاطفة وفعل أمر مبنى على حذف النون والواو فاعل، واسم الجلالة مفعول به.

فى أيام: جار ومجرور، ومعدودات صفة لأيام.

فمن: الفاء استئنافية، ومن: شرطية مبتدأ.

تعجّل: فعل ماض فى محل جزم فعل الشرط.

فى يومين: الجار والمجرور متعلقان بتعجل.

فلا إثم: الفاء رابطة ولا نافية للجنس وإثم اسمها المبنى على الفتح.

عليه: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لا، والجملة المقترنة بالفاء فى محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر من.

وكذا وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ

لمن اتقى: اللام حرف جر، ومن اسم موصول فى محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، أى ذلك التخيير. ويقول أبو البقاء: وفى لمن اتقى: خبر مبتدأ محذوف تقديره: جواز التعجيل والتأخير لمن اتقى.

واتقوا الله: الواو عاطفة، واتقوا فعل أمر مبنى على حذف النون، والواو فاعل، ولفظ الجلالة مفعول به.

واعلموا: عطف على اتقوا.

أنكم: أن واسمها، وإليه: الجار والمجرور متعلقان بتحشرون.

تحشرون: فعل مضارع وفاعل، والجملة الفعلية خبر أن، وأن وما بعدها فى تأويل مصدر سدت مسد مفعولى اعلموا.

أبو البقاء فى فَلا ـ إِثْمَ عَلَيْهِ يقول: الجمهور على إثبات الهمزة، وقرئ «فلثم» ووجهها أنه لما خلط لا ـ بالاسم حذف الهمزة لشبهها بالألف، ثم حذف ألف لا لسكونها وسكون الثاء بعدها.

وعن معدودات: قال الكوفيون: الألف والتاء لأقل العدد، وقال البصريُّون: هما للقليل والكثير. وفى مجمع البيان للشيخ الطبرسى: المعدودات تستعمل كثيراً فى اللغة للشىء القليل، وكل عدد قل أو كثر فهو معدود، ولكن معدودات أدل على القلة؛ لأن كل قليل يجمع بالألف والتاء.

وأنقل هنا ما قاله صاحب الدر المصون، وهو يرد على ما ذكره أبو البقاء العكبرى عن هذه الصفة «معدودات» يقول السمين الحلبى:

قوله تعالى: مَّعْدُودَاتٍ: صفة لأيام، وقد تقدَّم أن صفةَ ما لا يعقل يَطَّرِد جَمْعُها بالألفِ والتاءِ.

وقد طَوَّل أبو البقاء هنا بسؤال وجواب، أما السؤالُ فقال: إنْ قيل ":الأيام "واحدُها "يوم "و "المعدودات "واحدتُها "معدودةٌ، "واليومُ لا يُوَصَفُ بمعدودة، لأنَّ الصفةَ هنا مؤنثة والموصوفُ مذكَّر، وإنما الوجهُ أن يقالَ ":أيامٌ معدودةٌ "فَتَصِفُ الجمع بالمؤنثِ، فالجوابُ إنه أَجْرى "معدودات "على لفظ أيام، وقابَلَ الجمعَ بالجمع مجازاً، والأصلُ معدودة، كما قال:

لَن تَمَسَّنَا لنَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً (۱).

ولو قيل: إن الأيام تَشْتمل على الساعات، والساعةُ مؤنثة فجاء الجمعُ على معنى ساعات الأيام، وفيه تنبيهٌ على الأمر بالذكر فى كلِّ ساعاتِ هذه الأيامِ أو فى معظمِها، لكانَ جواباً سديداً.

۱- البقرة: ۸۰.

ص: ١٠٦

ونظيرُ ذلكَ الشهر والصيف والشتاء فإنها يُجاب بها عن كم، [وكم] إنما يجابُ عنها بالعدد، وألفاظُ هذه الأشياءِ ليسَتْ عدداً وإنما هى أسماءُ المعدودات فكانت جواباً من هذا الوجهِ."

يقول صاحب الدر المصون عن هذا: وفى هذا السؤالِ والجوابِ تطويلٌ من غيرِ فائدةٍ، وقولُه ":مفرد معدودات معدودة بالتأنيث" ممنوعٌ، بل مفردُهَا "معدود "بالتذكير، ولَا يضُرُّ جمعُه بالألفِ والتاء، إذ الجمع بالألفِ والتاءِ لَايستدعى تأنيثَ المفرد، ألا ترى إلى قولِهم: حَمَّامات وسِجِلّات وسُرادِقات.

وذكر الشيخ الطوسى: وسميت معدودات لأنها قلائل، كما قال: وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ (١) أى قليلة. والجمع بالألف والتاء يصلح للقليل والكثير، والقليل أغلب عليه. وقال الزجاج: الألف والتاء يصلح للكثير قال الله تعالى: وَ هُمْ فِى الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (٢) وقال: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (٣) وإنما احتمل هذا الجمع القليل والكثير، لأن جمع السلامة على طريقة واحدة لا يتميز فيه قليل من كثير، وكان القليل أغلب عليه، لشبهه بالتثنية.

(معلومات (معدودات

وردت معدودات فى الآيات التالية:

الآية: ١٨۴ وهى آية الصيام، ٢٠٣ وهى محل مقالتنا، وكلاهما من سورة البقرة. ولم يرد موضوع الحج ضمن عنوان «معدودات» إلا فى هذه الآية.

والآية ٢۴ من سورة آل عمران.

فيما وردت معلومات فى الآيات التالية:

الآية: ١٩٧ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ من سورة البقرة.

الآية: ٢٨ .. وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ .. من سورة الحج. فمعلومات لم ترد إلا فى آيتين تخصان فريضة الحج.

مع روايات الفريقين:

وقبل أن نتعرض إلى أقوال المفسرين فى مقاطع هذه الآية، نذكر الروايات من الفريقين حول الآية ومرادها:

١- روايات أهل البيت:

فى الكافى عن الصادق (ع) فى قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ، قال: «وهى أيام التشريق، وكانوا إذا أقاموا بمنى بعد النحر تفاخروا فقال الرجل منهم: كان أبى يفعل كذا وكذا، فقال الله جلَّ شأنه: فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً، قال: والتكبير: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام.»

وفيه عنه (ع) قال: «والتكبير فى أيام التشريق من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الفجر من اليوم الثالث، وفى الأمصار يكبر عقيب عشر صلوات». وفى الفقيه فى قوله تعالى: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ، سئل الصادق (ع) فى هذه الآية فقال: «ليس هو على أن ذلك واسع إن شاء صنع ذا، لكنه يرجع مغفوراً له لا ذنب له».

وروى عن أبى عبدالله (ع) فى قوله تعالى: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ أى من مات فى هذين اليومين، فقد كفر عنه كل ذنب. ومن تأخر أى أنسئ أجله، فلا إثم عليه بعدها إذا اتقى الكبائر».

١- يوسف: ٢٠.

٢- سبأ: ٣٧.

٣- الحجر: ۴۵.

ص: ۱۰۷

محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ قال: «التكبير فى أيام التشريق: صلاة الظهر من يوم النحر إلى صلاة الفجر من يوم الثالث، وفى الأمصار عشر صلوات» (۱).

عن حماد بن عيسى قال: سمعت أباعبدالله (ع) يقول: «قال على (ع) فى قول الله وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ قال: أيام التشريق».

وعن رفاعة عن أبى عبدالله (ع) قال: سألته عن الأيام المعدودات، قال: «هى أيام التشريق».

عن محمد بن مسلم قال: سألت أباعبدالله عن قول الله: وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ قال: «التكبير فى أيام التشريق فى دبر الصلاة».

عن معاوية بن عمار عن أبى عبدالله (ع) فى قول الله: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ، قال: «يرجع مغفوراً له، لا ذنب له».

عن أبى أيوب الخزاز، قال: قلت لأبى عبد الله (ع): إنا نريد أن نتعجل، فقال: «لا تنفروا فى اليوم الثانى حتى تزول الشمس. فأما اليوم الثالث، فإذا انتصف فانفروا فإن الله يقول: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ فلو سكت لم يبق أحد إلا يعجل، ولكنه قال عز وجل: وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ (۲).

وفى الفقيه عن الصادق (ع) فى قوله تعالى: لِمَنِ اتَّقى الآيه، قال: «يتقى الصيد حتى ينفر أهل منى».

وعن الباقر (ع): «لمن اتقى الرفث والفسوق والجدال وما حرم الله فى إحرامه».

وعنه أيضاً: «لمن اتقى الله عزَّ وجلَّ».

وعن الصادق (ع): «لمن اتقى الكبائر».

۲ روايات أهل السنة:

أخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال: الأيام المعدودات ثلاثة أيام: يوم الأضحى، ويومان بعده، إذبح فى أيها شئت، وأفضلها أولها.

وأخرج الفريابى وابن أبى الدنيا وابن المنذر عن ابن عمر فى قوله: وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ قال: ثلاثة أيام، أيام التشريق. وفى لفظ: هى الثلاثة الأيام بعد يوم النحر.

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد والمروزى فى العيدين وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب والضياء فى المختارة من طرق عن ابن عباس قال: الأيام المعلومات أيام العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق.

وأخرج الطبرانى عن عبدالله بن الزبير وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ قال: هن أيام التشريق يذكر الله فيهن بتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد.

وأخرج ابن أبى الدنيا والمحاملى فى أماليه والبيهقى عن مجاهد قال: الأيام المعلومات العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق.

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الأيام المعدودات أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة أيام بعده.

وأخرج المروزى عن يحيى بن كثير فى قوله: وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ قال: هو التكبير فى أيام التشريق دبر الصلوات.

۱- التهذيب ۲۹۲: ۱، والكافى ۵۱۶: ۳.

۲- تفسير العياشى ۱: تحت الأرقام ۲۷۶- ۲۸۲.

ص: ۱۰۸

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر، أنه كان يكبر تلك الأيام بمنى ويقول: التكبير واجب، ويتأوّل هذه الآية: وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ.

وأخرج المروزى وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن عمرو بن دينار قال: رأيت ابن عباس يكبر يوم النحر ويتلو: وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ.

وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ قال: التكبير أيام التشريق، يقول فى دبر كل صلاة: الله أكبر الله أكبر الله أكبر.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر، أنه كان يكبر ثلاثاً ثلاثاً وراء الصلوات بمنى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير.

وأخرج المروزى عن الزهرى قال: كان رسول الله (ص) يكبر أيام التشريق كلها.

وأخرج سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال: سمعت ابن عباس يكبر يوم الصدر ويأمر من حوله أن يكبر، فلا أدرى تأوّل قوله تعالى: وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ أو قوله: فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ الآية.

وأخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت: أفاض رسول الله ٩ من آخر يومه حين صلى الظهر، ثم رجع فمكث بمنى ليالى التشريق يرمى الجمرة إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة، ويقف عند الأولى وعند الثانية، فيطيل القيام ويتضرع، ثم يرمى الثالثة ولا يقف عندها. (۱)

مع المفسرين:

للمفسرين أقوال فى الآية وجاء مفادها تبعاً لما ذكرته الروايات، ونجد تلك الأقوال عبر المقاطع الأربعة للآية الكريمة:

المقطع الأول: وَاذْكُرُواْ اللهَ.

المقطع الثانى: فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ.

المقطع الثالث: فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى.

المقطع الرابع: وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون.

المقطع الأول: وَاذْكُرُوا الله

فعن الذكر ومواضعه والأقوال المختلفة فيه:

يقول الشيخ الطبرسى (۵۴۸ ه):

والذكر المأمور به هو أن تقول عقيب خمس عشرة صلوات: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا والله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام، وأول التكبير عندنا عقيب الظهر من يوم النحر وآخره عقيب صلاة الفجر من اليوم الرابع من النحر هذا لمن كان بمنى، ومن كان بغير منى من الأمصار يكبر عقيب عشر صلوات أولها صلاة الظهر من يوم النحر أيضاً. هذا هو المروى عن الصادق (ع)، وفى ذلك اختلاف بين الفقهاء ووافقنا فى ابتداء التكبير من صلاة الظهر من يوم النحر ابن عباس وابن عمر. (۲)

و يقول الشيخ البلاغى عن (وَاذْكُرُواْ اللهَ):

۱- انظر الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ۹۱۱ هجرية.

٢- مجمع البيان فى تفسير القرآن: الآية.

ص: ۱۰۹

وذکر الله فی التکبیر کما فی صحیحتی محمد ومنصور المشار إلیهما. وصورته المتفق علیها بین المسلمین کما ذکره فی التبیان: الله أکبر. الله أکبر. لا إله إلا الله والله أکبر الله أکبر ولله الحمد. وزاد أصحابنا تبعاً للروایات عن أئمتهم أهل البیت وجمعاً بینها: الله أکبر علی ما هدانا والحمد لله علی ما أولانا ورزقنا من بهیمة الأنعام. وهو مستحب علی المشهور لصحیحة علی بن جعفر عن أخیه الکاظم قال: سألته عن التکبیر فی أیام التشریق أواجب أو لا؟ قال (ع): «مستحب وإن نسی فلا شیء علیه»، فالأمر فی الآیة للاستحباب. ووقته بعد کل فریضة من صلاة الظهر یوم النحر إلی صلاة الصبح من الیوم الثالث عشر فیکون خمسة عشر تکبیراً، ولمن ینفر بالنفر الأول بعد الزوال فیکون عشر مرات. واختلف کلام الفقهاء من الجمهور فی عدده ولکن مالکاً والشافعی فی أحد أقواله وافقا أصحابنا. (۱)

یقول الرازی (۶۰۶ ه):

المسألة الثانیة: المراد بالذکر فی هذه الأیام: الذکر عند الجمرات، فإنه یکبر مع کل حصاة والذکر إدبار الصلوات والناس أجمعوا علی ذلک، إلا أنهم اختلفوا فی مواضع:

الموضع الأول: أجمعت الأمة علی أن التکبیرات المقیدة بإدبار الصلوات مختصة بعید الأضحی، ثم فی ابتدائها وانتهائها خلاف.

القول الأول: أنها تبتدأ من الظهر یوم النحر إلی ما بعد الصبح من آخر أیام التشریق فتکون التکبیرات علی هذا القول فی خمس عشرة صلاة، وهو قول ابن عباس وابن عمر، وبه قال مالک والشافعی رضی الله عنهما فی أحد أقواله، والحجة فیه أن الأمر بهذه التکبیرات إنما ورد فی حق الحاج، قال تعالی: فَاذْکُرُوا اللَّهَ کَذِکْرِکُمْ آباءَکُمْ ثم قال: وَاذْکُرُواْ اللّهَ فِی أَیَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِی یَوْمَیْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَیْهِ وهذا إنما یحصل فی حق الحاج، فدل علی أن الأمر بهذه التکبیرات إنما ورد فی حق الحاج وسائر الناس تبع لهم فی ذلک، ثم إن صلاة الظهر هی أول صلاة یکبر الحاج فیها بمنی، فإنهم یلبون قبل ذلک، وآخر صلاة یصلونها بمنی هی صلاة الصبح من آخر أیام التشریق، فوجب أن تکون هذه التکبیرات فی حق غیر الحاج مقید بهذا الزمان.

القول الثانی: للشافعی رضی الله عنه أنه یبتدأ به من صلاة المغرب لیلة النحر، إلی صلاة الصبح من آخر أیام التشریق، وعلی هذا القول تکون التکبیرات بعد ثمانی عشرة صلاة.

والقول الثالث: للشافعی رضی الله عنه أن یبتدأ بها من صلاة الفجر یوم عرفة، وینقطع بعد صلاة العصر من یوم النحر، فتکون التکبیرات بعد ثمان صلوات، وهو قول علقمة والأسود والنخعی وأبی حنیفة.

والقول الرابع: أنه یبتدأ بها من صلاة الفجر یوم عرفة، وینقطع بعد صلاة العصر من یوم النحر من آخر أیام التشریق، فتکون التکبیرات بعد ثلاث وعشرین صلاة، وهو قول أکابر الصحابة، کعلی وعمر وابن مسعود وابن عباس، ومن الفقهاء قول الثوری وأبی یوسف ومحمد وأحمد وإسحاق والمزنی وابن شریح، وعلیه عمل الناس بالبلدان، ویدل علیه وجوه:

الأول: ما روی جابر أن النبی (ص) صلی الصبح یوم عرفة، ثم أقبل علینا فقال: الله أکبر، ومد التکبیر إلی العصر من آخر أیام التشریق.

والثانی: أن الذی قاله أبو حنیفة أخذ بالأقل، وهذا القول أخذ بالأکثر، والتکثیر فی التکبیر أولی لقوله تعالی: اذْکُرُوا اللَّهَ ذِکْراً کَثِیراً .(۲)

الثالث: أن هذا هو الأحوط، لأنه لو زاد فی التکبیرات فهو خیر من أن ینقص منها.

والرابع: أن هذه التکبیرات تنسب إلی أیام التشریق، فوجب أن یؤتی بها إلی آخر أیام التشریق.

۱- آلاء الرحمن فی تفسیر القرآن: الآیة.

۲- الأحزاب: ۴۱.

ص: ۱۱۰

فإن قيل: هذه التكبيرات مضافة إلى الأيام المعدودات وهى أيام التشريق، فوجب أن لا تكون مشروعة يوم عرفة.

قلنا والقول للرازى-: فهذا يقتضى أن لا يكبر يوم النحر وهو باطل بالإجماع، وأيضاً لما كان الأغلب فى هذه المدة أيام التشريق؛ صح أن يضاف التكبير إليها.

الموضع الثانى: قال الشافعى رضى الله عنه: المستحب فى التكبيرات أن تكون ثلاثاً نسقاً أى متتابعاً، وهو قول مالك، وقال أبوحنيفة وأحمد: يكبر مرتين، حجة الشافعى ما روى عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن عمرو بن حزم، قال: رأيت الأئمة يكبرون فى أيام التشريق بعد الصلاة ثلاثاً، ولأنه زيادة فى التكبير، فكان أولى لقوله تعالى: اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً

ثم قال الشافعى رضى الله عنه: ويقول بعد الثلاث: «لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد» ثم قال: وما زاد من ذكر الله فهو حسن، وقال فى التلبية: وأحب أن لا يزيد على تلبية رسول الله (ص)، والفرق أن من سنة التلبية التكرار فتكرارها أولى من ضم الزيادة إليها، وههنا يكبر مرة واحدة فتكون الزيادة أولى من السكوت، وأما التكبير على الجمار فقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يكبر مع كل حصاة، فينبغى أن يفعل ذلك (۱).

وأما ابن عطية (۵۴۶ ه)، فيقول ذاكراً أقوال آخرين:

وجعل الله الأيام المعدودات أيام ذكر الله، وقد قال النبى (ص): «هى أيام أكل وشرب وذكر الله». ومن جملة الذكر التكبير فى إثر الصلوات، واختلف فى طرفى مدة التكبير: فقال عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وابن عباس: يكبر من صلاة الصبح من يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال ابن مسعود وأبو حنيفة: يكبر من غداة عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر.

وقال يحيى بن سعيد: يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الظهر من آخر يوم التشريق.

وقال مالك: يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وبه قال الشافعى. وقال ابن شهاب: يكبر من الظهر يوم النحر إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال سعيد بن جبير: يكبر من الظهر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال الحسن بن أبى الحسن: يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الظهر يوم النفر الأول.

وقال أبو وائل: يكبر من صلاة الظهر يوم عرفة إلى صلاة الظهر يوم النحر.

ومشهور مذهب مالك أنه يكبر إثر كل صلاة ثلاث تكبيرات، وفى المذهب رواية أنه يقال بعد التكبيرات الثلاث: لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد. (۲)

ويقول الآلوسى (۱۲۷۰ ه):

(وَاذْكُرُواْ اللهَ) أى كبروه إدبار الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها. (۳)

المقطع الثانى: أيام معدودات

هناك اهتمام أكيد من الدين الإسلامى الحنيف ببعض الأيام، وأفردها عن غيرها بخصائص معينة، تميزها عن غيرها من الأيام، فالأيام المعلومات هى العشر الأولى من شهر ذى الحجة، وفيها يوم التروية ويوم عرفة واليوم الأول من عيد الأضحى ويسمى يوم النحر.

۱- التفسير الكبير للرازى: الآية.

۲- المحرر المعانى: الآية.

۳- روح المعانى: الآية.

ص: ۱۱۱

ومن هـذه الأيام التى لها أحكام خاصـة بها، أيام التشـريق، وتسـمى أيام منى، وهى فى الآيـة: أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ. فالـذى حددته الروايات وجـاءت على ضوئه أقوال المفسـرين فى المراد من أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ هى: الأيام الثلاثـة التى تلى يوم العيـد، وتسـمى أيام التشـريق وهى اليوم الحادى عشـر، واليوم الثانى عشـر، واليوم الثالث عشـر. فاليوم العاشـر وهو أول أيام عيد الأضـحى لا يعد من أيام التشـريق المرادة بالآية الكريمة: أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ. ومع هذا فقد وقع اختلاف بينهم حول عددها هل هى ثلاثة أيام، أو هى يومان؟

ونبدأ ببيان معنى التشريق، فقد قال فى لسان العرب:

تشريق اللحم. تقطيعه وتقديده وبسطه، ومنه سميت أيام التشريق.

وقيل: سميت بذلک؛ لأنهم كانوا يقولون فى الجاهلية أشرق ثبير كيما نغير؛ الإغارة: الدفع.

وقال ابن الأعرابى: سميت بذلک لأن الهدى والضحايا لا تنحر حتى تشرق أى تطلع.

وقال أبو عبيد: فيه قولان: يقال: سميت بذلک لأنهم كانوا يشرقون فيها لحوم الأضاحى، وقيل: بل سميت بذلک لأنها كلها أيام تشريق لصلاة يوم النحر، يقول: فصارت هذه الأيام تبعاً ليوم النحر.

قال: وهذا أعجب القولين إلىَّ. قال: وكان أبو حنيفة يذهب بالتشريق إلى التكبير، ولم يذهب إليه غيره.

وقيل: المُشـرّق: مصـلى العيد بمكة. وقيل: مصلى العيد ولم يقيد بمكة ولا غيرها. والتشريق: صلاة العيد وإنما أخذ من شروق الشمس؛ لأن ذلک وقتها وفى الحديث: «لا ذبح إلا بعد التشريق» أى بعد الصلاة.

الحافظ ابن حجر: وسميت أيام التشريق؛ لأن لحوم الأضاحى تشرق فيها أى تنشر عند الشمس، وقيل: التشريق التكبير دبر كل صلاة.

وقيل: لشروق القمر فيها طول الليل، وهو واحد من أربعة أقوال ذكرها صاحب كنز العرفان فى فقه القرآن للسيورى. (۱)

عدد أيام التشريق وأسماؤها

ذاک فى معنى التشريق، وأما عن عددها، فإن أيام التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر؛ لأن لحم الأضاحى يشرق فيها للشمس.

وقال النووى: وأيام التشريق هى الثلاثة التى بعد النحر. ويقال لها: أيام منى؛ لأن الحجاج يقيمون فيها بمنى.

وفى عـددها كما قلنا وقع اختلاف، فقـد قال الحافظ ابن حجر: وقـد اختلف فى كونها يومين أو ثلاثـة. وهى ثلاثـة أيام بعد يوم النحر، وهذا قول ابن عمر وأكثر العلماء، وأفضـلها أولها وهو يوم القر؛ لأن أهل منى يستقرون فيه، ولا يجوز فيه النفر، وهى الأيام المعدودات وأيام منى.

القر والنفر

القر، لغـةً: من قر بفتـح القاف وتشديـد الراء وفتحها، قر بالمكان قراً، وقراراً، بفتح القاف، وقروراً بضم القاف والراء: أقام، تقول: قررت فى هذا المكان طويلًا، وقر: سكن واطمأن.

النفر، لغـةً: من نفر، نفراً ونفوراً: هجر وطنه وضـرب فى الأـرض، وفى التنزيـل العزيز: فَلَوْ لاـ نَفَرَ مِنْ كُـلِّ فِرْقَـةٍ مِنْهُمْ طائِفَـةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الـدِّينِ. وَ مـا كـانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً. ونفر من المكان: تركه إلى غيره، يقال: نفر الحاج من منى: دفعوا إلى مكـة، ونفر الناس إلى العدو: أسرعوا فى الخروج لقتاله، وفى التنزيل العزيز: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا. (۲)

۱- كنز العرفان ۳۱۹: ۱.

۲- انظر المعجم الوسيط: نفر. قر.

ص: ۱۱۲

هـذا وأن اليوم (الأول) منهـا يقال له: يوم القر- بفتـح القاف- لأن الحجاج يقرون فيه بمنى. و (الثانى) يوم النفر الأول؛ لأنه يجوز النفر فيه لمن تعجـل. و (الثالث) يوم النفر الثانى. وسـميت أيام التشـريق؛ لأن الحجاج يشـرقون فيها لحوم الأضاحى والهـدايا. أى: يشترونها، ويقددونها وأيام التشريق هى الأيام المعدودات ..

وقد ذكر ابن كثير فى سيرته كلاماً شبيهاً بهذا، حيث قال: أول أيام التشـريق يسمى يوم القر؛ لأنهم يقرون فيه، ويقال له: يوم الرؤوس؛ لأنهم يأكلون فيه رؤوس الأضاحى، وهو أول أيام التشـريق، وثانى أيام التشريق يقال له: يوم النفر الأول لجواز النفر فيه، وقيل: هو اليوم الذى يقال له: يوم الرؤوس، واليوم الثالث من أيام التشريق يقال له: يوم النفر الآخر.

وهذه الأيام هى أيام التشريق وهى الحادى عشر ويسمى يوم القر، والثانى عشر ويسمى يوم الصدر، والثالث ويسمى يوم النفر، وسميت أيام التشريق ...

وقد ورد عن أيام التشـريق هذه: عن عقبة بن عامر عن النبى (ص) قال: «يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشـريق عيدنا أهل الإسـلام، وهى أيام أكل وشرب.» (۱)

وفى مفاتيح الغيب يقول الرازى (۶۰۶ ه):

المسألـة الأولى: إن الله تعـالى ذكر فى مناسك الحـج الأيام المعـدودات، والأيام المعلومات فقال هنا: وَاذْكُرُواْ اللهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْـدُودَاتٍ وقال فى سورة الحـج: لِيَشْـهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ (۲) فمذهب الشافعى رضـى الله عنه أن المعلومات هى العشـر الأول مـن ذى الحجـة آخرهـا يـوم النحر، وأمـا المعـدودات فثلاثـة أيـام بعـد يـوم النحر، وهى أيـام التشـريق، واحتـج على أن المعـدودات هى أيـام التشـريق بـأنه تعـالى ذكر الأيام المعـدودات، والأيام لفظ جمع فيكون أقلها ثلاثـة، ثم قال بعـده: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وهـذا يقتضـى أن يكون المراد فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ من هذه الأيام المعدودات، وأجمعت الأمة على أن هذا الحكم إنما ثبت فى أيام منى وهى أيام التشريق، فعلمنا أن الأيام المعدودات هى أيام التشريق،

والقفال أكد هذا بما روى فى «تفسيره» عن عبد الرحمن بن نعمان الديلمى، أن رسول الله (ص) أمر منادياً فنادى: «الحج عرفة من جاء ليلـة جمع قبل طلوع الفجر فقـد أدرك الحـج، وأيام منى ثلاثـة أيام فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه» وهـذا يدل على أن الأيام المعدودات هى أيام التشريق.

قال الواحـدى رحمـة الله عليه: أيام التشـريق هى ثلاثـة أيام بعد يوم النحر أولها: يوم النفر، وهو اليوم الحادى عشـر من ذى الحجة ينفر الناس فيه بمنى والثانى: يوم النفر الأول لأن بعض الناس ينفرون فى هـذا اليوم من منى والثالـث: يوم النفر الثانى، وهذه الأيام الثلاثة مع يوم النحر كلها أيام النحر، وأيام رمى الجمار فى هذه الأيام الأربعة مع يوم عرفة أيام التكبير إدبار الصلوات ...

يقول الشـيخ الطبرسـى صاحب مجمع البيان: وَاذْكُرُواْ اللهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْـدُودَاتٍ هـذا أمر من الله للمكلفين أن يـذكروه فى أيام معـدودات وهى أيام التشـريق ثلاثة أيام بعد النحر، والأيام المعلومات عشـر ذى الحجة عن ابن عباس والحسن وأكثر أهل العلم، وهو المروى عن أئمتنا. وذكر الفراء أن المعلومات أيام التشريق والمعدودات العشر.

والشـيخ البلاغى فى تفسـيره للأيام فى الآيـة: وَاذْكُرُواْ اللهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ يقول: الأيام المذكورة فى الآية هى أيام التشـريق كما فى صحيحى الكافى عن محمد بن مسـلم ومنصور بن حازم وصـحيحة التهذيب عن حماد بن عيسى عن الصادق (ع) كصحيحتى الوسائل عن قرب الإسناد عن حماد عنه (ع) ونحوهما روايات العياشى ورواية الدر المنثور عن ابن عباس وابن الزبير.

۱- رواه أصحاب السنن. انظر التاج الجامع للأصول ۲: كتاب الصوم: ۸۵.

۲- الحج: ۲۸.

ص: ١١٣

ويقول العلامة الطباطبائى فى تفسيره الميزان: الأيام المعدودات هى أيام التشريق وهى اليوم الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة، والدليل على أن هذه الأيام بعد العشرة من ذى الحجة ذكر الحكم بعد الفراغ عن ذكر أعمال الحج وعن دليله فيقول: والدليل على كونها ثلاثة أيام قوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ ... فإن التعجل فى يومين إنما يكون إذا كانت الأيام ثلاثة: يوم ينفر فيه، ويومان يتعجل فيهما فهى ثلاثة، وقد فسرت فى الروايات بذلك أيضاً.

ثم راح السيد العلامة يذكر ما يؤيد قوله من الروايات، ومتن الرواية فيه المراد من الذكر أيضاً، ونحن ننقلها كما هى فى هذا المقطع:

ففى الكافى عن الصادق (ع) فى قوله تعالى: وَاذْكُرُواْ اللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ الآية، قال: وهى أيام التشريق، وكانوا إذا أقاموا بمنى بعد النحر تفاخروا فقال الرجل منهم: كان أبى يفعل كذا وكذا، فقال الله جلَّ شأنه: فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرا، قال: والتكبير: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام.

وفيه عنه (ع) قال: والتكبير فى أيام التشريق من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الفجر من اليوم الثالث، وفى الأمصار يكبر عقيب عشر صلوات.

ابن عطية (٥۴۶ ه) يقول: وأمر الله تعالى عباده بذكره فى الأيام المعدودات، وهى الثلاثة التى بعد يوم النحر، وهى أيام التشريق، وليس يوم النحر من المعدودات، ودل على ذلك إجماع الناس على أنه لا ينفر أحد يوم القر، وهو ثانى يوم النحر، فإن يوم النحر من المعلومات، ولو كان يوم النحر فى المعدودات لساغ أن ينفر من ينفر من شاء متعجلًا يوم القر، لأنه قد أخذ يومين من المعدودات، وحكى مكى والمهدوى عن ابن عباس أنه قال: «المعدودات هى أيام العشر»، وهذا إما أن يكون من تصحيف النسخة، وإما أن يريد العشر الذى بعد يوم النحر، وفى ذلك بُعد، والأيام المعلومات هى يوم النحر ويومان بعده؛ لإجماعهم على أنه لا ينحر أحد فى اليوم الثالث، والذكر فى المعلومات إنما هو على ما رزق الله من بهيمة الأنعام. وقال ابن زيد: «المعلومات عشر ذى الحجة وأيام التشريق»، وفى هذا القول بُعد. (١)

إذن الأيام المعدودات هى: أيام التشريق، قال ابن رجب: وأما الأيام المعدودات فالجمهور على أنها أيام التشريق، وروى عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما، واستدل ابن عمر بقوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وإنما يكون التعجيل فى أيام التشريق. قال الإمام أحمد: ما أحسن ما قال ابن عمر. والأيام المعلومات هى: أيام عشر ذى الحجة.

هذا وأن الفيروز آبادى (٨١٧ ه) فى تفسيرالقرآن، يذهب إلى أنها خمسة أيام، فيقول:

وَذْكُرُواْ للهَ بالتكبير والتهليل والتمجيد فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ معلومات أيام التشريق وهى خمسة أيام يوم عرفة ويوم النحر وثلاثة أيام بعدهما .. انتهى قول الفيروزآبادى.

وأخيراً يمكن القول بعد استقراء ما ذكرناه وما لم نذكره خوف الإطالة: إن الذى يمنع جعل يوم النحر، وهو اليوم العاشر من ذى الحجة كما يبدو والله العالم من فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ أى من أيام منى، هو ليس له ما يؤيده لا فى القرآن ولا فى السنة؛ لأن يوم النحر كانت بدايته الوقوف بالمشعر الحرام "المزدلفة "ثم تبدأ الإفاضة من المشعر الحرام إلى منى، وهو عندئذ يوم الإفاضة، وبعده جاءت الآية: وَاذْكُرُواْ اللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ هذا أولًا.

وثانياً: الذى يمنع هو ما ورد عن النبى (ص "):أيامُ منى ثلاثة فمن تعجَّل فى يومين فلا إثْم عليه."

١- تفسير المحرر الوجيز: الآية.

ص: ۱۱۴

فإذا جعلنا يوم النحر الذی هو العاشر من ذی الحجهٔ واحداً من الثلاثهٔ الواردهٔ فی الحديث، فيجوز حينئذ النفر فی اليوم الحادی عشر من ذی الحجهٔ وهو اليوم الثانی للعيد، وهو يوافق اليوم الأول من أيام منی الثلاثهٔ الواردهٔ فی الحديث، وهو أمر لا خلاف فی عدم جوازه.

هـذا إضافهًٔ إلی الأخبار والأقوال التی تحـدّد أن أَيَّامٍ مَّعْلوماتٍ هی الأيام العشـرالأولی من ذی الحجـهٔ، و أَيَّامٍ مَّعْـدُودَاتٍ هی أيام منی والتی تسميها الروايات أيام التشريق، والتی هی اليوم الحادی عشر والثانی عشر والثالث عشر من ذی الحجهٔ.

المقطع الثالث: (فَمَن تَعَجَّلَ فِی يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَی):

المراد بالتعجل هنا: انصـرا ف الحاج من منی فی اليوم الثانی من أيام التشـريق وهو اليوم الثانی عشـر من ذی الحجـهٔ، وذلك بعـد رميه جمار ذلك اليوم.

وتعجـل لغـهًٔ: عجـل: عجلًـا، وعجلـهًٔ: أسـرع، وفی التنزيـل العزيز: عَجِلْتُ إِلَيْـكَ رَبِّ لِتَرْضـی (۱) والعجلهٔ: السـرعهٔ، الإسـراع فی شـیء والمبادرهٔ .. ومنه تعجل: وتعجل فلاناً: حثه. وتعجل الشـیء: أخذه بسـرعهٔ .. وتعجل: يجوز أن يكون بمعنی اسـتعجل، وهو يأتی بمعنی تفعل واستفعل .. كتكبر واستكبر .. وتيقن واستيقن، وتقضی واستقضی، وتعجل واستعجل .. وتعجل يأتی لازماً ومتعدياً، تقول: تعجلت فی الشـیء وتعجلته، واسـتعجلت فی الشـیء واسـتعجلت زيداً، وبمعنی الفعل المجرّد فيكون بمعنی: عجل، كقولهم: تلبث بمعنی لبث، وتعجب وعجب، وتبرّ أو بریء، وهو أحد المعانی التی جاء لها تفعل. (۲)

وجاء فی مجمع البيان للشيخ الطبرسی: المعنی فی ذلك الرخصهٔ فی جواز النفر فی اليوم الثانی من أيام التشريق، والأفضل أن يقيم إلی النفر الأـخير وهـو الثـالث من التشـريق، وإذا نفر فی الأـول نفر بعـد الزوال إلی غروب الشـمس فـإن غربت فليس له أن ينفر إلی اليـوم الثالث.

وقوله: فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ فيه قولـان- أحـدهما:- أن معنـاه لاـ إثم عليه لأـن سـيئاته صـارت مكفرهٔ بمـا كان من حجّه المبرور، وهو قول ابن مسـعود- والثـانی:- أن معناه لا إثم عليه فی التعجيل والتأخير وإنما نفی الإثم لئلا يتَوهم متوهمٌ أن فی التعجيل إثماً، وإنما قال عليه فی التـأخير علی جهـهٔ المزاوجـهٔ كمـا يقـال: إن أعلنت الصدقـهٔ فحسن وإن أسـررتَ فحسن وإن كان الإسـرار أحسن وأفضل عن الحسن، وقوله: لِمَنِ اتَّقی فيه قولان- أحدهما:- أن الحج يقع مبروراً مُكَفِرّاً للسـيئات إذا اتقی ما نهی الله عنه والآخر: ما رواه أصـحابنا أن قوله: لِمَنِ اتَّقی، متعلق بالتعجيـل فی اليومين، وتقـديره فمن تعجـل فی يومين فلا إثم عليه لمن اتقی الصـيد إلی انقضاء النفر الأخير وما بقی من إحرامه، ومن لم يتقها فلا يجوز النفر فی الأول، وهو المروی عن ابن عباس واختاره الفراء.

وقـد روی أيضاً عن أبی عبـد الله فی قوله: فَمَن تَعَجَّلَ فِی يَوْمَيْنِ أی من مات فی هـذين اليومين فقـد كُفِّرَ عنه كل ذنب ومن تأخر أی من أجله فلا إثم عليه إذا اتقی الكبائر.

وقوله: وَاتَّقُوا الله أی اجتنبوا معاصـی الله اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أی تحققوا أنكم بعد موتكم تجمعون إلی الموضع الذی يحكم الله فيه بينكم ويجازيكم علی أعمالكم.

وعن هذا المقطع يقول البلاغی:

فَمَن تَعَجَّلَ فِی ضـمن يَوْمَيْنِ من تعجـل الـدين أی تعجـل مقـامه بمنی فی ضـمن يومين بتعجـل غـايته فنفر النفر الأول. ولو كان بمنی استعجل وعجل، أو للمطاوعهٔ كما فی الكشاف، لدلت الآيهٔ علی جواز النفر فی اليوم الأول منها أيضاً، وهو

۱- سورهٔ طه: ۸۴.

۲- انظر الدر المصون فی علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبی: الآيهٔ. ولسان العرب، والمعجم الوسيط

ص: ۱۱۵

باطل بإجماع المسلمين. ولأجل جعل التعجل فى ضمن يومين اشترط أصحابنا وفقهاء أهل السنة، إلا أبا حنيفة وأصحابه، كونه قبل الغروب من اليوم الثانى، فلو أمسى حرم عليه النفر الأول.

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لهذه الجملة ظاهر لا حاجة إلى بيانه؛ لأن فى رواية الكافى عن إسماعيل بن نجيح رد عليه؛ ولأن الأحاديث عن الفريقين جاءت على خلافه وهو أن المراد غفرت ذنوبه. منها صحيحة الحلبى فى قوله تعالى: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ وصحيحة عبد الأعلى ورواية ابن عيينة ورواية ابن نجيح ورواية العياشى عن معاوية ابن عمار وعن ابن عباس فى إحدى الروايتين، فيكون حاصل المراد من الآية الكريمة: فمن أتم حجه بالتعجل أو التأخر غفرت ذنوبه، فإنه لا أثر لخصوص عنوانى التعجل والتأخر فى غفران الذنوب.

ومن هذا الوجه وكون التعجل إتماماً للحج يعرف جوازه وأنه لِمَنِ اتَّقى النساء والصيد كما هو المشهور بين الإمامية، باعتبار الاختصاص بالأمرين المذكورين والمجمع عليه باعتبار الدخول فى كل ما يحرم على المحرم كما عن ابن سعيد، أو ما يوجب عليه الكفارة كما عن ابن إدريس وأبى المجد كما ورد فى خصوص النساء والصيد صحيحة حماد بن عثمان وروايته الأخرى كما فى التهذيب وصحيحة جميل ومعتبرة ابن المستنير عن الصادق (ع) وبه جاءت إحدى روايات الدر المنثور عن ابن عباس، والمراد اتقاء المحرم وما يحرم عليه فى حجه مما يكون بين النساء والرجال سواء كان رجلًا أو امرأة.

وهناك روايات أخرى من الفريقين لم يأخذ بمضمونها الإمامية. وعلى ذلك إجماعهم، مضافاً إلى أن قوله تعالى: لِمَنِ اتَّقى لا يستقيم تفسيره بالتقوى المطلقة بعمومها؛ لأن حصولها إلى حين النفر لا يتفق إلا للمعصوم، فلا يبقى موقعاً للامتنان بغفران الذنوب إذا كان ذلك قيداً له، وكذا لا يبقى مورد للتخفيف على سائر الناس كما يعرف من روايات الفريقين بأجمعها إذا كان قيداً لجواز النفر كما لا يستقيم تفسيره بمطلق حصول التقوى ومصداقها فى الماضى، إذ لا فائدة على ذلك فى هذا القيد، فإن كل من له حج قد حصل منه مصداق للتقوى، فلا بد من أن يراد بذلك تقوى خاصة وهو ما بينته الروايات المتقدمة، وبالنظر إلى هذا الذى ذكرناه يسقط كثير من الأحاديث. (۱)

ويقول الرازى عن هذا المقطع:

أما قوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ففيه سؤالات:

السؤال الأول: لم قال فمن تعجل ولم يقل فمن عجل؟.

الجواب: قال صاحب «الكشاف»: تعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عجل، يقال: تعجل فى الأمر واستعجل، ومتعديين يقال: تعجل الذهاب واستعجله.

السؤال الثانى: قوله: وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ فيه إشكال، وذلك لأنه إذا كان قد استوفى كل ما يلزمه فى تمام الحج، فما معنى قوله: فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ فإن هذا اللفظ إنما يقال فى حق المقصّر ولا يقال فى حق من أتى بتمام العمل.

والجواب من وجوه:

أحدها: أنه تعالى لما أذن فى التعجل على سبيل الرخصة احتمل أن يخطر ببال قوم أن من لم يجر على موجب هذه الرخصة فإنه يأثم، ألا ترى أن أبا حنيفة رضى الله عنه يقول: القصرعزيمة، والإتمام غير جائز، فلما كان هذا الإحتمال قائماً، لا جرم أزال الله تعالى هذه الشبهة وبين أنه لا إثم فى الأمرين، فإن شاء استعجل وجرى على موجب الرخصة، وإن شاء لم يستعجل ولم يجر على موجب الرخصة، ولا إثم عليه فى الأمرين جميعاً.

۱- آلاء الرحمن فى تفسير القرآن: الآية.

ص: ۱۱۶

وثانيها: قال بعض المفسرين: إن منهم من كان يتعجل، ومنهم من كان يتأخر، ثم كل واحد من الفريقين يعيب على الآخر فعله، كان المتأخر يرى أن التعجل مخالفة لسنّة الحج، وكان المتعجل يرى أن التأخر مخالفة لسنّة الحج، فبين الله تعالى أنه لا عيب فى واحد من القسمين ولا إثم، فإن شاء تعجل وإن شاء لم يتعجل.

وثالثها: أن المعنى فى إزالة الإثم عن المتأخر إنما هو لمن زاد على مقام الثلاث، فكأنه قيل: إن أيام منى التى ينبغى المقام بها هى ثلاث، فمن نقص عنها فتعجل فى اليوم الثانى منها فلا إثم عليه، ومن زاد عليها فتأخر عن الثالث إلى الرابع فلم ينفر مع عامة الناس فلا شيء عليه.

ورابعها: أن هذا الكلام إنما ذكر مبالغة فى بيان أن الحج سبب لزوال الذنوب وتكفير الآثام، وهذا مثل أن الإنسان إذا تناول الترياق، فالطبيب يقول له: الآن إن تناولت السم فلا ضرر، وإن لم تتناول فلا ضرر، مقصوده من هذا بيان أن الترياق دواء كامل فى دفع المضار، لا بيان أن تناول السم وعدم تناوله يجريان مجرى واحد، فكذا ههنا المقصود من هذا الكلام بيان المبالغة فى كون الحج مكفراً لكل الذنوب، لا بيان أن التعجل وتركه سيان، ومما يدل على كون الحج سبباً قوياً فى تكفير الذنوب قوله عليه الصلاة والسلام: «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وخامسها: أن كثيراً من العلماء قالوا: الجوار مكروه، لأنه إذا جاور الحرم والبيت سقط وقعه عن عينه، وإذا كان غائباً إزداد شوقه إليه، وإذا كان كذلك احتمل أن يخطر ببال أحدنا على هذا المعنى أن من تعجل فى يومين فحاله أفضل ممن لم يتعجل، وأيضاً من تعجل فى يومين فقد انصرف إلى مكة لطواف الزيارة وترك المقام بمنى، ومن لم يتعجل فقد اختار المقام بمنى وترك الإستعجال فى الطواف فهذا السبب يبقى فى الخاطر تردد فى أن المتعجل أفضل أم المتأخر؟ فبين الله تعالى أنه لا إثم ولا حرج فى واحد منهما.

وسادسها: قال الواحدى رحمه الله تعالى: إنما قال: وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لتكون اللفظة الأولى موافقة للثانية، كقوله: وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها (۱)وقوله: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ (۲) ونحن نعلم أن جزاء السيئة والعدوان ليس بسيئة ولا بعدوان، فإذا حمل على موافقة اللفظ ما لا يصح فى المعنى، فلأن يحمل على موافقة اللفظ ما يصح فى المعنى أولى، لأن المبرور المأجور يصح فى المعنى نفى الإثم عنه.

السؤال الثالث: هل فى الآية دلالة على وجوب الإقامة بمنى بعد الإفاضة من المزدلفة؟

الجواب: نعم، كما كان فى قوله: فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ (۳) دليل على وقوفهم بها.

ثم يواصل الرازى كلامه قائلًا: واعلم أن الفقهاء قالوا: إنما يجوز التعجل فى اليومين لمن تعجل قبل غروب الشمس من اليومين، فأما إذا غابت الشمس من اليوم الثانى قبل النفر فليس له أن ينفر إلا فى اليوم الثالث؛ لأن الشمس إذا غابت فقد ذهب اليوم، وإنما جعل له التعجل فى اليومين لا فى الثالث، هذا مذهب الشافعى، وقول كثير من فقهاء التابعين، وقال أبو حنيفة رضى الله عنه: يجوز له أن ينفر ما لم يطلع الفجر لأنه لم يدخل وقت الرمى بعد.

وفى قوله تعالى: لِمَنِ اتَّقى يقول الرازى: ففيه وجوه:

أحدها: أن الحاج يرجع مغفوراً له بشرط أن يتقى الله فيما بقى من عمره ولم يرتكب ما يستوجب به العذاب، ومعناه التحذير من الاتكال على ما سلف من أعمال الحج، فبيّن تعالى أن عليهم مع ذلك ملازمة التقوى ومجانبة الاغترار بالحج السابق.

وثانيها: أن هذه المغفرة إنما تحصل لمن كان متقياً قبل حجه، كما قال تعالى: إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (۴)، وحقيقته أن المصرّ على الذنب لا ينفعه حجه وإن كان قد أدى الفرض فى الظاهر.

۱– الشورى: ۴۰.

۲– البقرة: ۱۹۴.

۳– البقرة: ۱۹۸.

۴– المائدة: ۲۷.

ص: ۱۱۷

وثالثها: أن هذه المغفرة إنما تحصل لمن كان متقياً عن جميع المحظورات حال اشتغاله بالحج، كما روى فى الخبر من قوله عليه الصلاة والسلام: «من حج فلم يرفث ولم يفسق ...».

واعلم أن الوجه الأول من هذه الوجوه التى ذكرناها إشارة إلى اعتباره فى الحال. والتحقيق أنه لا بد من الكل وقال بعض المفسرين المراد بقوله: لِمَن اتَّقى ما يلزمه التوقى فى الحج عنه من قتل الصيد وغيره، لأنه إذا لم يجتنب ذلك صار مأثوماً، وربما صار عمله محبطاً، وهذا ضعيف من وجهين:

الأول: أنه تقييد للفظ المطلق بغير دليل.

الثانى: أن هذا لا يصح إلا إذا حمل على ما قبل هذه الأيام، لأنه فى يوم النحر إذا رمى وطاف وحلق، فقد تحلّل قبل رمى الجمار، فلا يلزمه اتقاء الصيد إلا فى الحرم، لكن ذاك ليس للإحرام، لكن اللفظ مشعر بأن هذا الاتقاء معتبر فى هذه الأيام، فسقط هذا الوجه.

ويقول الفيروز آبادى (۸۱۷ ه):

فَمَن تَعَجَّلَ برجوعه إلى أهله فِى يَوْمَيْنِ بعد يوم النحر فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ بتعجيله وَمَن تَأَخَّرَ إلى اليوم الثالث فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ بتأخيره ويقال فلا عتب عليه بتأخيره يخرج مغفوراً له لِمَنِ تَّقَى يقول: التعجيل لمن اتقى الصيد إلى اليوم الثالث وَتَّقُواْ للهَ واخشوا الله فى أخذ الصيد إلى اليوم الثالث وَعْلَمُواْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ بعد الموت. (۱)

هذا ويقول محمد بن أبى بكر الرازى فى مسائله:

كيف قال: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ومعلوم أن المتعجل التارك بعض الرمى إذا لم يكن عليه إثم لا يكون على المتأخر الآتى بالرمى كاملًا؟

يقول الرازى فى إجابته عن هذا السؤال الذى طرحه:

كان أهل الجاهلية فريقين: منهم من جعل المتعجل آثماً، ومنهم من جعل المتأخر آثماً، فأخبر الله تعالى بنفى الإثم عنهما جميعاً، أو معناه لا إثم على المتأخر فى تركه الأخذ بالرخصة مع أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، أو معناه أن انتفاء الإثم عنهما موقوف على التقوى لا على مجرد الرخصة فى الرمى، ثم قيل: المراد به تقوى المعاصى فى الحج، وقيل: تقوى المعاصى بعد الحج فى بقية العمر بالوفاء بما عاهد الله تعالى عليه بعرفة وغيرها من مواقف الحج من التوبة والإنابة ...

ابن عطية: وقوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، قال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد: المعنى من نفر فى اليوم الثانى من الأيام المعدودات فلا حرج عليه، ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج عليه، فمعنى الآية: كل ذلك مباح، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماماً وتأكيداً إذ كان من العرب من يذم المتعجل وبالعكس، فنزلت الآية رافعة للجناح فى كل ذلك، ومن العلماء من رأى أن التعجل إنما أبيح لمن بَعُدَ قطره لا للمكى والقريب، إلا أن يكون له عذر، قاله مالك وغيره، ومنهم من رأى أن الناس كلهم مباح لهم ذلك، قاله عطاء وغيره.

وقال على بن أبى طالب وابن مسعود وإبراهيم: معنى الآية من تعجل فقد غفر له ومن تأخر فقد غفر له، واحتجوا بقوله (ع): «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من خطاياه كيوم ولدته أمه»، فقوله تعالى: فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ نفى عام وتبرئة مطلقة، وقال مجاهد أيضاً: معنى الآية من تعجل أو تأخر فلا إثم عليه إلى العام القابل، وأسند فى هذا القول أثر.

وقال أبو العالية: المعنى فى الآية لا إثم عليه لمن اتقى بقية عمره، والحاج مغفور له البتة.

۱– تفسير القرآن، الآية.

ص: ١١٨

وقال أبو صالح وغيره: معنى الآيهٔ لا إثم عليه لمن اتقى قتل الصيد وما يجب عليه تجنبه فى الحج، وقال أيضاً: لمن اتقى فى حجه فأتى به تاماً حتى كان مبروراً، واللام فى قوله: لِمَنِ اتَّقى متعلقـهٔ إما بالغفران على بعض التأويلات، أو بارتفاع الإثم فى الحـج على بعضـها، وقيل: بالذكر الذى دل عليه قوله: وَاذْكُرُوا، أى الذكر لمن اتقى، ويسقط رمى الجمرهٔ الثالثهٔ عمن تعجل.

وقال ابن أبى زمنين: يرميها فى يوم النفر الأول حين يريد التعجل.

قال ابن المواز: يرمى المتعجل فى يومين بإحدى وعشرين حصاهٔ، كل جمرهٔ بسبع حصيات، فيصير جميع رميه بتسع وأربعين حصاهٔ.

قال القاضى أبو محمد عبد الحق رضى‌الله عنه: لأنه قد رمى جمرهٔ العقبهٔ بسبع يوم النحر.

قال ابن المواز: ويسقط رمى اليوم الثالث.

وقرأ سالم بن عبد الله: فَلا إثْمَ عَلَيه بوصل الألف، ثم أمر تعالى بالتقوى وذكر بالحشر والوقوف بين يديه.

النفر:

إذن، يستفاد من الآيهٔ المباركهٔ أن هناك نفرين اتفقا فى المكان وهو من منى، واختلفا فى اليوم:

النفر الأول؛ لقوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ: وهو النفر من منى.

وقته: فى اليوم الثانى من أيام التشريق، أى أن الحاج يخرج من منى بعد الزوال وقبل غروب شمس اليوم الثانى عشر من ذى الحجهٔ.

النفر الثانى؛ لقوله تعالى: وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ: وهو النفر من منى.

وقته: فى اليوم الثالث من أيام التشريق، أى أن الحاج يخرج من منى بعد الزوال وقبل غروب شمس اليوم الثالث عشر من ذى الحجهٔ.

يقول الـدكتور الزحيلى: وإذا رمى فى اليوم الثـانى من أيام التشـريق بعـد الزوال، فأراد أن ينفر من منى إلى مكـهٔ، وهو المراد من النفر الأـول، فله ذلـك؛ لقوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ أى بترك الرمى فى اليوم الثالث، والأفضل ألا يتعجل، بل يتأخر إلى آخر أيام التشـريق، وهو اليوم الثالث منها، فيسـتوفى الرمى فى الأيام كلها، ثم ينفر، وهو معنى النفر الثانى فى قوله تعالى: وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ.

ثم نقل هذين القولين لابن عباس وابن مسعود:

قال ابن عباس فى هذه الآيهٔ: فمن تعجل فى يومين غفر له، ومن تأخر غفر له.

وكذا قال ابن مسعود فى قوله تعالى: فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ: رجع مغفوراً له، وذلك مشروط بالتقوى؛ لقوله تعالى: لِمَن اتَّقى.

التعجيل

وعن وقت التعجيل يقول الدكتور وهبهٔ الزحيلى:

ووقت التعجيل عند الجمهور فى ثانى أيام التشريق، وهو النفر الأول، يكون قبل غروب الشمس للآيهٔ السابقهٔ، وحديث عبد الرحمن بن يعمر عند أبى داود وابن ماجه: «أيام منى ثلاثهٔ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه»

ص: ۱۱۹

واليوم: اسم للنهار، فمن أدركه الليل، فما تعجل فى يومين، فإن غربت الشمس وهو بها لم يخرج حتى يرمى من غد بعد الزوال.

وقال أبو حنيفة: للحاج أن ينفر ما لم يطلع الفجر من اليوم الرابع من أيام العيد، فإذا طلع الفجر، لم يكن له أن ينفر لدخول وقت الرمى. (۱)

*** المقطع الرابع: وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون

الحشـر: جمع القوم من كل ناحية، والمحشـر مجتمعهم، يقال منه: حشـر يحشر حشراً .. وقال الراغب: الحشر: ضم المفترق وسوقه، وهو بمعنى الجمع .. وحشـرهم حشـراً: جمعهم وساقهم، ويقال: حشر الله الخلق حشراً: بعثهم من مضاجعهم وساقهم. ومنه اجتماع الخلق يوم القيامة ..

يقول الرازى:

أمـا فى قوله تعالى فيقول: وَاتَّقُوا الله فهو أمر فى المسـتقبل، وهو مخالف لقوله: لِمَنِ اتَّقى الـذى أريـد به الماضـى فليس ذلك بتكرار، وقد علمت أن التقوى عبارة عن فعل الواجبات وترك المحرمات.

ويقـول الرازى: وَاعْلَمُـوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون فهو تأكيـد للأـمر بـالتقوى، وبعث على التشديـد فيه، لأـن من تصور أنه لاـ بـد من حشـر ومحاسـبة ومساءلـة، وأن بعـد الموت لا دار إلا الجنـة أو النار، صار ذلك من أقوى الـدواعى له إلى التقوى، وأما الحشـر فهو اسم يقع على ابتـداء خروجهم من الأجداث إلى انتهاء الموقف، لأنه لا يتم كونهم هناك إلا بجميع هذه الأمور، والمراد بقوله: إليه أنه حيث لا مالك سواه ولا ملجأ إلا إياه، ولا يستطيع أحد دفعاً عن نفسه، كما قال تعالى: يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ (۲)

وعن هـذا المقطع يقول البلاـغى: وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون مقتضـى سوق الآيـة هو أنه لا تتكلوا على غفران ما مضـى من ذنوبكم بسبب الحج، بل اتقوا الله فيما بقى من أعماركم وتحققوا، وليكن على علمكم وذكركم دائماً أنكم إلى الله لا محالة تحشرون فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم؛ فاستعدوا لذلك بالتقوى وتزودوا منها فإنها خير زاد. (۳)

الأحكام

وقد ذكر الفقهاء أحكاماً يؤديها المكلف فى هذه الأيام، ومنها:

ما ذكره السيورى:

۱- الذكر فى هذه الأيام وهو التكبير عقيب خمس عشرة صلاة لمن كان بمنى، وعقيب عشر لمن كان بغيرها، وصورته:

«الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبرالله أكبر ولله الحمـد. الله أكبر على ما هـدانا، والحمـد لله على ما أولانا، والله أكبر على مارزقنا من بهيمة الأنعام».

۲- وجوب الكون بمنى تلك الليالى، ويستحب النهار، وهو لازم عن الأمر بالـذكر فيها، وعن قوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ فيستلزم ثبوت الإثم للمستعجل (لمن تعجل) قبل ذلك.

۳- أن وجوب الكون فى الثلاثة تخييرى بينها وبين اليومين الأولين خاصة، لكن اليوم الثانى عشر له حكمان أحدهما: أنه لا يجوز النفر فيه، إلا بعد الزوال. والثانى: أنه متى غربت الشمس وهو بمنى تحتم عليه المبيت بها الليلة الثالثة؛ لأن

۱- الفقه الإسلامى ۱۹۵: ۳- ۱۹۶.

۲- الانفطار: ۱۹، وانظر: التفسير الكبير، الآية.

۳- آلاء الرحمن فى تفسير القرآن: الآية.

ص: ۱۲۰

التعجيل محله النهار، فإذا مضى ولم يتعجل فلو تعجل فى الليلة الثالثة لزم كون تعجيله ليس فى اليومين، فيكون آثماً وهو المطلوب.

۴- أن ذلـك التخيير ليس مطلقاً بالنسبة إلى كـل حاج، بل هو لمن اتقى. واختلف فيه على قولين، قيل: معناه اتقى الصيد والنساء فى إحرامه. وقيل: اتقى ساير المحرمات فى الإحرام، والأول هو المروى، والفتوى عليه.

۵- أن غير المتقى يتحتم عليه الكون فى الليالى الثلاث، ويكون نفره يوم الثالث عشر، ولا يجوز قبله.

۶- أن من بات الليلـة الثالثـة عشرة، لا ينفر حتى تطلع الشمس ويرمى الجمار، وكذا فى النفر الأول لا ينفر إلا بعد رمى الجمار، ووقته بعد طلوع الشمس أيضاً، وبه قال الشافعى، وقال أبو حنيفة: ينفر قبل طلوع الفجر. قيل: كان فى الجاهلية منهم من تأثم بالتعجيل، ومنهم من تأثم بالتأخير. فجاء القرآن برفع الإثم عنهما معاً. (۱)

والروايـة الأولى هنا تدل على القول الأول هى: عن حماد عن أبى‌جعفر (ع) عن قوله: (لِمَنِ اتَّقى) الصـيد، فإن ابتلى بشـىء من الصـيد ففداه، فليس له أن ينفر فى يومين. (۲)

الروايـة الثانيـة وهى تـدل على القول الثانى: عن سـلام بن المستنير عن أبى جعفر (ع) فى قوله: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى. منهم الصيد واتقى الرفث والفسوق والجدال وما حرم الله عليه فى إحرامه. (۳)

وختاماً، لا بـد من القول: إنه بهـذه الآيـة انتهى الكلام عن أحكام الحـج، التى يرشـد تعالى المؤمنين إذا فرغوا من مناسـكهم بأن رموا جمرة العقبـة ونحروا وطـافوا طـواف الإفاضـة واسـتقروا بمنى، أن يـكثروا مـن ذكر الله تعـالى عنـد رمى الجمرات، وعنـد الخروج من الصـلوات ذكراً مبالغاً فى الكثرة منه على النحو الـذى كانوا فى الجاهليـة يـذكرون فيه مفاخر آبائهم وأحساب أجدادهم وأمجادهم بل أكثر وأعظم .. ثم تـأتى هـذه الآيـة أيضـاً؛ لتحمـل رحمـة الله بعباده، ومن باب التوسـعة عليهم؛ فإن شاء الحاج أقام فى منى أيام الرمى الثلاثـة، وهى الحادى عشـر والثانى عشـر والثالث عشـر من ذى الحجة، وإن شاء تعجل بعد أن يرمى فى اليوم الأول والثانى، ثم يخرج من منى قبـل مغيب شـمس يوم الثـانى عشـر، وأيـام منى ثلاثـة، فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَـأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وكان قوله تعالى: لِمَنِ اتَّقى قيـداً جميلًا، وكـذا المقطع الأخير: وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَـرُون. لأن الإنسان إذا علم أنه سيحشـر إلى الله عزّ وجـلّ، وأنه سـيجازيه فـإنه سوف يتقى الله سـبحانه، ويقوم بما أوجبه عليه، ويترك ما نهاه عنه؛ وبهـذا تعرف الحكمـة من كون الله عزّ وجلّ يقرن كثيراً من الآيات بالإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر وإثبات البعث ...

ليستعد الإنسان لذلك بذكر الله سبحانه وتعالى وبشكره والحرص على طاعته ..

۱- انظر فى هذا كنز العرفان للسيورى ۳۱۹: ۱- ۳۲۰.

۲- تفسير العياشى ۱: تحت الرقم: ۲۸۶.

۳- المصدر نفسه، تحت الرقم: ۲۸۰.

ص: ۱۲۱

ص: ۱۲۲

عمر الأطرف بن الإمام على بن أبى طالب (ع) و رواياته فى الحديث و الآثار

توطئة

أنتجت عقود الإسلام الأولى أحداثاً جساماً، تركت بصماتها الواضحة على مسار الأحداث المتلاحقة والمتسارعة فى العقود التى تتابعت على الأمة، بعد التحاق نبيها محمد (ص) بالرفيق الأعلى.

تحُرِّك هذه الأحداث وتؤثر فى مجرياتها مجموعة من الشخصيات التى عاصرتها وكانت صاحبة القرار فيها، وربما يبرز حدث ما من تلك الحوادث، فيصعّد شخصية إلى مسرح الأحداث لم تكن من الشهرة بمكان سوى الحدث الذى اقترنت به، فتكون مادة يسلّط المؤرخون فيها الضوء على دور هذه الشخصية ومساهماتها، وتترك شخصيات أخر انتهجت الهدوء والإنزواء مسلكاً فى حياتها، أو لم يقيض لها القدر دوراً حتى تؤثر فى مجريات حوادث عصرها ما دامت تمتلك المؤهلات لذلك من النسب الرفيع والعلم والوجاهة، وربما كانت شهرة الشخصيات التى زامنتها قد جعلت من الرواة والمؤرخين يغفلونها أو يقصروا من حيث تسليط الأضواء عليها.

كانت شخصية عمر بن الإمام على بن أبى طالب (ع)، من بين الشخصيات التى لم يوف المؤرخون القدامى- ولا حتى المحدثون من الباحثين- حقها من الدراسة والتحليل، لما تبدو للقارىء لسيرتها لأول وهلة إنها شخصية لاتستحق إفراد دراسة مستقلة لها؛ لأن دورها ليس بمؤثر فى أحداث عصرها، فضلًا عن قلة الأحاديث والروايات المنسوبة لها والمسندة إليها، وذلك قياساً بأقرانه من رجالات عصره ممن هم فى طبقته ونسبه، وكما صوّرت ذلك النصوص والأخبار التى تناقلتها المصادر عنه، والتى توحى للمطلع عليها أنها قد لاتكوّن بمجموعها صورة واضحة عن خلجات هذه الشخصية والظروف التى ساعدت على تنشأتها- وهذا ما أردنا إثبات عكسه- أو أن هذه الشخصية قد تباينت مواقفها من الأحداث التى عاصرتها لدرجة عدم الإسهاب فى ذكر أخبارها، أو أن ما آثرته من حياة الدعة والسكينة طيلة حياتها، قد أخرجتها بذلك عن دائرة الضوء لتكون أشبه بالمتفرجة على مسار الأحداث دون اتخاذ مواقف صارمة وحازمة منها، أو حتى تشكيل حلقات موسعة للدرس والحديث فى المسجد، يجعلها مقصداً لطالبى العلم.

كل ذلك، دفعنى إلى تقليب صفحات المصادر والمظان، لكى أجمع ما تناقله الرواة من أخبار عن شخصية عمر الأطرف، وأدرس الأسباب التى حالت وراء المسلك الذى اختطه فى حياته تلك، والعلاقة التى كانت تربطه بأفراد البيت العلوى من إخوته وأولادهم، ومن ثم الوقوف على ما رواه من أحاديث وروايات حفظها عن أبيه الإمام على (ع)، وما أسهم به من دور إزاء الحوادث التى عاصرها بدءاً من صغره حين كان فى كنف والده (ع)، وحتى وفاته بعد أن تجاوز الخمسة والسبعين عاماً على أقل تقدير؛ ممن حدد عمره من المؤرخين بهذه المدة، حتى أضحى آخر من توفى من أولاد الإمام على (ع).

ومن ثم فمن المستبعد أن تكون مثل شخصية عمر الأطرف بن الإمام على (ع) ذات العمر الطويل هذا- قياساً بباقى إخوته- من الشخصيات الهامشية فى التاريخ الإسلامى، وذلك من حيث صلته الوطيدة بالشخصيات الفاعلة فى أحداث العقود الستة التى أعقبت وفاة الرسول الأكرم (ص)، من أبيه الإمام على (ع) خليفة المسلمين وزعيمهم، إلى أخوته الذين ذاع صيتهم (الحسن والحسين (عليهما السلام) ومحمد بن الحنفية)، فضلًا عن اغترافه للعلم من الينابيع الفكرية الرئيسة للإسلام بكونه من أولاد على (ع)، ذلك الشخص الذى تمثل الإسلام فكرة وسلوكاً، وفوق كل ذلك كونه أحد أولاده الخمسة الذين استمر عقبه منهم، وما تركه من ذرية وأحفاد أسهموا فى إشاعة ورواية الأحاديث والأخبار التى رواها جدهم عمر عن أبيه على (ع) من جهة، إلى روايتهم عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وتبنيهم للخط الفكرى والعقائدى الذى سلكوه من جهة أخرى، ثم ما لعبته

ص: ۱۲۳

المصاهرات المتبادلـة فيما بين ذرية آل عمر الأطرف وبين ذرية آل أبى طالب، والتى ساعدتنا فى إيضاح بعض الملابسات التى وقعت فى ثنايا النصوص لبعض الحوادث.

أخذت شهرة إخوة عمر (الحسن والحسين (عليهما السلام) ومحمد بن الحنفية) وباقى أهل بيته، الحيز الكبير من جهود الباحثين العلمية فانصبت عليها أقلامهم ودراساتهم المتنوعـة فى جميع مجالات اختصاصـهم، دون أن ينبرى باحث للتصـدى بدراسـته، إذ لم أجد بين الأكاديميين وغيرهم من الكتاب- وعلى حـد علمى المتواضع- من حاول الكتابـة عنه بصورة مسـتقلة بورقـة علمية أو كتاب، وهذا مما هو مسـتغرب! إذ كـان يـذكر فى ثنايـا كتب الأخبـار والأحـاديث فى تعـداد أولاـد الإمـام على (ع)، أو ما روى هو أولاده وأحفاده من أحاديث وروايات عن أهل البيت (عليهم السلام) ومدى قبول العلماء لتلك الأحاديث والروايات- المنسوبة- فى ميزان الجرح.

وبـذلك تحفزت على الخوض فى البحث والدراسـة عن هـذه الشخصـية، بعـد أن تجمع لـدىّ عـدد جيد من الأحاديث والروايات من طريق عمر الأـطرف بن الإمـام على (ع)، والتى نقلتها المصادر المتقدمـة عنه، إذ لو بوّبت ونسـقت تلك النصوص، فلربما تعطى إضاءة حول طبيعـة تلـك الشخصـية المسـكوت عنهـا وخلجاتهـا، وإجابـة عن المواقف الـتى انتهجتهـا من أحـداث عصـرها، ثم الـتركيز على الاـنفرادات التى تسـجل له من بين تلك الأحاديث والروايات التى لم يشترك مع باقى إخوته فى نقلها عن أبيهم (ع)، وتصـنيف تلك الأحاديث والروايات فى المواضيع التى تحدثت عنها، والجوانب المبرزة منها، ومدى قبول العلماء لها، فكان هذا البحث.

المبحث الأول: حياته ودوره فى أحداث عصره

لم تحـدد المصادر التى ترجمت له سنةً لولادته، ولكنها أشارت إلى أنه ولد أيام خلافة عمر بن الخطاب (۱۳- ۲۳ ه-)، وذلك برواية تشـير إلى أن الإمام علياً قد بشر بولادته وهو عند عمر، فنحله الأخير إسـمه ووهب له أحد غلمانه (۱)، ولكن هـذه الروايـة تتعارض مع مثيلـة لها يكون الواهب لهـذا الغلام هو عمر بن عبـد العزيز لأحد العلويين من ذرية عمر الأطرف (۲)، فضـلًا عن أن مسألة تحديد سنة ولادة عمر الأطرف ينتابها الشك فى مدى صحتها، وذلك للتعارض فى الروايات حول مقدار عمره.

ألقابه: لقب عمر بالأطرف، وذلك فى حقبـة لاحقة من حياته، تمييزاً له عن عمر بن على بن الحسـين الذى لقب بالأشـرف، إذ أطلقت هذه التسـمية عليه من قبل العلويين بعد ولادة الأخير (۳)، وفى رأى آخر: إن هذه التسـمية كانت لشـرفية عمر بن على من طرف واحد من خلال والده الإمام على (ع)، لأن والدته أمة، عكس سـميّه عمر بن الإمام زين العابدين على بن الحسـين (ع) الذى نال الشرف من طرفيه (الأب والأم) (۴).

أمه: كانت أم عمر الأطرف، من سبايا خالد بن الوليد حينما أغار على بنى تغلب فى منطقة (عين تمر) (۵)، وذلك أيام خلافة أبى بكر الأخيرة (۶)، إذ نقل قدامة (۳۲۸ ه-) فى رواية مهمة- لم توردها كتب الفتوح آنفة الذكر- يسـتعرض فيها تفاصـيل هذه الغارة وكيفية أسـر الصـهباء، إذ يقـول: «وأتى صـندوداء* وبهـا قـوم من كنـدة وأيـاد والعجم فقـاتلوه فظفر بهم وخلف بهـا سـعد بن عمرو بن حزام الأنصارى فولده اليوم بها، وبلغه أن جمعاً لبنى تغلب بالمضيح** والحصيد*** مرتدين وعليهم ربيعة بن بجير فأتاهم فقاتلهم فهزمهم وسبى وغنم وبعث بالسبى إلى أبى بكر فكانت منهم أم حبيب الصهباء بنت حبيب بن بجير، وهى أم عمر بن على بن أبى طالب» (۷).

۱- البلاذرى، أنساب الأشراف ۴۱۳: ۲، ابن شبة، تاريخ المدينة ۷۵۵: ۲، ابن عساكر، تاريخ دمشق ۳۰۴: ۴۵.

۲- الأصفهانى، الأغانى ۳۰۱: ۹.

۳- ينظر، ابن عنبة، عمدة الطالب: ۳۰۵.

۴- ينظر، المصدر نفسه: ۳۰۵.

۵- ابن سعد، الطبقات ۱۱۷: ۵، تاريخ الطبرى ۳۸۳: ۳.

۶- ينظر، الدنيورى، الأخبار الطوال ۱۱۲، البلاذرى فتوح البلدان ۱۳۱: ۱.

* صندوداء: قال ياقوت: سميت باسم امرأة وهى صندوداء ابنة لخم بن عدى بن الحارث ابن مرة بن أدد، سار إليها خالد بن الوليد من العراق يريد الشام وبها قوم من كندة وإياد والعجم فقاتله أهلها فظفر بهم، وتقع على مشارف بادية العراق. معجم البلدان ۴۲۵: ۳.

** المضيح: جبل بناحية الكوفة، معجم ما استعجم، ۲۷۹: ۱.

*** الحصيد بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة ودال مهملة، موضع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة، وهو واد بين الكوفة والشام. معجم البلدان ۴۲۵: ۳.

۷- ابن قدامة، الخراج وصنعة الكتابة: ۲۸۶.

ص: ۱۲۴

والصهباء هی: أم ولد، وتسمی بأم حبیب، وهی بنت ربیعة بن بجیر بن العبد بن علقمة بن الحارث بن عتبة بن سعد بن زهیر بن جشم بن بکر بن حبیب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل (۱)، وتتوسع أحد المصادر بذکر نسب هذه المرأة لتوصله إلی عدنان لتذکر اسمها علی النحو الآتی: «الصهباء، وهی: أم حبیب بنت ربیعة بن بجیر بن العبد بن علقمة بن الحارث بن عتبة بن سعد بن زهیر بن جشم بن بکر بن حبیب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أقصی بن دعمی بن جدیلة بن أسد بن ربیعة بن نزار بن معد بن عدنان» (۲).

ولدت هذه المرأة للإمام علی (ع) ولدین توأمین هما: (عمر ورقیة) (۳)، ولکن المصادر بعد ذلک تسکت عن ذکر أخبارها وعلاقتها بنساء البیت العلوی، وأحسب أن کونها أم ولد قد کان وراء هذا السکوت، فضلًا عن أنها لم یکن لها دور أو موقف فی أحداث عصرها حتی تذکره الرواة، بإستثناء ماورد فی إحدی وصایا الإمام علی (ع) لأهل بیته، التی نقلها الإمام الکاظم (ع) والمصادر المتقدمة، إلی أنه قد أشار إلی زوجاته من الإماء، إذقال الإمام علی (ع) فی وصیته تلک: «أما بعد فإن ولائدی اللائی أطوف علیهن السبعة عشر، منهن أمهات أولاد معهن أولادهن، ومنهن حبالی، ومنهن من لا ولد لهن، فقضیت إن حدث بی حدث فی هذا الغزو فإن من کانت منهن لیست بحبلی ولیس لها ولد فهی عتیقة لوجه الله، لیس لأحد علیها سبیل، ومن کانت منهن حبلی أو لها ولد فإنها تحبس علی ولدها وهی من حظه، فإن مات ولدها وهی حیة فإنها عتیقة لوجه الله، هذا ما قضیت فی ولائدی التسع عشرة والله المستعان» (۴)، وما ورد من تسمیة ولدها عمر ابنته- التی تزوجها الحسن المثنی بن الحسن بن أبی طالب- بإسم أمه لخیر شاهد علی المکانة التی کان یکنها لأمه (۵).

نشأته: نشأ عمر فی مقتبل عمره فی کنف والده، وکان آخر من بقی من ذریته وأولاده (۶)، وهذا مما جعله حدث السن فی الحوادث التی تلاحقت علی الإمام علی (ع)، وهذا مما لم یظهر له دوراً أو موقفاً بارزاً فیها، ولکن نستطیع أن نستنتج من الأحادیث التی نقلها عن أبیه، والقرارات التی اتخذها فی بعض المواقف إزاء حوادث عصره، أنه کان ملاصقاً لأبیه، إذ روی أحادیث جمة عنه کما سنلاحظ من دراستنا لها وتجمیعنا إیاها، وهذا مما یظهر أنه قد رحل معه إلی الکوفة أیام خلافته، حتی أن الإمام الباقر (ع) فی روایة نقلها الشیخ الطوسی (۴۶۰ ه-) یشیر إلی حضور جمیع ولد الإمام علی (ع) حینما احتضر (۷)، فضلًا عن ورود روایة أخری نقلها القاضی النعمان المغربی (۳۶۳ ه-) تشیر إلی بکاء رقیة- شقیقة عمر التوأم- أباها وهو متشحط بدمه من ضربة عبد الرحمن بن ملجم (۸)، وفی مصادر أخری تذهب إلی تحدید عدد أولاد الإمام (ع) الإثنی عشر الذین حضروا عند أبیهم لیسمعوا وصیته الأخیرة لهم، حتی ارتفع فیها صوت الإمام علی (ع)، حینما وبخ أحد أبنائه (عبید الله) لاعتراضه علی خصوصیة الحسن والحسین فی وصیة أبیهم من بین إخوته (۹).

وهذا مما یؤکد لنا حقیقة ملازمته هو وأخته وربما أمه لأبیه طیلة أیامه، وهو مما یجعله علی تماس مباشر مع الحوادث التی تلاحقت علی أبیه ومشاهدته لها، فضلًا عن سماعه للأحادیث والکلمات التی قالها فی خضم تلک الحوادث.

مواقفه من أحداث عصره: لم یؤثر عن عمر الأطرف موقف بارز فی الحوادث الکبری التی عصفت بالمجتمع الإسلامی فی خلافة أبیه الإمام علی (ع) (۳۵- ۴۰ ه-)، إذ لم تحدثنا المصادر عن مشارکته فی الحروب الثلاث (الجمل وصفین والنهروان) التی حدثت فی أیام الإمام علی (ع)، بالرغم من الإشارات المتکررة حول مساهمة إخوته الحسن والحسین (علیهما السلام) و محمد بن الحنفیة الفاعلة فی تلک الحروب (۱۰)، ولاسیما الأخیر الذی یکبره قلیلًا، إذ کان هو الآخر إبن أمة من سبایا بنی حنیفة أیام الردة، إذ وردت إشارات متفرقة عن حضوره لکل من الجمل وصفین، ولکن دون أن یکون له دور أو موقف فیها، إذ ذکر الشیخ المفید (۴۱۳ ه-) فی روایة نقلها الواقدی عن حفید عمر الأطرف (عبد الله)، حیث قال: «حدثنی عبد الله بن محمد بن عمر بن علی بن أبی طالب (ع) عن أبیه قال: لما سمع أبی أصوات الناس یوم الجمل وقد ارتفعت، فقال لابنه محمد: ما یقولون؟ قال یقولون:

۱- ابن سعد، الطبقات الكبرى ۵۳۲: ۳.

۲- العبيدلى، تهذيب الأنساب: ۳۳.

۳- تاريخ الطبرى ۱۶۲: ۳، العمرى النسابـة، المجدى فى أنساب الطالبيين: ۱۹۷، ابن ماكولا، الإكمال ۱۹۴: ۱، شرح نهج البلاغة ۲۴۲: ۹- ۲۴۳.

۴- عبد الرزاق الصنعانى، المصنف ۲۸۸: ۷، ابن شبة، تاريخ المدينة ۲۲۸: ۱، الكلينى، الكافى ۵۰: ۷.

۵- ابن سعد، الطبقات الكبرى، القسم المتمم ۲۶۰: ۱.

۶- الفخر الرازى، الشجرة المباركة: ۲۰۳، المزى، تهذيب الكمال ۴۶۸: ۲۱- ۴۶۹.

۷- الشيخ الطوسى، الأمالى: ۵۹۵.

۸- القاضى النعمان، شرح الأخبار ۳۳۳: ۲- ۳۳۴.

۹- ينظر، المسعودى، إثبات الوصية: ۱۶۴- ۱۶۵، الراوندى، الخرائج والجرائح ۱۸۳: ۱.

۱۰- ينظر، نصر بن مزاحم المنقرى، وقعة صفين: ۲۱۶، ۲۲۱، ۲۴۹، ۳۷۱، ۴۶۳، ۵۳۰.

ص: ۱۲۵

بالشارات عثمان! قال: فشدّ عليه وأصحابه يهشون فى وجهه يقولون: الشمس ارتفعت! الشمس ارتفعت! وهو يقول: الصبر أبلغ فى الحجة» (۱).

أما فى صفين فلم تصرح المصادر بإسمه فيمن حضرها من أولاد الإمام على (ع)، إذ وردت رواية واحدة نقلها نصر بن مزاحم المنقرى (۲۱۲ ه-) عن خروج الإمام على (ع) وبنيه الى ميسرة الجيش فى صفين وهم يحامون عنه (۲).

هل كان سن عمر الصغيرة وخبرته القليلة بالقتال لم يكونا ليسمحا له بالمشاركة فى تلك الحروب؟ أم أن أباه لم يعطِ له الإذن بذلك؟ أوربما لم يكن متحمساً للمشاركة فيها؟- وهذا ديدنه فى معظم الحروب والوقائع التى عاصرها فى أيامه- والظاهر أن كل الإحتمالات واردة ومرجحة، إذ إن الذى يستقرأ نصوص الوصايا التى أوصى بها الإمام على (ع) لأولاده وإلى أهل بيته- التى أحلنا إلى بعض منها آنفاً- تستوقفه عبارة (الأصاغر من ولده) التى وردت فى ثنايا رواية الإمام الباقر (ع) عن حادثة وصية الإمام على (ع) لمن حضر من ولده (ع) فى أثناء احتضاره (۳)، إذ تبين هذه الرواية أنه لم يكن من الاكتمال الجسمانى أن يشترك فى مثل هذه الحروب التى زج فيها الإمام على أولاده، وحتى الذين اشتركوا فى تلك الحروب من أولاد الإمام (الحسن والحسين (عليهما السلام) ومحمد بن الحنفية)، قد كان يحاذر أن يدخلهم فى مبارزة أو قتال فعلى خشية أن ينقطع نسل محمد (۴)، حتى إنه خاف على إبنه محمد بن الحنفية حينما برز فى صفين لعبيد الله بن عمر بن الخطاب، إشفاقاً عليه، خشية أن يقتله الأخير (۵).

ذريته تزوج عمر الأطرف فى تلك الأثناء من أسماء بنت عقيل بن أبى طالب، والتى كانت ذريته منها (۶)، وتزوج مسلم بن عقيل أخت عمر (رقية) الشقيقة التوأم (۷).

وولد عمر بن على الأطرف ستة منهم ثلاث نساء هن: أم حبيب وأم موسى وأم يونس، والرجال: محمد وعلى وأبو إبراهيم إسماعيل، وكان إستمرار عقبه من ولده محمد، إذ لم يعقب البقية (۸)، وعرف أعقابه بالعمريين ولقبوا بالعُمرى (۹).

علاقته بإخوته: رافق عمر الأطرف إخوته الحسن والحسين (عليهما السلام) حينما رجعوا إلى المدينة بعد الصلح الذى أبرموه مع معاوية، وظل هناك يتنقل بين صدقات أبيه وعيونه، لتسكت المصادر عن ذكر إشارة لأخباره طيلة السنوات التسع التى أعقبت الصلح، لترد إشارة فى بعض المصادر إلى أنه قد حضر جنازة أخيه الإمام الحسن (ع) حينما توفى عام ۵۰ ه-، ليروى تأبين أخيه محمد بن الحنفية للحسن (ع) وهو واقف على قبره (۱۰).

زوَّج عمر الأطرف ابنته أم حبيب من ولد الحسن البكر الحسن المثنى، رغم اقتران الأخير ببنات أعمامه الحسين (ع) ومحمد بن الحنفية، ودخوله ببنت الأخير وابنته فى ليلة واحدة، حتى إستغرب البعض من ذلك، فقال ابن الحنفية: «هو أجل إلينا منهما» (۱۱).

تتلاحق الأحداث بعد ذلك لتشكل مواقف عمر فيها منعطفاً مهماً فى حياته تتأزم فيها بعد ذلك علاقته بالبيت العلوى، بدأت تلك الأحداث بثورة الإمام الحسين (ع) عام ۶۱ ه- وأحداثها المتلاحقة، من امتناعه (ع) عن بيعة يزيد، إلى خروجه ليلًا إلى مكة ومنها إلى العراق، إذ يحدث عمر الأطرف آل عقيل عن تلك اللحظات فيقول: «لما امتنع أخى الحسين عن البيعة ليزيد بالمدينة، دخلت عليه فوجدته خالياً، فقلت له: جعلت فداك ياأبا عبد الله، حدثنى أخوك أبو محمد الحسن، عن أبيه (عليهما السلام)، ثم سبقتنى الدمعة وعلا شهيقى، فضمنى إليه، وقال: حدثك أنى مقتول؟ فقلت: حوشيت يابن رسول الله، فقال: سألتك بحق أبيك بقتلى خبرك؟ فقلت: نعم، فلولا ناولت وبايعت» (۱۲)، وأرخ الأطرف هذه الحادثة، فكان يخبر عن إستشهاد

۱- المفيد، الجمل: ۳۵۷.

۲- ينظر، نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ۲۴۹.

۳- ينظر، الشيخ الطوسى، الأمالى: ۵۹۵.

۴- ينظر، نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ۴۶۳، ۵۳۰.

۵- ينظر، المصدر نفسه: ۲۴۹.

۶- ينظر، ابن سعد، الطبقات ۵۳۲: ۳، ابن ماكولا، الإكمال ۱۲۲: ۲، الطبرسى، إعلام الورى ۳۹۵: ۱، ۳۹۶.

۷- ينظر، العمرى النسابة، المجدى فى أنساب الطالبيين: ۲۰۰.

۸- العبيدلى، تهذيب الأنساب: ۲۹۱، العمرى النسابة، المجدى: ۴۵۰، ابن الطقطقى، الأصيلى فى أنساب الطالبيين: ۳۳۲.

۹- ابن الأثير، اللباب فى تهذيب الأنساب ۳۵۹: ۲.

۱۰- ينظر، إبن عساكر، تاريخ دمشق ۲۹۶: ۱۳- ۲۹۷، المزى، تهذيب الكمال ۲۵۵: ۶- ۲۵۶.

۱۱- عبد الرزاق الصنعانى، المصنف ۲۶۴: ۶، ابن سعد، الطبقات الكبرى، القسم المتمم ۲۶۰: ۱.

۱۲- ابن طاووس، اللهوف فى قتلى الطفوف: ۹۹- ۱۰۰.

ص: ۱۲۶

الحسين (ع)، ووقته، فيقول: «قتل الحسين بن على سنة إحدى وستين وهو يومئذ ابن ست وخمسين سنة فى المحرم يوم عاشوراء» (۱).

لم يـذهب عمر الأـطرف مع من ذهب من إخوته لنصـرة الحسـين (ع) فـآثر البقاء فى المدينـة، حتى إنه أثر عنه أنه حينما وصل إليه نبأ إستشـهاد أخيه الإمام الحسين (ع) خرج فى ثياب معصفرات له وجلس بفناء داره قائلًا: «أنا الغلام الحازم ولو خرجت معهم لذهبت فى المعركة وقتلت» (۲).

علاـقته بـأفراد البيت العلوى: إن الكلمـات آنفـة الـذكر - إن صـح صـدورها من عمر الأطرف - فسـتنفر الناس منه، ولاسـيما أبناء البيت العلوى، ولم يقتصـر الأمر عنـد هـذا الحـد؛ بل إنه قـد طالب بميراثه من إخوته القتلى فى الطف، فلم يترك ذراريهم حتى صولـح على شىءٍ من أموالهم التى ورثوهـا من آبـائهم، إذ أشـارت النصوص إلى أنه قـد نـازع عبيـد الله بن العباس بن على فى ميراث أبيه الشـهيد بكربلاء (۳)، فضـلًا عن إستعانته بالسلطة الأموية للحصول على نصيبه من إرث إخوته شهداء الطف، والذى يعتقد أنه حقه شرعاً، حتى قالت عنه الرواة: إنه قد حاز لأجل ذلك نصف ميراث على (۴).

فقـد خاصم الإمام زين العابـدين على بن الحسـين (ع)، إلى عبـد الملك فى صدقات النبى (ص)، وأمير المؤمنين على (ع) حينما أراد ردها إلى العلويين، إذ قصده مدعياً أحقيته بها وضـيق حاله، قائلًا له: «أنا ابن المتصدق، وهذا ابن ابن، فأنا أولى بها منه»، فلم يكترث له عبد الملك وأوكل أمر تلك الصدقات إلى الإمام زين العابدين (ع) (۵).

ثم كلم عمر كـذلك الحجـاج بن يوسف الثقفى حينمـا كـان أميراً على الحجاز (۷۳- ۷۵ ه-) أن يتوسـط فى إقنـاع الحسن المثنى بن الإمام الحسن بن على (ع) أن يدخله فى صدقات على (ع) التى كانت تحت توليته، إذ تتحدث المصادر عن هذه الحادثة بالقول: «كان الحسن بن الحسن وصـى أبيه وولى صدقـة على بن أبى طـالب فى عصـره. قـال: وكـان حجـاج بن يوسف قـال له يوماً وهو يسايره فى موكبه بالمدينـة وحجـاج يومئـذ أمير المدينـة: أدخل عمك عمر بن على معك فى صدقـة على فإنه عمك وبقيـة أهلك قال: لا أغيّر شرط على ولاـ أدخل فيها من لم يـدخل. قال: إذا أدخله معك فنكص عنه الحسن بن على حين غفل الحجاج، ثم كان وجهه إلى عبد الملك حتى قـدم عليه فوقف ببابه يطلب الإذن، فمر به يحيى بن الحكم، فلما رآه يحيى عـدل إليه فسـلم عليه وسأله عن مقدمه وخبره وتحفى به، ثم قـال له: إنى سأنبعـك عنـد أمير المؤمنين يعنى عبـد الملـك، فـدخل الحسن على عبـد الملك فرحب وأحسن مساءلته وكان الحسن بن الحسن قـد أسرع إليه الشـيب، فقال له عبدالملك: لقد أسـرع إليك الشـيب ويحيى بن الحكم فى المجلس، فقال له يحيى: ومـا يمنعه شـيبته أمـانى أهـل العراق كـل عـام يقـدم عليه منهم ركب يمنونه الخلافـة، فأقبـل عليه الحسن فقال: بئس والله الرفد رفدت وليس كما قلت، ولكنا أهل بيت يسرع إلينا الشيب، وعبد الملك يسمع فأقبل عليه عبد الملك فقال له: هلم ما قدمت له فأخبره بقول الحجاج فقال: ليس ذلك له، أكتبوا إليه كتاباً لا يجاوزه ووصله وكتب له» (۶).

ولم تهـدأ بـال عمر عن المطالبـة بتولى تلك الصـدقات، وهـذه المرة اسـتقدم معه أبان بن عثمان بن عفان إلى الوليـد بن عبـد الملك (۸۶- ۹۶ ه-) لكى يوليه تلك الصـدقات ويؤثر على ابن أخيه الحسن، إذ يذكر المصـعب الزبيرى (۲۳۶ ه-) وقائع تلك الحادثة قائلًا: «كـان عمر آخر ولـد على بن أبى طـالب وقـدم مع أبان بن عثمان على الوليـد بن عبـد الملك يسأله أن يوليه صدقـة أبيه على بن أبى طالب، وكان يليها يومئذ ابن أخيه الحسن بن الحسن بن على، فعرض عليه الوليد الصلة وقضاء الدين فقال: لا حاجة لى فى ذلك، إنما جئت لصدقة أبى أنا أولى بها، فاكتب لى ولايتها، فكتب له وليد رقعة فيها أبيات ربيع بن أبى الحقيق اليهودى النضرى:

۱- ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك ۳۴۵: ۵.

۲- البخارى، سر السلسلة العلوية: ۹۶، ابن الطقطقى، الأصيلى فى أنساب الطالبيين: ۳۳۲، ابن عنبـة، عمـدة الطالب فى أنساب آل أبى

طالب: ۳۳۱- ۳۳۲.

۳- أبو الفرج الأصفهانى، مقاتل الطالبيين: ۵۵.

۴- ينظر، تاريخ الطبرى ۱۶۲: ۳.

۵- ينظر، المفيد، الإرشاد ۱۵۰: ۲، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبى طالب ۳۰۸: ۳.

۶- الشيخ المفيد، الإرشاد ۲۳: ۲- ۲۴، إبن عساكر، تاريخ دمشق ۶۵: ۱۳، المزى، تهذيب الكمال ۹۲: ۶- ۹۳.

ص: ۱۲۷

إنا إذا مالت دواعى الهوى وأنصت السامع للقائل

واصطرع القوم بألبابهم نقضى بحكم عادل فاضل

لانجعل الباطل حقاً ولا نل-- ط دون الح-- ق بالباطل

نخاف أن تسفه أحلامنا فتحمل الدهر من الخامل

ثم دفع الرقعة إلى أبان، وقال: ادفعها إليه وأعلمه أنى لا أدخل على ولد فاطمة بنت رسول الله (ص) غيرهم، فانصرف عمر غضبان، ولم يقبل منه صلة (۱).

فضلًا عما تقدم، فإننا نجد عمر الأطرف لايصطدم بأى سلطة سياسية أو يعارضها، ولاسيما تلك التى تكون لها الغلبة فى الحجاز، فقد بايع كلًا من عبد الله بن الزبير أيام حركته بالحجاز (۶۵- ۷۲ ه-)، والحجاج بن يوسف الثقفى، حينما قضى على حركة الأخير (۲)، بالرغم من أن العلويين قد وقفوا موقفاً معارضاً لابن الزبير، والرفض لمبايعته بالخلافة، حتى همَّ الأخير بهم وتوعدهم بإحراقهم بالنار (۳)، فضلًا عن حضوره لوليمة عرس الحجاج حينما بنى بأم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بعدما كان له دور فى تزويجها منه، حتى قال له: «أحضر فلم يبق من أهلك من تحتشمه» (۴).

تركت مثل تلك المواقف من عمر؛ شيئاً فى نفوس العلويين، لدرجة القطيعة والنفرة منه، حتى قال الإمام زين العابدين على بن الحسين (ع) لولد عمر (محمد) بعدما رأى نبل الأخير وفضله: «يابن عم! ما تمنعنى قطيعة أبيك أن أصل رحمك فقد زوجتك ابنتى خديجة» (۵).

كانت تلك المواقف التى انتهجها عمر مع أهل بيته وراء حدة الكلمات والآراء التى تفوّه بها بعض النسابة من العلويين فى معرض حديثهم عن عمر الأطرف وأعقابه، إذ قال عنه ابن الطقطقى (۷۰۹ ه-): «ولم يكن مرضى السيرة ...، وماروينا عنه خطبة بليغة، ولا شعراً مسموعاً، وكان نازع بنىإخوته الحسن والحسين (عليهما السلام) فى صدقات على (ع) دائماً، ويريد أن يدخل معهم فى ذلك، ولايظفر منهم بطائل» (۶). وكذلك الحال بابن عنبة (۸۲۸ ه-) الذى وجه انتقادات متعددة على مواقف عمر الأطرف تلك (۷).

أفكاره وعقيدته: مع كل هذه النصوص والمواقف السابقة التى كانت من عمر إزاء أهل بيته فهو لم يكن منحرفاً عقائدياً عنهم وعن خطهم الذى سلكوه وآمنوا به، فلم تكن إستعانته بالأمويين تقرباً منه إليهم وطلب صلاتهم؛ بل وحتى مبايعته لهم، وكما تظهر عباراته آنفة الذكر مع الوليد بن عبد الملك، فهو بذلك اعتقد أن له حقاً فى تلك الأموال والصدقات التى تركها أبوه (ع) ما دام محتاجاً إليها، والذى يدل على متابعته لمسار إخوته وأهل بيته فيما يعتقدونه ويؤمنون به؛ بعض المواقف والأقوال التى صدرت منه فى ردّ ماشاهده من انحرافات عن خط أهل البيت والطعن عليهم، إذ ذكرت المصادر أنه قد اجتاز فى سفر كان له فى بيوت من بنى عدى، فنزل عليهم، وكانت شدة فجاءه شيوخ الحى فحادثوه، واعترض رجل منهم ماراً له شارة، فقال: من هذا؟ فقالوا: سلم بن قتة، وله انحراف عن بنى هاشم، فاستدعاه وسأله عن أخيه سليمان بن قتة، وكان سليمان من الشيعة، فخبّره أنه غائب، فلم يزل عمر يلطف له فى القول ويشرح له الأدلة حتى رجع سلم إلى مذهب أخيه، وكان يصله عمر كل سنة بصلة، فلما مات عمر رثاه سلم بأبيات عدة (۸).

وفى موقف آخر له نلمس منه هذه الروحية المدافعة عن خط أهل البيت والتشهير بالمنحرفين عنهم، إذ ذكر ابن أبى الحديد (۶۵۶ ه-) محاورة جرت بين عمر الأطرف وبين التابعى المشهور سعيد بن المسيب، الذى عدّه ابن أبى الحديد من ضمن المنحرفين عن الإمام على (ع)، مستشهداً بكلام عمر بحق ابن المسيب فى هذه المحاورة، والتى مفادها: «روى عبد الرحمن بن الأسود، عن أبى داود الهمذانى، قال: شهدت سعيد بن المسيب، وأقبل عمر بن على بن أبى طالب، فقال له سعيد: يابن أخى! ما أراك تكثر غشيان مسجد رسول الله (ص) كما يفعل إخوتك وبنو أعمامك! فقال عمر: يابن المسيب! أكلما دخلت المسجد أجيء فأشهدك! فقال

۱- المصعب الزبيرى، نسب قريش: ۴۲- ۴۳.

۲- ابن عنبة، عمدة الطالب: ۳۶۱- ۳۶۲.

۳- ينظر، ابن سعد، الطبقات ۱۰۰: ۵- ۱۰۱، تاريخ اليعقوبى ۲۶۱: ۲، تاريخ الطبرى ۱۵۴: ۵- ۱۵۵.

۴- ينظر، البخارى، سر السلسلة العلوية: ۹۷.

۵- ابن شهر آشوب، مناقب آل أبى طالب ۳۰۸: ۳.

۶- ابن الطقطقى، الأصيلى فى أنساب الطالبيين: ۳۳۲.

۷- ينظر، ابن عنبة، عمدة الطالب: ۳۶۲.

۸- العمرى النسابة، المجدى فى أنساب الطالبيين: ۱۹۷- ۱۹۸، ابن عنبة، عمدة الطالب: ۳۶۱- ۳۶۲.

ص: ۱۲۸

سعيد! ما أحب أن تغضب، سمعت أباك يقول: إن لى من الله مقاماً لهو خير لبنى عبد المطلب مما على الأرض من شيء فقال عمر: وأنا سمعت أبى يقول: ما كلمة حكمة فى قلب منافق فيخرج من الدنيا حتى يتكلم بها فقال سعيد: يابن أخى! جعلتنى منافقا؟! فقال: هو ما أقول لك ثم إنصرف» (۱).

فضلًا عن ذلك، فقد وجدنا عمر الأطرف تحتكم إليه بعض الشخصيات المتخاصمة، لما له من تقدير فى نفوسهم، ولاسيما بين الكوفيين منهم على وجه التحديد (۲).

وهذه المواقف التى بدرت منه، جعلت قسماً آخر من النسابة يصفه بالقول: «وكان عمر بن على ذا لسن وجود وعفة» (۳).

يضاف إلى ذلك تأكيد أحد المصادر بمنحى عمر الأطرف ومسلكه فى الصلاة والأذان، إذ كان يؤذن فى صلاته (بحى على خير العمل)، و يجهر فى القراءة (ببسم الله الرحمن الرحيم)، إذ نقل الدارقطنى (۳۸۵ ه-) رواية مضمونها: «حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد، ثنا يحيى بن زكريا بن شيبان، نا محفوظ بن نصر، ثنا عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى‌طالب، قال: حدثنى أبى، عن أبيه، عن جده، عن على قال: كان رسول‌الله (ص) يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى السورتين جميعاً» (۴)، وهذه المراسم فى الصلاة ميزت الشيعة عن غيرهم من أصحاب المذاهب الإسلامية الأخرى، حتى أجمع أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ومن بعدهم علماء الشيعة جميعهم- وبمختلف فرقهم- على عدم اعتبار الذى لايجهر بصلاته بالبسملة فى السورتين من أتباع مذهبهم، لذلك عدُّوا الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم من الأمور الواجبة فى الصلاة (۵).

هذه النصوص تظهر لنا عقيدة هذا الرجل، ومذهبه الفكرى، ولكن مع كل ذلك نجد الجاحظ (۲۵۵ ه-) ينسب لعمر الأطرف مقولةً بعد أن سأله أحدهم عن حقيقة ما يتناقله بعض الناس من وجود وصية لرسول الله (ص) إلى على (ع)، فقال له عمر: «والله إن هذا الكلام ما سمعت به قط إلا الساعة» (۶)، ويضيف أبو حيان التوحيدى على ذكر رواية الجاحظ تلك: «سئل عمر بن علىّ عن الوصية فقال: إن هذا شيءٌ ما سمعناه حتى دخلنا العراق» (۷).

مثل هذا الكلام الذى نقله الجاحظ وغيره، لايتفق مع ما نقله المحدثون من أحاديث وروايات عن اهتمام عمر بالتحديث عن هذه المسألة والترويج لها وإشاعتها بين الناس على وجه التحديد، فنجد فى الأوراق اللاحقة من هذه الدراسة تأكيداً من عمر على هذا الأمر، فقد نقل عنه أنه قال: «قال رسول الله (ص): إن الله تعالى عهد إلى فى على عهداً قلت: رب بيّنه لى قال: اسمع يا محمد قال: إن علياً راية الهدى بعدى وإمام أوليائى ونور من أطاعنى وهو الكلمة التى أكرمتها المتقين فمن أحبه أحبنى ومن أبغضه أبغضنى فبشره بذلك» (۸).

فضلًا عما تقدم، فإننا نجد أن ابن طاووس (۶۷۳ ه-) قد وقف موقفاً علمياً صارماً فى دحض رواية الجاحظ هذه، وذلك فى معرض رده على رسالته العثمانية، من خلال إيراد النصوص والأحاديث التى ذكرت وصية الرسول (ص) إلى على (ع) من مختلف المصادر الإسلامية (۹).

مع كل ماتقدم، نجد أن بعض المصادر المتقدمة ترد فيها روايات مربكة ومحيرة، فى ذكر موقف لعمر بن على، وذلك فى خضم الحوادث التى عصفت بالمجتمع أيام فتنة بن الزبير (۶۵- ۷۳ ه-)، إذ قال خليفة بن خياط (۲۴۰ ه-) فى حوادث سنة ۶۷ ه-: فيها وقعة المذار. وفيها قتل عمر بن على بن أبى طالب ومحمد بن الأشعث بن قيس (۱۰)، ووافق ابن حبان ما قاله خليفة من جعل سنة سبع وستين عاماً لنهاية حياة عمر الأطرف (۱۱).

وعلق ابن حجر على هذه الأخبار: «قلت: ذكر الزبير ما يدل على أنه عاش إلى زمن الوليد بن عبد الملك، ذكر غير واحد من أهل التاريخ أن الذى قتل مع مصعب بن الزبير هو عبيد الله بن على بن أبى طالب والله أعلم» (۱۲).

۱- ابن أبی الحدید، شرح نهج البلاغة ۱۰۱: ۴- ۱۰۲.

۲- ینظر، أبو الفرج الأصفهانی، الأغانی، ۱۱: ۹- ۱۲.

۳- العمری النسابة، المجدی فی أنساب الطالبیین: ۱۹۷.

۴- الدارقطنی، سنن الدارقطنی ۳۰۲: ۱.

۵- ینظر، الکلینی، الکافی ۶۱: ۸، القاضی النعمان، دعائم الإسلام ۱۱۰: ۱، الإمام یحیی بن الحسین الزیدی، الأحکام، ۱۰۵: ۱، الشیخ الطوسی، الخلاف ۳۳۱: ۱.

۶- الجاحظ، العثمانیة: ۲۷۵.

۷- ابو حیان التوحیدی، البصائر والذخائر ۵۳: ۷.

۸- إبن عساکر، تاریخ دمشق ۲۰۱: ۳۶، المتقی الهندی، کنز العمال ۵۳۱: ۹.

۹- ینظر، ابن طاووس، بناء المقالة الفاطمیة: ۴۲۷- ۴۳۶.

۱۰- تاریخ خلیفة ۶۹: ۱، الطبقات ۵۸۰: ۲.

۱۱- ابن حبان، الثقات ۱۴۶: ۵.

۱۲- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۴۲۶: ۷.

ص: ۱۲۹

وترد هذه الرواية بتفصيل أكثر ووضوح أشد عند أبى حنيفة الدينورى (۲۸۲ ه-) بعد ذكره لوقعة المذار* بين جيش مصعب بن الزبير والمختار الثقفى، إذ ذكر إسم عمر بن على فيمن قتل فى هذه المعركة من الأشراف، حيث قال: «وقتل عمر بن على بن أبى طالب، وذلك إنه قدم من الحجاز على المختار فقال له المختار: هل معك كتاب محمد بن الحنفية؟ فقال عمر: لا ما معى كتابه، فقال له المختار: انطلق حيث شئت فلا خير لك عندى، فخرج من عنده وسار إلى مصعب فاستقبله فى بعض الطريق فوصله بمائة ألف درهم، وأقبل مع مصعب حتى حضر الوقعة فقتل فيمن قتل من الناس» (۱).

وعلق العمرى النسابة (۴۹۰ ه-) على تلك الروايات آنفة الذكر بما نصه: «ووجدت فى بعض الكتب أن عمر شهد حرب المصعب بن الزبير، وكان من أصحابه، وأنه قتل بمسكن، وهذه رواية باطلة بعيدة عن الصواب ... ومما يدلل على بطلان ذلك أنه خاصم ابن أخيه حسناً إلى بعض بنى عبد الملك فى ولايته فى صدقات على (ع)، وهذا يزعم أنه مات من جراح أصابته أيام مصعب، ومصعب قتل قبل أخيه عبد الله، وعبد الملك حى، وما ولى أحد من بنى عبد الملك إلا بعد موت أبيه، فهذه مناقضة» (۲).

والظاهر أن هؤلاء المؤرخين قد اختلط عليهم اسم من قتل فى حروب المختار ومصعب من أولاد أمير المؤمنين، إذ إن أغلب المصادر تشير إلى أن من قتل فى المذار هو عبيد الله بن على (۳)، حتى أن بعض تلك المصادر، تجعل من حادثة مقتل عبيد الله بن على تصديقاً لما أخبر به الإمام على (ع) من مصير إبنه هذا، إذ قال له: «كأنى بك وقد وجدت مذبوحاً فى خيمته» (۴).

لم تتضح شخصية عمر الأطرف بتلك المواقف فقط؛ بل نجده قد أشاع كثيراً من الأحاديث والروايات التى رواها فى فضائل أبيه الإمام على (ع) ومناقبه العظيمة، ولاسيما ماكان منها أيام رسول الله (ص)، إذ حفلت المصادر المتقدمة بمجموعة مهمة من الأحاديث والروايات مسندة إلى عمر الأطرف، حتى أن أحداً من علماء الإمامية المتقدمين (أبو بكر الجعابى المتوفى سنة ۳۶۴ ه-)****، قد جمع تلك الأحاديث والروايات فى مصنف مستقل سماه: (مسند عمر بن على بن أبى طالب) (۵)، ولأجل ذلك عرف عمر بأنه أحد التابعين ورواة الحديث وممن حمل العلم عنه (۶).

وفاته:

توفى عمر الأطرف حسبما أكدت بعض المصادر ب- (ينبع*****) حتف أنفه عن عمر ناهز ۸۵ سنة (۷)، ولكن ابن عنبة حصر عمره بين ۷۵ و ۷۷ سنة (۸)، مع العلم أن محمد بن اسماعيل البخارى (۲۵۴ ه-) قد حدد عام (۹۲ ه-) سنة لوفاة عمر بن على؛ لرواية سمعها من أحد معاصريه (۹).

وهذه الرواية الأخيرة أرجح من غيرها، لما ذكرته بعض المصادر التى ترجمت لعمر الأطرف، أنه عاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك، واختصم عنده فى صدقات أبيه (۱۰). فإذا ما علمنا أن الأخير حكم من سنة ۸۶- ۹۶ ه-، فتكون تلك الرواية أقرب للواقع من غيرها.

أما بخصوص ينبع ومحلها كموضع للمثوى الأخير لعمر الأطرف فهو أمر أقرب للصواب، إذ كانت بها أوقاف الإمام على (ع) حسبما تشير المصادر البلدانية (۱۱)، وهى نفسها صدقاته (ع) التى تنازع عليها ولده عمر مع أولاد إخوته الحسن والحسين (عليهم السلام)، والتى أشرنا إليها آنفاً.

۱- أبوحنيفة الدينورى، الأخبار الطوال: ۳۰۶- ۳۰۷.

۲- العمرى النسابة، المجدى فى أنساب الطالبيين: ۱۹۸.

۳- ينظر: ابن قتيبة، المعارف: ۲۱۷، البلاذرى، أنساب الأشراف ۴۱۲: ۲، العمرى النسابة، المجدى فى أنساب الطالبيين. ۱۹۸- ۱۹۹، الراوندى، الخرائج والجرائح ۱۸۳: ۱.

۴- ینظر، المسعودی، إثبات الوصیة: ۱۶۵، الراوندی، الخرائج والجرائح ۱۸۳: ۱.

**** محمد بن عمر بن محمد بن سلم بن البرأ بن سبرة بن یسار التمیمی القاضی، یکنی أبا بکر، المعروف بابن الجعابی الحافظ، بغدادی، ثقة، خرج إلی سیف الدولة الحمدانی، فقربه وأدناه واختص به، وکان حفظة عارفاً بالرجال من العامة والخاصة. وله کتب، اخبرنا بها جماعة من أصحابنا، منهم الشیخ المفید رحمه الله والحسین بن عبیدالله وأحمد بن عبدون، عنه. روی عنه التلعکبری، ینظر، الطوسی، الرجال: ۴۴۵، الفهرست: ۱۸۵.

۵- ینظر، النجاشی، الرجال: ۲۹۵.

۶- ینظر، ابن سعد، الطبقات الکبری ۱۱۷: ۵، ابن قتیبة، المعارف: ۲۱۷، البلاذری، أنساب الأشراف ۴۱۲: ۲.

***** ینبع: هی عن یمین رضوی لمن کان منحدراً من المدینة إلی البحر علی لیلة من رضوی من المدینة علی سبع مراحل وهی لبنی حسن بن علی وکان یسکنها الأنصار وجهینة ولیث، وفیها عیون عذاب غزیرة، وهی قریة غناء وودایها یصب فی غیقة، وبها حصن به نخیل وماء وزرع، وبها وقوف لعلی بن أبی طالب رضی الله عنه، یتولاها ولده. ینظر: یاقوت الحموی، معجم البلدان ۴۴۹: ۵- ۴۵۰

۷- ینظر: تاریخ الطبری ۱۵۴: ۵، البخاری، سر السلسلة العلویة: ۹۶.

۸- ینظر: عمدة الطالب: ۳۳۱.

۹- ینظر: البخاری، التاریخ الصغیر ۲۲۸: ۲.

۱۰- ینظر: المصعب الزبیری، نسب قریش: ۴۲- ۴۳، ابن عساکر، تاریخ دمشق ۳۰۲: ۴۵، ابن حجر، تهذیب التهذیب ۴۲۶: ۷.

۱۱- ینظر، البکری، معجم ما استعجم ۲۶۲: ۱، معجم البلدان ۴۵۰: ۵.

ص: ۱۳۰

وللأسف الشديد لم يبق لعمر الأطرف قبر ظاهر ومعروف فى ينبع، وهذا ما أكدته إحدى الدراسات الجادة والمعنية بتعيين وتوثيق مراقد وقبور أعلام المسلمين، وذلک بإمكانية وجدوى الكشف عن قبر عمر الأطرف بينبع وتعيينه، إذ انتهى مؤلفها إلى نتيجة مفادها: «واليوم لم يعرف قبر بارز معنون حسب تتبعنا ووقوفنا على كثير من أقوال المؤرخين وأهل السيرة» (۱).

المبحث الثانى: الأحاديث والروايات التى رواها عمر الأطرف وقيمتها العلمية

تنوعت الأحاديث والروايات التى رواها عمر الأطرف، حتى عد من الرواة الأوائل (۲)، فشمل هذا التنوع مناحى عدة؛ من ذكره الأحاديث النبوية التى تضمنت أحكامه وسننه، والإشادة بدور والده الإمام على (ع) فى مسار الدعوة الإسلامية ومناقبه فيها؛ إلى ذكر ما سمعه من أبيه عن أحداث السيرة وحياة صاحبها (خاتم الأنبياء محمد (ص))، ومن ثم الرواية للكلمات والأخبار التى قالها أبوه (الإمام على (ع)) فى الحوادث التى عاصرها، والمواقف التى مرت به، إذا ماعلمنا أن عمر قد لازم أباه فى حلّه وترحاله حتى أيامه الأخيرة (۳)، مع العلم أن مجمل الأحاديث والروايات التى رواها عمر لم تكن بحجم ما نقله الرواة والمحدثون من بقية إخوته (الحسن والحسين (عليهما السلام) ومحمد بن الحنفية)، وذلک راجع إلى عمره الصغير قياساً بهم، فهو كما لاحظنا سابقاً أصغر ولد على (ع) من الذكور (۴).

فضلًا عن ذلک، نجد اقتصار الرواة عنه على أولاده وأهل بيته فقط، إذْ إن طريق رواياته يتشعب من أولاده وأحفادهم إلى بقية الناس وليس إلى الناس مباشرة، وهذا مما يدفعنا إلى القول: إن عمر لم يكن من أصحاب الحلقات، فضلًا عما كان يعرف عنه من حدّة المزاج، والتى توضحه مواقفه التى ذكرناها آنفاً، وما ذكره أحد النسابة من أحفاده فى صفاته التى كان فيه بأنه كان ذا لسان (۵).

وربما لم يكن عمر يرغب بالشهرة والبروز فى الحياة العامة، وهذا مادفع بعض المحدثين إلى الشک فى مصداقية روايته للأحاديث المنسوبة روايتها إليه- بالرغم من توثيقهم لشخص عمر فقالوا: «عمر بن على بن أبى طالب، تابعى ثقة» (۶)- لأنها لم تأتِ معظمها بزعمهم إلا من طريق واحد، فضلًا عن شكهم فى وثاقة الناقل لتلک الأحاديث والروايات من أحفاد عمر الأطرف (عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على) والتى كانت معظم الروايات ترجع إلى طريقه، إذ قال فيه ابن حبان (۳۵۴ ه-): «يروى عن أبيه عن آبائه أشياء موضوعة لا يحلّ الاحتجاج به كأنه كان يهم ويخطىء حتى كان يجىء بالأشياء الموضوعة عن أسلافه فبطل الاحتجاج بما يرويه لما وصفت» (۷)، ويضيف فى مكان آخر فى تقييمه للمجموع المنسوب لعيسى من أحاديث آبائه: «أخبرنا بهذه الأحاديث كلها إسحاق بن أحمد القطان، قال: حدثنا يوسف بن موسى القطان قال: حدثنا عيسى بن عبد الله قال: حدثنا أبى، عن أبيه، عن جده على بن أبى طالب، فى نسخة كتبناها عنه أكثرها معمولة» (۸).

إن وراءهذا التضعيف والإسقاط لأحاديث عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على عن آبائه من قبل بعض المحدثين غايات ومقاصد عدة، إذ نجد عيسى المبارک- وكما يلقب- (۹)، من المهتمين بجمع الأحاديث النبوية التى قيلت بفضائل ومناقب أهل البيت (عليهم السلام) وجده أمير المؤمنين على (ع)، ومثالب أعدائه ومناوئيه، فضلًا عن كونه من أصحاب الإمامين الصادق والكاظم (عليهما السلام)، ومقدماً عندهم، وراوٍ لأحاديثهم (۱۰)، حتى فى بعض المواقف نجده يسأل الإمام الصادق (ع) عن الإمام بعده واهتمام الصادق (ع) بسؤاله (۱۱)، فضلًا عن تعاطفه مع الثورات التى قام بها العلويون فى العصر العباسى، إذ نجده يرثى قتلى وقعة فخ سنة (۱۶۹ ه-) ويشنع على أعدائهم والذين ناصبوا العداوة لأهل هذا البيت (۱۲).

۱- حرز الدين، مراقد المعارف ۱۰۹: ۲.

۲- ابن سعد، الطبقات ۱۱۷: ۵.

۳- الشيخ الطوسى، الأمالى: ۵۹۵.

۴- الفخر الرازى، الشجرة المباركة: ۲۰۳، المزى، تهذيب الكمال ۴۶۸: ۲۱- ۴۶۹.

۵- العمرى النسابة، المجدى فى أنساب الطالبيين: ۱۹۷.

۶- إبن عساكر، تاريخ دمشق ۳۰۲: ۴۵- ۳۰۷.

۷- ابن حبان، المجروحين ۱۲۱: ۲- ۱۲۳.

۸- المصدر نفسه ۱۲۱: ۲- ۱۲۳.

۹- الأصفهانى، معجم الشعراء ۳۲۱: ۹.

۱۰- ينظر، الصدوق، من لايحضره الفقيه، ۴۹۴: ۴، النجاشى، الرجال: ۲۹۵.

۱۱- ينظر، الكلينى، الكافى ۲۸۶: ۱، ابن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة: ۱۲۴.

۱۲- المرزبانى، معجم الشعراء: ۱۲۹.

ص: ۱۳۱

وهذا المسلک مما لاشک فیه یجعله محل اتهام لدی بعضهم، فیما یقوله من أحادیث وروایات لایروق لهم سماعها ما دام یمثل خطاً معارضاً لهم ولأفکارهم، وهذا ما جعل المصادر الحدیثیة لاتورد بعضاً من الأحادیث النبویة التی رواها أحفاد عمر الأطرف فی مصنفاتهم؛ بل قسماً من کتب التراجم قد سردت أحادیث لم توردها کتب الحدیث، وهذا مما سنلاحظه فی العرض التالی للأحادیث النبویة التی رواها عمر الأطرف.

والمستغرب من کل ماتقدم، هو روایة عمر الأطرف الحدیث عن عمر بن الخطاب حسبما ذکره بعض الذین دونوا أخبار عمر الأطرف وأحواله (۱)، وهذا مما لم نجده فی طریق حدیث أو روایة واحدة من التی نقلها المحدثون والمؤرخون عنه، ینتهی طریق سندها إلی عمر بن الخطاب، فمتی سمع الحدیث من عمر بن الخطاب؟ وهو قد ولد فی أیامه کما ذکرنا سابقا! ولم تکن مدة خلافة عمر للمسلمین سوی عشر سنوات (۲).

إنبری أحد محدثی الإمامیة (الجعابی) ومصنفیهم إلی تجمیع الروایات والأحادیث التی نقلها عمر الأطرف فی مصنف مستقل کما أشرنا آنفاً، وللأسف فَقَدْ فُقِدَ هذا المسند مع ما فُقِدَ من عیون تراثنا، ونستطیع من خلال ما تجمع لدینا من أحادیث وروایات من إعادة تبویب وتنسیق ودراسة الإرث الفکری الذی نسب نقله وقوله إلی الأطرف، إذ اشتملت تلک الأحادیث والروایات التی رواها عمر الأطرف عن أبیه الإمام علی (ع) علی محاور عدة هی:

أولًا: السنة النبویة: نقلت کتب الحدیث والمتون والمساند نصوصاً من الأحادیث النبویة، کان عمر الأطرف فی طرق إسناد البعض منها، وإن کانت بمجملها لاتشکل مسنداً کبیراً، مقارنة بما رواه تابعون آخرون، وهذه الأحادیث قد تنوعت الجوانب التی تضمنتها، وهذه الجوانب هی:

أ- الأحکام الشرعیة: سرد لنا عمر الأطرف عدة أحادیث نبویة سمعها من طریق أبیه الإمام علی (ع) حول بعض الأحکام والمسائل الشرعیة، إذ قال: «قال رسول الله (ص): ثلاث یا علی لا تؤخرهن: الصلاة إذا آتت، و الجنازة إذا حضرت، و الأیم إذا وجدت کفؤاً» (۳).

ووردت سنة نبویة من طریق عمر الأطرف، یحدد بها وقت وأوان صلاة العشاء، إذ قال: «إن علیاً کان إذا سافر سار بعدما تغرب الشمس حتی تکاد أن تظلم ثم ینزل فیصلی المغرب ثم یدعو بعشائه فیتعشی ثم یصلی العشاء، ثم یرتحل ویقول: هکذا کان رسول الله (ص) یصنع» (۴)، وفی مورد آخر یبین سنة رسول الله (ص) وأفعاله فی أثناء صلاته، ولاسیما فی قراءته للسور فی الرکعتین الأُولی منها، وفق ماشاهده أبوه (الإمام علی (ع)) من فعل رسول الله (ص)، إذ قال: «کان رسول الله (ص) یجهر ببسم الله الرحمن الرحیم فی السورتین جمیعاً» (۵).

سرد لنا الأطرف أیضاً حکماً لرسول الله (ص) من طریق علی (ع) فی المسکرات سواء قلت أم کثرت، إذ قال: «قال رسول الله (ص): کل مسکر حرام، وما أسکر کثیره فقلیله حرام، وقال رسول الله (ص): لا أحل مسکراً» (۶).

ونقل الأطرف أیضاً حکماً لأبیه (ع) بما وعاه وسمعه عن رسول‌الله (ص) فی رجل نکح امرأة فأصدقته المرأة واشترطت أن بیدها الجماع والطلاق فقال علی (ع): «قد خالفت السنة وولیت الحق من لم یوله الله عز وجل، فقضی أن علیه الصدقة وبید الزوج الجماع والفرقة وقال: ذلک السنّة. وقال علی: لا یشترط المخطوب إلیه طلاقاً» (۷).

وفی مورد آخر نجد الأطرف ینقل حدیثاً عن النبی (ص) فی وصف مروره علی بعض القبور التی فی البقیع فقال (ص): «إنهما یعذبان وما یعذبان فی کبیر، أما أحدهما فکان لا ینثر عن بوله، وأما الآخر فکان یمشی بالنمیمة» (۸).

۱- ینظر، ابن قتیبهٔ، المعارف: ۲۱۷، البلاذری، أنساب الأشراف ۴۱۲: ۲.

۲- البلاذری، أنساب الأشراف ۴۱۳: ۲، ابن شبهٔ، تاریخ المدینهٔ ۷۵۵: ۲، ابن عساکر، تاریخ دمشق، ۳۰۴: ۴۵.

۳- ابن حنبل، المسند ۱۰۵: ۱، البخاری، التاریخ الکبیر ۷۷: ۱، الحاکم النیسابوری، المستدرک ۱۷۶: ۲.

۴- ابن أبی شیبهٔ، المصنف، ۴۵۸: ۲.

۵- الدارقطنی، السنن ۳۰۲: ۱.

۶- المصدر نفسه ۲۵۰: ۴.

۷- ابن ماکولا، الإکمال ۵۹۱: ۳.

۸- إبن عساکر، تاریخ دمشق ۲۰۱: ۳۶، المتقی الهندی، کنز العمال ۵۳۱: ۹.

ص: ۱۳۲

ونقرأ أیضاً فی حدیث یسنده الأطرف إلی النبی (ص)، یبین فیه ما یجب علی الرجل والمرأة من ستر عورتهما عن الناظرین، حتی وإن کانا من نفس جنسهما فیقول (ص): «عورة الرجل علی الرجل کعورة المرأة علی الرجل و عورة المرأة علی المرأة کعورة المرأة علی الرجل» (۱).

وتستمر الأحادیث النبویة المرویة بطریق عمر الأطرف، لینقل حدیثاً یتضمن بعض الوصایا التی أوصی بها رسول الله (ص) أمته حیث قال (ص): «لا تزنوا فتذهب لذة نسائکم من أجوافکم، وعفوا تعف نساؤکم، حتی أن بنی فلان زنوا فزنت نساؤهم» (۲).

روی عمر أیضاً أحادیث نبویة أخرمن طریق أبیه (ع) فی الرغائب ومستحبات الأعمال، إذ قال: «قال رسول الله (ص): إن فی الجمعة لساعة لا یوافقها مسلم یسأل الله فیها إلا أعطاه إیاه» (۳).

ونقل عمر لأولاده حواراً جری بینه وبین أبیه الإمام علی (ع) فیما سمعه (ع) من حدیث رسول الله (ص) ما نصه: «إن الله یحب أن یأخذ برخصه کما یحب أن یأخذ بعزائمه، إن الله بعثنی بالحنیفیة السمحة دین إبراهیم، ثم قرأ وَ ما جَعَلَ عَلَیْکُمْ فِی الدِّینِ مِنْ حَرَجٍ فقال لی أبی: یا بنی ما حرج؟ قلت: لا أدری! قال: الضیق» ((۴).

ب- أحادیث الفضائل: یتضح من مجمل الأحادیث، التی تجمعت لدینا من طریق عمر الأطرف، أنها قد حوت علی مجموعة طیبة من الأحادیث النبویة، التی قیلت فی فضائل الإمام علی (ع)، ومواقفه المشرفة فی الذبّ عن الإسلام، ومکانة أهل بیته (علیهم السلام)، إذ قال (ص): «إنی ترکت فیکم ما إن أخذتم به لن تضلوا کتاب الله سببه بید الله وسببه بأیدیکم وأهل بیتی» (۵)، وأضاف أیضاً فی نقله لمثل هذه الأحادیث إذ قال: «قال رسول الله (ص): أنا وفاطمة والحسن والحسین مجتمعون، وهذه فاطمة وهذان الحسن والحسین ومن أحبهما یوم القیامة فی الجنة یأکل ویشرب حتی یفرق بین العباد» (۶).

وفی مورد منفصل ینقل الأطرف حدیثاً للنبی (ص) فی ذلک الأمر ما نصه: «قال رسول الله (ص): شفاعتی لأمتی من أحب أهل بیتی وهم شیعتی» (۷).

وتنوعت الأحادیث النبویة التی قیلت بحق الإمام علی (ع) التی نقلها عمر الأطرف، إذ کان بعضها إیضاحاً من الرسول (ص) لمدلول آیة قرآنیة نزلت علیه فی حادثة معینة، فقد وردت نصوص عدیدة بینت هذا الأمر، إذ قال رسول الله (ص): «یا علی! إن الله أمرنی أن أدنیک وأعلمک لتعی، وأنزلت هذه الآیة، وَ تَعِیَها أُذُنٌ واعِیَةٌ فأنت أذن واعیة لعلمی» (۸).

وکذلک الحال فی سبب نزول الآیة: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ هُمْ راکِعُونَ (۹)، إذ تحدث الأطرف عن خلجات الرسول (ص) حین نزول هذه الآیة علیه، فقال مسنداً ذلک إلی أبیه (ع): «نزلت هذه الآیة علی رسول الله (ص) إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ هُمْ راکِعُونَ فخرج رسول الله (ص) فدخل المسجد والناس یصلون بین راکع وقائم وإذا سائل فقال: یا سائل! هل أعطاک أحد شیئاً؟ فقال: لا إلا ذاک الراکع- وأشار لعلی- أعطانی خاتمه» (۱۰).

روی عمر الأطرف أیضاً حدیث الطائر المشوی الذی روته المصادر الحدیثیة وبطرق متعددة ترجع بأجمعها الی الصحابی أنس بن مالک، حتی أصبح هذا الحدیث من الشهرة والانتشار بمکان أن روته معظم المصادر الحدیثیة (۱۱). إذ کان طریقه لهذا الحدیث یرجع إلی والده الإمام علی (ع)، فقد ذکر مانصه: «أهدی لرسول الله (ص) طیر یقال له: الحباری، فوضع بین یدیه وکان أنس بن مالک یحجبه فرفع النبی (ص) یده إلی الله ثم قال: اللهم ائتنی بأحب خلقک إلیک یأکل معی من هذا الطیر. قال: فجاء علی فاستأذن، فقال له أنس، إن رسول الله (ص) یعنی علی حاجة، فرجع ثم دعا رسول‌الله (ص) فرجع، ثم دعا الثالثة فجاء علی فأدخله فلما رآه رسول‌الله (ص) قال: اللهم وإلیّ، فأکل معه، فلما أکمل رسول الله (ص) خرج علی» (۱۲).

۱– الحاكم النيسابورى، المستدرك ۱۹۹: ۴.

۲– ابن عدى، الكامل فى الضعفاء، ۲۴۴: ۵.

۳– ابن حنبل، المسند، ۴۵۷: ۲.

۴– إبن عساكر، تاريخ دمشق ۴۱۴: ۵۴.

۵– أبى عاصم، كتاب السنة: ۶۱۱، المتقى الهندى، كنز العمال ۳۷۹: ۱.

۶– إبن عساكر، تاريخ دمشق ۲۲۷: ۱۳.

۷– الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد ۱۴۶: ۲.

۸– ابو نعيم الأصفهانى، حلية الأولياء ۶۷: ۱، الديلمى، فردوس الأخبار، ۳۲۹: ۵.

۹– سورة المائدة: ۵۵.

۱۰– الحاكم الحسكانى، شواهد التنزيل ۲۲۶: ۱– ۲۲۷، الحاكم النيسابورى، معرفة علوم الحديث: ۱۰۲، ابن كثير، البداية و النهاية، ۳۵۸: ۷.

۱۱– ينظر، ابن حنبل، فضائل الصحابة ۵۶۰: ۲، البخارى، التاريخ الكبير ۲: ۲، النسائى، خصائص الإمام على: ۲۹ – ۳۰، الحاكم النيسابورى، المستدرك ۱۴۱: ۳– ۱۴۲.

۱۲– إبن عساكر، تاريخ دمشق، ۲۴۵: ۴۲– ۲۴۶؛ وقد وردت هذه الحادثة بطرق أخر: ابن حنبل، فضائل الصحابة ۵۶۰: ۲، البخارى، التاريخ الكبير ۲: ۲، النسائى، خصائص على: ۲۹– ۳۰، الحاكم النيسابورى، المستدرك ۱۴۱: ۳– ۱۴۲.

ص: ۱۳۳

ويسرد حديثاً آخر فى فضائل الإمام على (ع) حين استعمله رسول‌الله (ص) على اليمن إذ قال مسنداً ذلك إلى على بن أبى طالب (ع)- ما نصه: «دعانى رسول الله (ص) ليستعملنى على اليمن فقلت له: يا رسول‌الله إنى شاب حدث السن ولا علم لى بالقضاء، فضرب رسول‌الله (ص) فى صدرى مرتين أو قال ثلاثاً، وهو يقول: اللهم اهد قلبه وثبت لسانه، فكأنما كل علم عندى وحشّى قلبى علماً وفقهاً فما شككت فى قضاء بين اثنين» (۱).

نقل عمر الأطرف أيضاً حديث (غدير خم)******، حين رجع رسول الله (ص) من حجه الأخير سنة ۱۰ ه- وخطبة الوداع، ولاسيما محل الشاهد منها فى ذكر فضيلة على (ع) ومكانته إذ روى عن أبيه (ع) نص هذه الحادثة، فقال: «... إن النبى (ص) قام بحفرة الشجرة بخم وهو آخذ بيد على فقال: أيها الناس! ألستم تشهدون أن الله ربكم؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تشهدون أن الله ورسوله أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى. وإن الله ورسوله مولاكم؟ قالوا: بلى. قال: فمن كنت مولاه فإن هذا مولاه» (۲).

هذا، وقد وردت حادثة غدير خم من طريق عمر الأطرف عن أبيه (ع) بتفصيل وإسهاب أكثر من ذلك فى مصادر الشيعة، وذلك برواية نقلها أحد كتب الزيدية، بينت اهتمام هذه الشخصية برواية هذه الحادثة، وإشاعتها (۳)، وهذا مما لم تورده بقية مصادر المسلمين ومصنفاتهم.

وترد رواية أخرى عن عمر بن على بن أبى طالب عن أبيه (ع) يبين فيها ماقاله الرسول (ص) لسلمان الفارسى ۲ فى حق على (ع)، إذ قال: «قلما طلعت على رسول الله (ص) وأنا معه إلا ضرب بين كتفى فقال: ياسلمان! هذا وحزبه المفلحون» (۴).

وفى رواية أخرى تتفق مع المضمون السابق ينقل الأطرف عن أبيه حادثة وقعت فى أيام الرسول (ص)، إذ قال: «قال رسول الله (ص): إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، ولكنه هذا خاصف النعل، وفى يد على نعل يخصفها» (۵).

وتستمر قرائن تلك الروايات التى حدث بها عمر الأطرف عن فضائل أهل البيت بما سمعه عن أبيه عن رسول الله (ص)، حتى نجد فى إحداها قد رد على بعض من أراد الطعن والتوهين فى مثل تلك الأخبار، إذ قال فى حديث نقله عن رسول الله (ص) مانصه: «قال رسول‌الله: أنا و فاطمة و حسن و حسين مجتمعون، ومن أحبنا، يوم القيامة نأكل ونشرب حتى يفرق بين العباد»، فبلغ ذلك رجلًا من الناس فسأل عنه فأخبرته فقال: كيف بالعرض والحساب؟ فقلت له: كيف كان لصاحب ياسين بذلك حين أدخل الجنة من ساعته (۶).

ويوافق معنى الحديث السابق ماذكره عن أبيه (ع) أيضاً فى تبيان ماقاله الرسول (ص) فى حقه: «إن الله تعالى عهد إلىّ فى على عهداً قلت: رب بينه لى قال: اسمع يا محمد قال: إن علياً راية الهدى بعدى وإمام أوليائى ونور من أطاعنى، وهو الكلمة التى أكرمتها المتقين؛ فمن أحبه أحبنى ومن أبغضه أبغضنى»، فبشر علياً (ع) بذلك (۷).

وفى حديث آخر ينقل موقفاً للإمام على (ع) قال: «جئت رسول‌الله (ص) يوماً فى ملأ من قريش فنظر إلىّ وقال: يا على! إنما مثلك فى هذه الأمة كمثل عيسى بن مريم أحبه قوم فأفرطوا فيه وأبغضه قوم فأفرطوا فيه قال: فضحك الملأ الذين عنده وقالوا: انظروا كيف يشبه ابن عمه بعيسى فأنزل الله القرآن: وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» (۸).

مثلما كانت تلك الأحاديث السابقة- التى رواها وأشاعها عمر الأطرف- مبرزة لمكانة الإمام على (ع)، فقد جاءت أحاديث أخرى رواها الأطرف فى تفهيم الناس لمكانة أهل بيت النبى (عليهم السلام)، وذلك بعد أن أزعجت الرسول (ص) مواقف قريش منهم، إذ قال العباس بن عبد المطلب يوماً له (ص): «يا رسول الله! إن قريشاً تلقانا فيما بينهم بوجوه لانلقاها بها، فقال (ص): أما الإيمان لا يدخل أجوافهم حتى يحبوكم لى» (۹).

۱- الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد ۴۴۳: ۱۲، إبن عساكر، تاريخ دمشق ۳۹۰: ۴۲.

***** خم: اسم موضع غدير خم قال السهيلى عن ابن إسحاق، وخم بئر كلاب بن مرة وهو اسم رجل صباغ أضيف إليه الغدير الذى هو بين مكة والمدينة بالجحفة، وقيل هو على ثلاثة أميال من الجحفة، وواديه يصب فى البحر لا نبت فيه غير المرخ والثمام والأراك والعشر، وبه أناس من خزاعة وكنانة غير كثير، خطب به رسول الله ۹ و هذا الوادى موصوف بكثرة الوخامة، ينظر، ياقوت الحموى، معجم البلدان ۳۸۹: ۲.

۲- أبى عاصم، كتاب السنة: ۵۶۵، إبن عساكر، تاريخ دمشق ۲۱۳: ۴۲.

۳- ينظر: الكوفى، مناقب أمير المؤمنين ۲: ۲۹۸- ۲۹۹.

۴- الحاكم الحسكانى، شواهد التنزيل ۹۱: ۱- ۹۲، إبن عساكر، تاريخ دمشق ۳۳۲: ۴۲.

۵- إبن عساكر، تاريخ دمشق ۴۵۱: ۴۲.

۶- الطبرانى، المعجم الكبير ۴۱: ۳.

۷- إبن عساكر، تاريخ دمشق ۲۰۱: ۳۶، المتقى الهندى، كنز العمال ۵۳۱: ۹.

۸- ابن شهر آشوب، مناقب آل أبى طالب ۲۲۷: ۱، ابن الجوزى، العلل المتناهية ۲۲۸: ۱، المتقى الهندى، كنز العمال ۵۰۰: ۲.

۹- ابن عساكر، تاريخ دمشق ۳۰۲: ۲۶.

ص: ۱۳۴

ونقل الأطرف أيضاً محاورة جرت بين رسول الله (ص) والإمام على بن أبى طالب (ع) قائلًا له: «يا رسول الله! أمنّا الهداة أم من غيرنا؟ قال: لا بل منّا، بنا يختم الدين كما افتتح، بنا يستنقذ من الضلالة! بنا يجمع الله بين قلوبهم بعد عداوة، كما بنا جمع بينهم بعد عداوة الشرك. قال على: يا رسول الله! فمن بقى أمؤمنون أم كافرون؟ قال: مفتون وكافر» (۱).

تلك هى الأحاديث التى نقلتها المصادر المتقدمة بطريق عمر الأطرف، والتى أظهرت مدى الاهتمام والتركيز على رواية أحاديث الفضائل والمناقب التى خصّ بها الإمام على وأهل البيت (عليهم السلام).

ثانياً: السيرة النبوية: حفلت الروايات التى تجمعت لدينا من طريق عمر الأطرف، بجوانب متعددة ومتنوعة من حياة الرسول الأعظم محمد (ص)، وإن كان بعض من هذه الروايات، مما يقف بالضد من روايات أخر خالفتها فى مضمونها وتفاصيلها، ولاسيما تلك التى تختلف بها وجهات النظر، وتتدخل فيها المذاهب الفكرية والعقائدية، إذ أظهرت تلك الروايات التى حدّث بها ورواها عمر الأطرف، الجوانب التى اهتم بها من أخبار السيرة، وما أراد التركيز عليه منها، وهذا مما سيعطينا إيضاحاً لإسهام هذه الشخصية وموقعها فى رواية أخبار السيرة، من بين بقية الرواة لها من معاصريه، إذا ماعلمنا، إن مصدره فى هذه الأخبار لم يكن سوى والده الإمام على (ع)، وهذا مما يعطى أخباره مصداقية قد لا تتوفر عند غيره من الناقلين والرواة لأخبار السيرة من غير أهل البيت (عليهم السلام)، بكون مثل هذه الروايات من الأهمية بمكان؛ أن صاحبها يروى عن شاهد عيان؛ عاصر حوادث عصر الرسالة منذ أيامها الأولى، وحتى التحاق النبى محمد (ص) بالرفيق الأعلى.

شملت روايات السيرة من طريق عمر الأطرف محاور عدة، ولكنها لم تكن على نسق متصل بجميع مراحل الحياة التى عاشها النبى الكريم محمد (ص)؛ بل كانت رواياته متنقلة بين حوادث السيرة المختلفة سواء اليومية منها أم المعنوية من صفاته وخصائصه وشمائله وصفاته، مع التركيز فى معظم تلك الحوادث على الحقبة المدنية من عصر الرسالة، إذ لم نجد فى ثنايا تلك الروايات التى نقلها عمر تركيزاً واضحاً للحقبة المكية من هذا العصر، إذ يبين العرض الآتى لمجمل الروايات حقيقة هذه النتيجة، وحتى هذه الحوادث التى ذكرها لم تكن جميعها معروضة بتفصيل مسهب، بل كان بعضها يشتمل على شذرات بسيطة عن الحادثة التى يتناولها بالذكر، فضلًا عن ذلك فإن مجمل الروايات التى ذكرها عن سيرة الرسول (ص) قد اشتركت- إن لم نقل كلها فجلّها- بخصيصة واحدة، وهى: التركيز على ما كان من دور للإمام على (ع) فى تلك الحادثة، وهذه نتيجة سنلحظها فى العرض الآتى لحوادث السيرة التى ينتهى طريق روايتها إلى عمر الأطرف، والتى اشتملت على الجوانب الآتية:

أ- بناء الكعبة قبيل الإسلام:

تحدثت مصادر السيرة عن حادثة بناء قريش للكعبة قبيل الإسلام بعد أن دهمها سيل شديد تصدعت من جراء ذلك أركانها، وما كان فى هذه الحادثة من دور مبرز لرسول الله (ص) فى هذا البناء الذى حصل قبل خمس سنوات من البعثة المباركة (۲).

جاءت روايتان من طريق عمر الأطرف عن أخبار هذه الحادثة: الأولى تمثل حديثاً لرسول (ص) يخبر فيه عن دوره فى هذا البناء بما أخبر به الإمام على (ع)، إذ قال (ع): «قال رسول الله: أنا وضعت الركن بيدى يوم اختلفت قريش فى وضعه (۳)».

أما الثانية فكانت رواية سمعها الأطرف من والده الإمام على (ع)، حول ماجرى على الكعبة من الحوادث، إذ قال (ع): «لما احترقت الكعبة فى الجاهلية هدمتها قريش لتبنيها فكشف عن ركن من أركانها من الأساس فإذا حجر فيه مكتوب أنا يعفر بن عبد قرا أقرأ على ربى السلام من رأس ثلاثة آلاف سنة» (۴).

۱- الزجاجى، أخبار أبو القاسم الزجاجى: ۱۹۵.

۲- ينظر، ابن سعد، الطبقات ۱۴۵: ۱- ۱۴۸، ابن هشام، السيرة النبوية ۱۲۴: ۱- ۱۲۸، اليعقوبى، التاريخ ۱۹: ۲- ۱۸.

۳- الأزرقى، أخبار مكة ۱۷۲: ۱.

۴- المصدر نفسه ۱۷۳: ۱- ۱۷۴.

ص: ۱۳۵

والملاحظ على هـذه الروايـة إنهـا من الانفرادات التى انفرد عمر الأطرف بروايتها من بين باقى الرواة، إذ لم نجـد لهـذه الروايـة طريقاً آخر- فى باقى المصادر الإسلامية الأخرى- غير الطريق الذى تنتهى سلسلة إسناده إلى الأطرف.

ب- مباهلة نصارى نجران:

كانت هـذه الحادثـة التى حدثت فى سنـة (۱۰ ه-) (۱) من الحوادث المشـهورة فى عصـر الرسالـة حتى نزلت فيها آيـة المباهلـة: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (۲).

عرض المفسـرون ومؤرخو السيرة تفاصيل هذه الحادثة بتباينٍ ظاهر، وذلك من حيث سرد تفاصيل هذه الحادثة ومجرياتها، إذ اكتفت بعض المصـادر بـذكر الحادثـة، دون التطرق إلى الخصـيصة التى خص بهـا الرسـول (ص) فيهـا أهـل بيتـه من على وفاطمـة والحسـن والحسـين (عليهم السـلام)، فى تقديمهم معه للمباهلة (۳)، ولكن مصـادر أخرى أوردت ذلـك بسـند ينتهى طريقه إلى عمر الأـطرف وغيره، إذ انفرد أبو الفرج الأصفهانى (۳۸۵ ه-) برواية حادثة المباهلة من طريق عمر الأطرف، وذلك بتفصـيل قلما نجده عند آخر، إذ قال: «قـدم وفـد نصارى نجران وفيهم الأسـقف، والعاقب وأبو حبشٍ، والسـيد، وقيس، وعبـد المسـيح، وابن عبد المسـيح الحارث وهو غلام، فلما صلى النبى (ص) الصبح، قاموا فكبروا بين يديه، ثم تقدمهم الأسقف فقال: يا أبا القاسم، موسى من أبوه؟ قال: عمران. قال: فيوسف من أبوه؟ قـال: يعقوب. قـال: فـأنت من أبوك؟ قال: أبى، عبـد الله بن عبـد المطلب. قال: فعيسـى من أبوه؟ فسـكت رسول الله (ص)، فانقض عليه جبريل (ع) فقال: إِنَّ مَثَلَ عِيسـى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ فتلاها رسول الله (ص)؛ فنزا الأسقف ثم دير به مغشياً عليه، ثم رفع رأسه إلى النبى (ص) فقـال له: أتزعم أن الله جـل وعلاـ أوحى إليك أن عيسـى خلق من تراب! ما نجـد هـذا فيما أوحى إليك، ولا نجده فيما أوحى إلينا؛ ولا تجده اليهود فيما أوحى إليهم. فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ.

فقال له النصرانى: أنصفتنا يا أبا القاسم، فمتى نباهلك؟ فقال: بالغداة إن شاء الله تعالى.

وانصـرف النصارى، وانصـرفت اليهود وهى تقول: والله ما نبالى أيهما أهلك الله الحنيفية أو النصرانية. فلما صارت النصارى إلى بيوتها قالوا: والله إنكم لتعلمون أنه نبى، ولئن باهلناه إنا لنخشـى أن نهلك، ولكن اسـتقيلوه لعلّه يقيلنا. وغدا النبى (ص) من الصـبح وغدا معه بعلى وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم. فلما صلى الصبح، انصرف فاستقبل الناس بوجهه، ثم برك باركاً، وجاء بعلى فأقامه بين يديه، وجاء بفاطمة فأقامها بين كتفيه، وجاء بحسنٍ فأقامه عن يمينه، وجاء بحسينٍ فأقام عن يساره.

فأقبلوا يسـتترون بالخشب والمسـجد فرقاً أن يبدأهم بالمباهلة إذا رآهم، حتى بركوا بين يديه، ثم صاحوا: يا أبا القاسم! أقلنا أقالك الله عثرتـك. فقـال النبى (ص): نعم قـال: ولـم يسـأل النبى (ص) شـيئاً قـط إلا أعطاه فقال: قـد أقلتكم فولوا. فلما ولوا قال النبى (ص): «أما والذى بعثنى بالحق لو باهلتهم ما بقى على وجه الأرض نصرانى ولا نصرانية إلا أهلكهم الله تعالى» (۴).

كانت هـذه الروايـة- وبهذه الصـيغة- التى جاءت بطريق عمر الأطرف، قد رويت بطرق أخرى فى أحد المصادر (۵) ولكن هذا الطريق هو محل الشاهد، إذ إن رواية عمر لحادثة المباهلة هذه؛ ليعطينا صورة مضافة لطبيعة الحوادث التى أشاعها من أخبار السيرة النبوية.

ج- معركة بدر:

خص الأطرف أحداث هذه المعركة المهمة بتاريخ المسلمين- والتى حدثت فى السنة الثانية للهجرة- بجانب من رواياته التى رواها فى حوادث السيرة، إذ وجدناه يسلّط الضوء على ما سمعه من أبيه الإمام على (ع)، وهو يصف خلجات

۱- تاريخ الطبرى ۳۸۳: ۳.

۲- سورة آل عمران: ۶۱.

۳- ينظر، ابن هشام، السيرة النبوية ۱۲۳: ۳- ۱۲۴، تاريخ الطبرى ۳۸۳: ۳، إبن عساكر، تاريخ دمشق ۴۵۳: ۲۵.

۴- أبوالفرج الأصفهانى، الأغانى ۱۲: ۷.

۵- ينظر، المفيد، الإرشاد ۱۷۶: ۱- ۱۸۰.

ص: ۱۳۶

الرسول (ص)، وتصرفاته فى هذه المعركة، إذ قال فى سند رواية نقلتها المصادر مفادها: حدث محمد بن المثنى و محمد بن معمر قالا: نا عبيد الله بن عبد المجيد قال: نا عبيد الله بن موهب قال: حدثنى إسماعيل بن عون، عن عبد الله بن محمد بن عمر بن على، عن أبيه محمد بن عمر، عن أبيه، عن على: قال على (ع): «لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال ثم جئت مسرعاً لأنظر إلى رسول الله (ص) ما فعل فجئت فأجده و هو ساجد يقول: يا حى يا قيوم لا يزيد عليها، فرجعت إلى القتال ثم جئت و هو ساجد يقول ذلك، ثم ذهبت إلى القتال ثم جئت و هو ساجد يقول ذلك، فلم يزل يقول ذلك، حتى فتح الله عليه» (۱).

علق أهل الحديث على هذا الخبر بالقول: «وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن على عن النبى (ص) إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد» (۲).

كانت هذه الرواية هى الرواية اليتيمة لعمر الأطرف عن معركة بدر، إذ لم تورد المصادر التى بين أيدينا رواية أخرى مسندة له يحدث بها بأخبار هذه المعركة.

د- حج النبى ۹:

وردت روايتان بطريق عمر الأطرف عن أبيه الإمام على (ع) فى وصف حج النبى (ص) والمناسك التى عملها فيه، فقال فى الأولى: «أن النبى (ص) ساق مائة بدنة فى حجته» (۳)، وأضاف فى الثانية: «أن النبى (ص) كان قارناً (أى قرن حجه بعمرة) فطاف طوافين وسعى سعيين» (۴).

هـ-- وفاة النبى ۹:

يمكن أن نعد الروايات التى نقلت بطريق عمر الأطرف عن سيرة الرسول (ص)؛ أن الحيز الأكبر منها كان فى حادثة وفاته (ص)، والظروف والملابسات التى رافقتها، فقد جمع العديد من مؤرخى السيرة البارزين تلك الروايات؛ لما وجدوه فيها من إسهاب فى عرض تفاصيل تلك الحادثة، قلما وجدت بهذا الإسهاب عند راو آخر من المتقدمين، والسر فى ذلك، هو مصدر عمر فى هذه الحادثة والشاهد الفعلى لها طوال مدتها منذ اعتلال النبى (ص) إلى أن وضع فى ملحودة قبره الشريف، ليكون آخر من تقع عليه عيناه، ذلك هو الإمام على (ع)، حتى أن المغيرة بن شعبة أراد أن ينال هذا الشرف بأن أسقط خاتمه متعمداً فى حفرة النبى (ص)، ليسترجعه بعدئذ، وذلك بعد أن شارك فى مراسم الدفن، إذ وردت رواية مسندة إلى عمر الأطرف مبينة هذا المعنى، وذاكراً فيها قول أبيه على (ع)، إذ قال: «قال على لما ألقى المغيرة بن شعبة خاتمه فى قبر النبى (ص) لا يتحدث الناس أنك نزلت فى قبر النبى (ص)، ولا تحدث أنت الناس أن خاتمك فى قبره، فنزل على رضى الله عنه و قد رأى موقعه فتناوله فدفعه إليه» (۵).

وذكر عمر الأطرف فى تحديد وقت اعتلال الرسول وتاريخه: «إن النبى (ص) اعتل يوم الأربعاء لليلة بقيت من صفر سنة إحدى عشرة» (۶)، وفى رواية أخرى يقول: «أول ما بدأ برسول الله (ص) شكوه يوم الأربعاء، فكان شكوه إلى أن قبض (ص) ثلاثة عشر يوماً» (۷).

لكن هذه الرواية أشكل عليها من حيث تعداد الأيام ومسمياته، إذ قال السخاوى فى معرض نقده لهذه الرواية: «وأما ما رواه ابن سعد من طريق عمر بن على بن أبى طالب قال: اشتكى رسول الله (ص) يوم الأربعاء لليلة بقيت من صفر، فاشتكى ثلاث عشرة ليلة ومات يوم الاثنين لاثنتى عشرة مضت من ربيع الأول، فمشكل؛ لاستلزامه أن يكون أول صفر الأربعاء، وذلك غير مطابق لكون أول ذى الحجة الخميس مهما فرضت الأشهر الثلاثة، وكذا قول ابن حبان وابن عبد البر: ثم بدأ به مرضه الذى مات منه يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر، يقتضى أن أول صفر الخميس، وهو غير مطابق أيضاً» (۸).

ويضيف فى سرده لحوادث الساعات التى سبقت وفاة الرسول (ص)، فى رواية سمعها من أبيه الإمام على (ع)، قال: «قال رسول الله (ص) فى مرضه: ادعوا لى أخى، قال: فدعى له على، فقال: ادن منى فدنوت منه، فاستند إلى، فلم يزل مستنداً وإنه

۱- ابن سعد، الطبقات ۲۶: ۲، الحاكم النيسابورى، المستدرك ۳۴۴: ۱، ابن كثير، البداية و النهاية، ۲۷۵: ۳- ۲۷۶.

۲- ابن سعد، الطبقات ۲۶: ۲.

۳- ابن حجر الهيثمى، مجمع الزوائد ۴۵۱: ۱.

۴- الدارقطنى، السنن ۲۶۳: ۲.

۵- ابن سعد، الطبقات الكبرى ۳۰۳: ۲، الحاكم النيسابورى، المستدرك ۵۰۷: ۳، الذهبى، سير أعلام النبلاء ۲۶: ۳، المتقى الهندى، كنز العمال، ۲۵۸: ۷- ۲۵۹.

۶- ابن سعد، الطبقات ۲۷۳: ۲.

۷- المصدر نفسه ۲۰۶: ۲.

۸- السخاوى، فتح المغيث ۳۲۰: ۳.

ص: ۱۳۷

ليكلمنى، حتى إن بعض ريق النبى (ص) ليصيبنى، ثم نزل برسول الله (ص)، وثقل فى حجرى، فصحت: يا عباس! أدركنى فإنى هالك، فجاء العباس، فكان جهدهما جميعاً أن أضجعاه» (۱).

وتستمر الروايات التى نقلها عمر عن حادثة وفاة الرسول (ص) بالتلاحق إذ قال: عن على بن أبى طالب قال: «لما أخذنا فى جهاز رسول الله (ص) أغلقنا الباب دون الناس جميعاً فنادت الأنصار نحن أخواله ومكاننا من الإسلام مكاننا، ونادت قريش نحن عصبته، فصاح أبو بكر: يا معشر المسلمين! كل قوم أحق بجنازتهم من غيرهم فننشدكم الله فإنكم إن دخلتم أخرتموهم عنه والله لا يدخل عليه أحد إلا من دعى» (۲).

ويذكر فى مورد آخر، تفاصيل تجهيزه (ص) وصلاة المسلمين عليه، فحين وضع رسول الله (ص) على السرير لصلاة الناس والتسليم عليه وإلقاء نظرة الوداع الأخيرة عليه، قال على (ع): «لا يقوم عليه أحد هو إمامكم حياً وميتاً، فكان يدخل الناس رسلًا رسلًا فيصلون عليه صفاً صفاً ليس لهم إمام، ويكبرون وعلى قائم بحيال رسول الله (ص) يقول: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، اللهم إنا نشهد أن قد بلغ ما نزل إليه ونصح لأمته وجاهد فى سبيل الله، حتى أعز الله دينه وتمت كلمته. اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل إليه وثبتنا بعده واجمع بيننا وبينه، فيقول الناس: آمين، حتى صلى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان» (۳).

ويستطرد فى سرد تلك الحوادث، ليعدد أسماء من تولى تكفينه (ص) والنزول مع على (ع) فى حفرته (ص)، إذ قال: «كفن رسول الله (ص) فى ثلاثة أثواب من كرسف سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة» (۴)، وأضاف فى مورد آخر: «نزل فى حفرة النبى (ص) هو (على) وعباس وعقيل بن أبى طالب وأسامة بن زيد وأوس بن خولى وهم الذين ولوا كفنه» (۵).

حدد عمر الأطرف يوم وفاة الرسول (ص) بيوم الاثنين، لاثنتى عشرة مضت من ربيع الأول، سنة إحدى عشرة من هجرته المباركة (۶).

كانت الروايات التى نقلها عمر الأطرف عن أبيه على (ع) فى حادثة وفاة الرسول (ص)، تعد على الطرف النقيض مما روته عائشة فى هذه الحادثة التى ادعت أن النبى (ص) قد لفظ أنفاسه الأخيرة بين سحرها ونحرها، وجمع الله بين ريقها وريقه (ص) (۷)، والروايات آنفة الذكر تتطابق مع ما رواه أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، عن حادثة وفاة النبى (ص) وما كان فيها للإمام على (ع) من دور، وإن اختلف معهم فى تحديد تاريخ وفاته، التى أرخوها بيوم الثامن والعشرين من صفر سنة إحدى عشرة للهجرة (۸).

و- صفة النبى ۹ وشمائله:

حفلت الروايات التى رواها عمر الأطرف عن سيرة النبى (ص) بنصوص متعددة عن صفاته وشمائله (ص)، وكانت هى الأخرى من طريق والده الإمام على (ع)، إذ تحدث فى رواية من تلك الروايات قال: «قيل لعلى: يا أباحسن! انعت لنا النبى (ص)، قال: «كان أبيض مشرب بياضه حمرة أهدب الأشفار أسود الحدقة، لا قصيراً ولا طويلًا، وهو إلى الطول أقرب، عظيم المناكب فى صدره مسربة لا جعد ولا سبط شثن الكف والقدم إذا مشى تكفأ كأنما يمشى فى صعد، كأن العرق فى وجهه اللؤلؤ، لم أر قبله ولا بعده مثله (ص)» (۹).

ويرد نص آخر بهذا الطريق آنف الذكر، وفى هذا المحور من سيرة النبى (ص) إذ قال عمر فى رواية نسبها لأبيه (ع) مفادها: «بعثنى رسول الله (ص) إلى اليمن فإنى لأخطب يوماً على الناس وحبر من أحبار اليهود واقف فى يده سفر ينظر فيه فنادى إلى، فقال: صف لنا أبا القاسم فقال على رضى الله عنه: رسول الله (ص) ليس بالقصير ولا بالطويل البائن وليس بالجعد القطط ولا بالسبط، هو رجل الشعر أسوده ضخم الرأس مشرب لونه حمرة، عظيم الكراديس شثن الكفين والقدمين، طويل المسربة، وهو الشعر الذى يكون فى النحر إلى السرة، أهدب الأشفار مقرون الحاجبين، صلت الجبين، بعيد ما بين

۱- ابن سعد، الطبقات ۲۶۳: ۲، ابن حجر، فتح البارى ۱۳۹: ۸.

۲- ابن سعد، الطبقات ۲۷۸: ۲.

۳- المتقى الهندى، كنزالعمال ۴۰۸: ۷.

۴- ابن سعد، الطبقات ۲۸۳: ۲.

۵- المصدر نفسه ۳۰۱: ۲.

۶- المصدر نفسه ۲۷۳: ۲.

۷- ينظر: ابن حنبل، المسند ۱۲۱: ۶- ۱۲۲، البخارى، الصحيح ۴۵: ۴، الحاكم النيسابورى، المستدرك ۶: ۴.

۸- ينظر، الكلينى، الكافى ۳۶۵: ۱، المفيد، الإرشاد ۱۸۶: ۱- ۱۸۹، الطبرسى، إعلام الورى، ۲۶۸: ۱- ۲۷۲.

۹- ابن سعد، الطبقات ۴۱۲: ۱، الفسوى، المعرفة والتاريخ ۲۷۸: ۳.

ص: ۱۳۸

المنکبین، إذا مشـی یتکفأ کأنما ینزل من صبب، لم أر قبله مثله ولم أر بعده مثله. قال علی: ثم سکت، فقال لی الحبر: وماذا؟ قال علی: هـذا مـا یحضـرنی. قـال الحبر: فی عینیه حمرة، حسن اللحیـة، حسن الفم، تـام الأـذنین، یقبل جمیعاً ویـدبر جمیعاً فقال علی: هـذه والله صفته، قـال الحبر: وشـیء آخر، فقال علی: وما هو؟ قال الحبر: وفیه جنأ قال علی: هو الـذی قلت لک کأنما ینزل من صـبب قال الحبر: فـإنی أجـد هـذه الصـفة فی سـفر آبـائی ونجـده یبعث من حرم الله وأمنه وموضع بیته، ثم یهـاجر إلی حرم یحرمه هو ویکون له حرمة کحرمـة الحرم الـذی حرم الله، ونجـد أنصاره الـذین هاجر إلیهم قوماً من ولـد عمرو بن عامر أهل نخل وأهل الأرض قبلهم یهود. قال: قال علی: هو هو وهو رسول الله (ص) فقال الحبر: فإنی أشـهد أنه نبی الله وأنه رسول الله (ص) إلی الناس کافة: فعلی ذلک أحیا وعلیه أموت وعلیه أبعث إن شـاء الله قال: فکان یأتی علیاً فیعلمه القرآن ویخبره بشـرائع الإسـلام. ثم خرج علی والحبر هنالک حتی مات فی خلافة أبی بکر وهو مؤمن برسول‌الله (ص) یصدق به» (۱).

وورد نعت رسول الله (ص) وصـفته من طریق عمر الأـطرف عن علی أیضـاً بصورة مقتضـبة وتحـاکی النصوص السابقـة، إذ قیل للإمام علی (ع): انعت لنا رسول الله (ص)، فقال: «کان أبیض مشـرباً بیاضه حمرة وکان أسود الحدقـة أهـدب الأشـفار» (۲)، ویحتمل أنَّ هذا السؤال قد تکرر علی الإمام علی (ع)، فلذلک تنوعت الإجابات علیه من حیث الإطناب والاقتضاب، کما لاحظنا فی الروایات السابقة.

وینقـل الأـطرف روایـة أخری فی ذکر الطعـام الـذی کـان یحبه رسول الله (ص) بمـا رواه عن أبیه علی (ع) قال: «کان أحب الشاة إلی النبی (ص) الذراع» (۳).

ن- أهل بیته وذریته:

کان لأخبار سـیدتنا الزهراء (س) وفضائلها حیزاً فی روایات عمر الأطرف، إذ قال: «تزوج علی فاطمـة فی رجب سـنة مقـدمهم المدینة، وبنی بها مرجعه من بدر، ولها یومئذ ثمان عشـرة سـنة» (۴)، وهـذا مما ینسـجم مع ما ذکرته أغلب المصادر حول تحدیـد عمر الزهراء (س)، فی أثناء اقترانها بالإمام علی (ع)، وزمان هذه الحادثة (۵).

ونجـد فی ثنایا الروایات التی أسـندها المحدثون إلی الأطرف فی فضائل الزهراء (س) ما سـمعه من أبیه علی (ع)، إن رسول الله (ص) قال: «إذا کان یوم القیامـة، حملت علی البراق، وحملت فاطمـة علی ناقـة العضـباء، وحمل بلال علی ناقة من نوق الجنة، وهو یقول: الله أکبر إلی آخر الأذان، یسمع الخلائق» (۶).

وجاءت روایة أخری من طریق عمر أیضاً یحدث فیها عن علة تسمیة الزهراء (س).

وحفلت روایاته أیضاً بالإشارة إلی أخبار ماریـة القبطیة زوجة الرسول (ص) وولدها إبراهیم، وذلک بإیراد حادثتین منفصـلتین: تمثلت الأـولی بسـماع الرسول (ص) کلاماً لبعض المغرضـین یتهمون فیه زوجته ماریـة القبطیـة فی قریب لها یغشاها ویراودها عن نفسـها، فما کان من الرسول (ص) إلا أن أرسل الإمام علیاً (ع) إلی هـذا الرجل لیطلع علی حقیقة هذا الأمر؛ ولیتأکد من صدق هذا الکلام بعد أن أخـذ فی نفسه (ص) مأخذاً کبیراً، وقال له: «اقتله»، فرد علیه علی (ع): «یا رسول الله! إذا بعثتنی أکون کالسـکة المحماة أم الشاهد یری مـا لا یری الغائب؟ قال: الشاهـد یری ما لا یری الغائب» (۷)، فأخـذ علی (ع) السـیف یضـرب به القبطی وهو علی نخلة فإذا هو حصور لیس له ذکر فجـاء النـبی (ص) فـأخبره فقـال: «إنمـا شـفاء العی السـؤال» (۸)، وقـد وردت هـذه الحادثـة فی المصـادر الأخری وبطرق مختلفة، ولکن بتباین یسیر فی مضمونها (۹).

أمـا الحادثـة الثانیـة فهی: وفـاة ولـدها إبراهیم بن رسول الله (ص)، إذ وردت روایـة من بین مجموع الروایـات التی رواها عمر الأطرف یصف بها حادثـة وفاة إبراهیم بن رسول الله، وفق ما سـمعه من أبیه الإمام علی (ع) الـذی کان شاهـد عیان فیها، وذلک فی نص ذکره ابن کثیر (۷۷۴ ه-) عارضاً فیه هذه الحادثة مسندة إلی عمر الأطرف، إذ قال: «بعث علی بن أبی طالب إلی

۱- ابن سعد، الطبقات ۴۱۲: ۱- ۴۱۳، إبن عساكر، تاريخ دمشق، ۲۴۹: ۳- ۲۵۰.

۲- ابن كثير، البداية و النهاية، ۱۶: ۶.

۳- البخارى، التاريخ الكبير ۳۹۰: ۶.

۴- ابن حجر، الإصابة ۵۵: ۸.

۵- ينظر، ابن سعد، الطبقات ۲۲: ۸، تاريخ خليفة ۵: ۱.

۶- إبن عساكر، تاريخ دمشق ۴۵۹: ۱۰.

۷- البخارى، التاريخ الكبير، ۱۷۷: ۱.

۸- أبى عاصم، الآحاد والمثانى، ۴۴۹: ۵.

۹- ينظر، ابن حنبل، المسند، ۸۳: ۱، الشريف المرتضى، الأمالى، ۵۴: ۱- ۵۵، الطبرسى، مجمع البيان، ۲۲۰: ۹، ابن أبى الحديد، شرح نهج البلاغة، ۲۶۲: ۱۰.

ص: ١٣٩

أمه ماريـة القبطية، وهى فى مشربة فحمله على فى سفط، وجعله بين يديه على الفرس، ثم جاء به إلى رسول الله (ص)، فغسله وكفنه وخرج به، وخرج الناس معه فدفنه فى الزقاق الذى يلى دار محمد بن زيد، فدخل على فى قبره حتى سوّى عليه ودفنه، ثم خرج ورش على قبره، وأدخل رسول الله يده فى قبره، ... وبكى رسول الله (ص) وبكى المسلمون حوله حتى ارتفع الصوت، ثم قال رسول الله (ص): «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يغضب الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون» (١).

ى- أخبار جعفر بن أبى طالب:

كان لأخبار جعفر بن أبى طالب ٢ مكان فى روايات عمر الأطرف، إذ ذكر حادثة هجرة جعفر إلى الحبشة بصحبة زوجته أسماء بنت عميس، ورجوعه منها فى السنة السابعة من الهجرة، إذ تزامنت مع فتح الرسول (ع) لخيبر، وكان لكلتا الحادثتين وقع مؤثر على نفس الرسول محمد (ص)، حتى قال: «لا أدرى بأيهما أفرح: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر» (٢)، مع العلم أن خبر هذه الحادثة قد ورد بطرق أخرى غير طريق الأطرف (٣) ولكن الذى يهمنا محل الشاهد فى رواية عمر لهذا الحديث الذى ينتهى طريقه إليه.

والحادثة الأخرى فى ذكر استبسال جعفر وشجاعته فى قتال الروم فى معركة مؤتة والتى استشهد فيها، إذ قال: «ضرب جعفر بن أبى طالب رجل من الروم فقطعه بنصفين، فوقع إحدى نصفيه فى كرم، فوجد فى نصفه ثلاثون أو بضع و ثلاثون جرحاً» (۴).

أخبار المغيبات التى أخبر بها الرسول (ص) وما سيجرى فى لاحق الأيام:

حدّث عمر بأحاديث عديدة عن الرسول (ص) بفكرة المهدى فى سؤال من أبيه الإمام على (ع) لرسول الله (ص) ما نصه: «أمنا المهدى أم من غيرنا يا رسول الله؟ قال: بل منا، بنا يختم الله كما بنا فتح، وبنا يستنقذون من الشرك، وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة بينة، كما بنا ألف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك. قال على: أمؤمنون أم كافرون: فقال: مفتون وكافر» (۵).

وكذلك يؤكد فى نص آخر: «أن علياً قال: تكون فتن ثم تكون جماعة على رأس رجل من أهل بيتى ليس له عند الله خلاق فيقتل أو يموت فيقوم المهدى» (۶)

ويقدم عمر الأطرف حديثاً آخر عن رسول الله (ص) من طريق أبيه (ع) فى أخبار المغيبات، يصور فيه حال المؤمن والهوان الذى يصيبه فى لاحق الأيام، إذ قال (ص): «يأتى على الناس زمان يكون المؤمن فيه أذل من شاته» (٧).

أبرزت الروايات السابقة فى السيرة النبوية التى رواها عمر الأطرف إهتماماً ملحوظاً أيضاً- كمثيلاتها السابقة فى السنة النبوية- فى الأخبار التى شملت مواقف الإمام على (ع) فى أحداث عصر الرسالة ودوره فى مجرياتها، مع العلم أن تلك الروايات لم تشمل جميع مواقف الإمام على (ع) فى أحداث عصر الرسالة، وربما لم يدوّن الرواة جميع ما ذكره عمر الأطرف، إذا ما علمنا- كما أوردنا سابقاً- أن هنالك كتاباً جمع فيه أبو بكر الجعابى الروايات التى قالها عمر الأطرف، وربما كان هذا المجموع قد حوى على بعض تلك الحوادث التى لم يروها المؤرخون والمحدثون. وهذا مماشكل ظاهرة بارزة فى طبيعة ومجموع الروايات والأحاديث التى رواها الأطرف، مع الإشارة إلى قلة من حمل الحديث عن عمر- كما بينا سابقاً- وهذا سوف ينسحب بلا شك على كمية ومجموع الروايات والأحاديث المنقولة عنه.

هذا ما استطعنا جمعه من نصوص عن هذه الشخصية، ونأمل أن نكون قد وفقنا فى دراستها من حيث مواقفها فى الحياة والأحداث التى عاصرتها، والروايات والأحاديث التى نقلتها، والله الموفق.

١- ابن كثير، البداية و النهاية ٣١١: ۵.

٢- الحاكم النيسابورى، المستدرك ٢٣٠: ٣.

۳- ينظر، ابن هشام، السيرة النبوية ۸۷: ۲، ابن سعد، الطبقات الكبرى ۳۵: ۴، ابن حبان، الثقات، ۱۸: ۲.

۴- الحاكم النيسابورى، المستدرك ۲۳۰: ۳.

۵- الطبرانى، المعجم الأوسط ۵۶: ۱- ۵۷.

۶- ابن حماد المروزى، الفتن: ۳۳۵.

۷- إبن عساكر، تاريخ دمشق ۴۱۴: ۵۴.

ص: ۱۴۰

ص: ۱۴۱

ص: ۱۴۲

ص: ۱۴۳

ص: ۱۴۴

ص: ۱۴۵

ص: ۱۴۶

مظهر الحج نموذجا

إن الحجّ إذا ما أداه الحاج المؤمن كما هو مرسوم له من قبل السماء وكما هو الحج الإبراهيمى الصحيح، فلا نستغرب إذا ما استعنت بهذا التشبيه الرائع الوارد فى الاية المباركة: كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ.

فأقول: إنه يمكن أن يستفاد منه فى وصف المؤمنين وهم فى مواقف الحج وساحته بما يحملونه من قيم السماء بأن يكونوا كما هم فى ميادين جهادهم لأعدائهم، وكما ينبغى أن يكونوا فى ساحات القتال، بنيان مرصوص بنيان متين بقيمه ومبادئه، أن يكونوا- هكذا- صافين أنفسهم متضامنين متكافلين متماسكين محكمين فى أخلاقهم ومواقفهم وآرائهم وأهدافهم، كأنهم قطعة واحدة فقط لا اثنتين أو أكثر، لا فرجة فيها تخترق، ولا ثغرة فيها تستغل من قبل الآخرين أو تعطى صورة سيئة لهذا المشهد وهو يعيش معناه العبادى الواسع ..

إنه بنيان أخلاقى دقيق نظيف لأمناء منهج السماء فى الأرض ينأى هذا البنيان المبارك بنفسه عن عصبيات عديدة عصبية اللون وعصبية الجنس وعصبية القبيلة والعشيرة والنسب وعصبية المال والجاه .. ويعد هذا حلقة من حلقات التربية الصالحة السليمة للحجاج وهم يمثلون أمتهم الأوسع والأكبر فى كل مواسم الحج، ففريضة الحج تجربتهم التى من خلالها يمارسون عملياً ذلك البنيان ويتدربون عليه، والحج كما نعلم دورة تدريبية لكل معانى الدين ومفاهيم الحياة ...

لعلّى أكون موفقاً فى اختيارى واقتباسى عنواناً من الآية الكريمة الرابعة من سورة الصف- التى سميت السورة بالصف انطلاقاً من الآية المذكورة وتأكيداً على أهمية الصف المتماسك- لوصف ماهو مطلوب ويهدف إليه من قبل مناسك الحج ذات المظاهر الوحدوية العديدة وهى ما أكثرها وأعظمها مظاهر الوحدة فى موسم الحج، وهى تتجلى فى كل مواقيته ومناسكه وأنشطته ...

فإضافة إلى أن موسم الحج بحد ذاته أيامه رائعة جميلة وملتقى تعارفى جليل نافع، فهو يبنى هيبة له فى النفوس وجلالة له فى القلوب ويشكل مسيرة نادرة قلّ مثيلها بل انعدم، ويترك مظهراً رائعاً للحجيج وهم يقفون تلك المواقف المهيبة وقد اتحدوا مكاناً وزماناً ولباساً، وهم يتحركون جميعاً من ميقات إلى آخر ومن منسك إلى آخر، ومن منزل إلى آخر، ومن أثر إلى آخر، فالمشاعر والمواضع كلها هدف لوحدة المشاعر وهدف للتوحيد. وقبل أن نستعرض ما فى هذا الموسم وهذه الفريضة مما يتيسر لنا من مظاهر وعوامل توحيد الصف لا بد من كلمة أضيفها إلى ما ذكرت:

إن مما لاريب فيه أن الاجتماع والاتفاق توحيد للصف وسبيل إلى القوة والبقاء، وأن التفرق والاختلاف تمزيق للصف وطريق إلى الضعف والانهزام، و لا خلاف فى أنه ما ارتفعت أمة من الأمم وعلت رايتها إلا بتوحيد صفوفها وتوحيد جهودها والتعاون والتلاحم بين أفرادها ..

وهنا نحاول أن نلقى أضواءً على فريضة الحج، وهى- وكما نراها- خير دليل على وحدة الصف المؤمن، الذى يظهر لنا وهو يؤدى مناسك الحج المتعددة وكأنه فعلًا بنيان مرصوص، لا تجد فيه خللًا ولا شائبةً ولا نقصاً، ما أروعه من كيان متماسك متين، وما أجله من جمع هائل تباركه العقول، وتهابه النفوس، وتهتز له المشاعر والعواطف فخراً واعتزازاً.

تعال معى أخى المؤمن، حتى نرى ما يحمله الحج من معان جميلة استحق معها أن يحتل المكانة الأكبر والمنزلة الأعظم دينياً وأمنياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ليؤسس رصانة فى المواقف، وثباتاً فى المبادئ، وعظمة فى المظاهر الموحدة.

فالحج بداية نموذجاً يعد مبدأ عظيماً يدور حول إطاعة الله سبحانه وتعالى والرسول (ص)؛ لأن هذه الطاعة هى أساس كل خير للأمة وبداية كل خير وأول الخير هو وحدتها. والآيات القرآنية و السنة النبوية الشريفة تدعو إلى تلك الطاعة وتحذر هذه

ص: ۱۴۷

النصوص من الاختلاف والتنازع، لأن هذه الأمراض إن وقعت تنخر كيان الأمة وتجعله هشيماً متفتتاً، قال تعالى: وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (۱)

وفى صحيح مسلم عن أبى مسعود ۲ أنه قال: كان رسول الله (ص) يمسح مناكبنا فى الصلاة، ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم.

والحج يشكل فى كل عام موسماً عبادياً عظيماً، تتجسد فيه تلك الطاعة لله سبحانه وتعالى ورسوله (ص) عبادة وأخلاقاً وسيرة، وتنبثق بسببها وحدة المسلمين وقوتهم فى أحسن مظاهرها وأبهى حللها، حيث تذوب الفوارق، وتتلاشى الحواجز، ويجتمع المسلمون فى مشهد رائع أخّاذ، يبعث على السرور، ويسعد النفوس، ويبهج الأرواح والقلوب.

والحج كما صرح القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، إلى جانب كونه عبادة وتقرباً إلى الله سبحانه، وإلى كون العبادة ظاهرة واضحة تحيط أجواءه وساحاته ومعالمه، فإنه لا يلغى ولا يقلل ما يتضمنه من منافع اجتماعية وفوائد ثقافية، واقتصادية وسياسية، وتربوية، تساهم فى بناء المجتمع الإسلامى، وتزيد فى وعيه وتوجيهه، وتساهم فى حل مشاكله، وتنشيط مسيرته .. بل على العكس يوجدها وينميها ويدعو إليها ويحث عليها ..

والحج يذكرنا بمن سار على تلك البطاح المباركة من أنبياء الله تعالى ورسله صلوات الله تعالى عليهم، ويذكرنا بعباده الصالحين وبالشهداء؛ ويتذكر الصحابة الغر المنتجبين رضى الله عنهم، وما لاقوه من البلاء فى سبيل نشر هذا الدين الحنيف.

فيشعر كل منا بأنه امتداد لتلك السلسلة المباركة، وذلك الركب الميمون.

ويتذكر أن هذا البيت الذى يطوف حوله والمسعى الذى يسعى فيه والمعالم الأخرى ما كانت لتصل إليه لولا إرادة الله عز وجل وجهود الأنبياء والأئمة والشهداء والصالحين ..

والحج موسماً وفريضة هو ذلك النموذج الفذ والذى يعد مظهر وحدة المسلمين وقوتهم، فهم يشهدون فى موسم الحج أروع مظاهر المساواة والتواضع والأخوة الإنسانية، عبر إلغاء كل ما من شأنه التمييز والطبقية والتعالى، وعبر خلع أسباب الظهور الاجتماعى كالأزياء مثلًا، ثم الظهور باللباس العبادى الموحد، حيث يحس الجميع أنهم بلا فوارق، وبالتالى يحسّون بوحدتهم وبالأخوة والمساواة ..

والحج تظاهرة إيمانية رائعة تشترك فيها صنوف متعددة من الأجناس والفئات والطبقات والقوميات على موعد واحد، وفى أرض واحدة، يرددون هتافاً واحداً، ويمارسون شعاراً واحداً، ويتجهون لغاية واحدة، وهى الإعلان عن العبودية والولاء لله وحده، والتحرر من كل آثار الشرك والجاهلية، بطريقة جماعية حركية، تؤثر فى النفس، وتشبع المشاعر والأحاسيس بالإيمان وآثاره، وبمداليل التوحيد وثمارها ..

والحج يستشعر فيه المسلمون وحدة البشر ووحدة الأرض، فتنهار بينهم الحدود التى صنعتها الأنانيات والأطماع الإقليمية والقومية والعنصرية. فهم يأتون من كل فج عميق من كل طريق بعيد ومكان ناء، يقطعون آلاف الأميال، ويخترقون كل الحواجز والحدود والبحار والمحيطات، ويجتازون كل الموانع التى صنعها الأعداء على أرض الله سبحانه وتعالى، استجابة لنداء العقيدة وتلبية لهتاف الإيمان وتلبية لدعوة شيخ الأنبياء إبراهيم (ع) الحية الباقية الخالدة ..

والحج يلتقى فيه المسلمون بمؤتمرهم الكبير، فيتذاكرون فى شؤونهم، ويتشاورون فى أمور حياتهم وعقيدتهم، ويتبادلون الخبرات والتجارب والآراء والعادات الحسنة. ويتعرف بعضهم على مشاكل بعض، ويطلع بعضهم على رأى بعض، ويتعرف بعضهم على أخبار بعضهم الآخر، فيزداد الوعى، وتنمو المعرفة، وتشحذ الهمم من أجل الإصلاح والتغيير والاهتمام

۱- الأنفال: ۴۶.

ص: ۱۴۸

بشؤون الأمة والعقیدة، فتخطط المشاریع، ویفکر فی الأعمال، وتؤسس المراکز الفکریة والسیاسیة والاجتماعیة والاقتصادیة، ویستعین بعضهم ببعض، وکأنهم جسد واحد، وروح واحدة، وکیان واحد ..

فللحج إذن وقت محدد ومکان معین ومناسک وإن تعددت فهی واحدة، وزی موحد ونداء واحد، یجتمع فیه المسلمون لیؤدوا فیه مناسکهم، وقد تحدث عن هذا القرآ ن الکریم:

أَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِیهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِی الْحَجِّ (۱)

جَعَلَ اللهُ الْکَعْبَةَ الْبَیْتَ الْحَرَامَ قِیَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْیَ وَالْقَلَائِدَ

ثُمَّ لِیَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْیُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْیَطَّوَّفُوا بِالْبَیْتِ الْعَتِیقِ

هکذا إذن حددت الآیات زمناً وعینت مکاناً لهذه الفریضة المبارکة وهما یشکلان وغیرهما مظهراً مهماً من مظاهر الوحدة، فتوحید الزمن والموضع من توحید الهدف. کما أن الکل مطالب بأداء مناسک الحج من أماکن محددة بدءاً بالإحرام من المواقیت المعروفة من غیر تجاوز، والطواف بالبیت المحدد دون غیره، والسعی بین الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، ثم المزدلفة والمبیت بمنی لیلتین أو ثلاثاً لأداء أعمالها من الذبح والحلق أو التقصیر ورمی الجمار ...

لا فقط إذن الظرف الزمنی محدد والظرف المکانی معین والمواقیت، بل حتی المناسک والأنشطة التی یکلف بها الحجاج هی الأخری محددة، فکلهم یقومون بنفس الأعمال مما یجسد ویعمق المساواة بینهم تمهیداً لبناء الأخوة والمحبة، ویجعل الوحدة بینهم متجددة فی کل ساعة وفی کل مکان وفی کل عمل یقومون به ویؤدونه، وتعیش معهم فی کل خطوة یخطونها وفی کل ساعة یقضونها .. وبالتالی جمیع هذا یعد دلیلًا علی الترغیب الملحّ والتشجیع فی توحید الصفوف وتحقیق ما فی الوحدة من قوة وصلابة ..

الحج کما هو واضح من وظائفه ومهامه وأهدافه، یفسح المجال ویعطی الفرصة ویهیؤها للمسلمین لمواساة بعضهم بعضاً من خلال لقاءاتهم المتکررة، وتقارب آمالهم وآلامهم، وهذا مقوم مهم لقوتهم ووحدتهم .. و هذا أیضاً من مظاهر هذه الفریضة المبارکة ..

الحج یعد موسماً کبیراً واعیاً رائداً واعداً لاجتماع العلماء والمفکرین والدعاة إلی الله والمصلحین، وهم أهل الذکر والفکر وهم القادرون علی التشاور بینهم، لأنهم الأجدر فی البحث بشأن هموم الدین ومشاکل الأمة والعمل علی إیجاد حلول لها و جمع شملها، والبحث فی الوسائل والأسالیب المعینة علی ذلک ..

والحج موسم لاجتماع الأغنیاء بالفقراء، والعمل علی مواساتهم، والتعرف علی آلامهم وحاجاتهم ثم التخفیف عنهم، مما یجسد مبدأ التضامن والتلاحم بین أفراد هذه الأمة المرحومة ...

الحج تواجد واعد فی تلک البقاع المبارکة لأیام وإن کانت قلیلة، ویعد اختباراً لآمال الأمة وإرادتها، وبوتقةً لأنشطتها ولما یشغل بالها، حیث یتطلعون جمیعاً إلی عهد زاهر تتظافر فیه جهودهم، لیشکلوا وحدة شاملة، ترفعهم فوق الأمم، وتعید لهم تلک الریادة والسیادة التی ضاعت من أیدیهم بسبب الفرقة والنزاع، ویتم الله تعالی وعده لهذه الأمة بالاستخلاف الموعود .. والله غالب علی أمره، وهو یتولی الصالحین.

یقول سبحانه وتعالی فی محکم کتابه العزیز: وَعَدَ اللهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضَی لَهُمْ وَلَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً یَعْبُدُونَنِی لا یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً وَمَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذَلِکَ فَأُولَئِکَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (۲)

انطلاقاً من برکات هذا البیت الأول والمعمور ومن هداه ومن خصائصه و آیاته البینات الأخری:

۱- البقرة: ۱۹۶.

۲- سورة النور: ۵۵

ص: ۱۴۹

إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبَارَکًا وَهُدًی لِّلْعَالَمِینَ* فِیهِ آیَاتٌ بَیِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِیمَ وَمَن دَخَلَهُ کَانَ آمِنًا.

والحج تتحقق فیه وحدة العبادة ووحدة الأخوة الإسلامیة بکل معانیها، ومظاهر هذا واضحة جلیة: فالرب واحد، والقبلة واحدة، والمشاعر واحدة، واللباس واحد، والمناسک واحدة، والزمان واحد، والمکان واحد، کل شیء یتسم بالوحدة ویؤشر علیه. فکل هذه المظاهر تجتمع فی الحج، وهی مدعاة للإحساس بوحدة الشعور، وموجبة للتآخی، والتعارف، والتعاون علی مصالح الدین والدنیا، کیف لا یکون کذلک والکعبة هی الجامعة وهی عنوان التوحید، عنوان الدین، عنوان الإسلام، وهی کما جاء فی صحیح أبی بصیر، عن أبی عبدالله (ع) أنه قال:

لا یزال الدین قائماً ما قامت الکعبة.

فالکعبة تمثل العنوان الخارجی للإسلام، فما دامت الکعبة المشرفة قائمة یؤمها المسلمون فی جموع کبیرة فی حجهم ویطوفون بها ویعظمونها ویتوجهون إلیها فی عبادتهم، فالدین قائم.

کما أن الکعبة أول مظاهر الوحدة، فهی إضافة إلی أنها قبلة المسلمین التی یتوجه إلیها فی کل یوم خمس مرات أکثر من ملیار مسلم، تلخص عنوان دعوة الرسل إلی توحید الله، ووحدة المسلمین أی کلمة التوحید ووحدة الکلمة ووحدة الموقف، وحتی تظهر هذه المشابهة بین الکعبة المشرفة ودعوة الرسل هو أن الکعبة کانت ولا تزال أهم العوامل لقیام الناس فی توحید الله وتعظیمه وعبادته ..

ففی الحج یجتمع المسلمون من أقطار الأرض حول الکعبة، حول البیت العتیق، الذی یتجهون إلیه کما قلنا کل یوم خمس مرات، بل فی کل فرض ومستحب ودعاء، البیت الذی یقصدونه بقلوبهم وأفئدتهم من خلال صلواتهم وهم فی بلادهم الشاسعة البعیدة، هم الآن یجتمعون حوله ویری بعضهم بعضاً، یتصافحون، ویتشاورون، ویتحابون، خلعوا تلک الملابس المختلفة والمتباینة من علی أجسادهم، ووحدوا لباسهم، لیجتمع بیاض الثیاب مع بیاض القلوب، فهو صفاء فی صفاء، صفاء فی ظواهرهم وصفاء فی بواطنهم ..

ولابد من الإشارة إلی أن هذه الفریضة فیها من المعانی الروحیة التی لاتعطیها أو لا تتأتی لعبادة أخری- وهی أیضاً من أسمی مظاهر هذه الفریضة- وأن تقدیس تلک الأماکن المعظمة والاهتمام بها والتواجد فیها والاستزادة من معانیها ومضامینها له الأثر البالغ فی تربیة الحجاج وتطهیرهم وتوعیتهم .. وعلی رأس تلک الأماکن الشریفة الکعبة المعظمة زادها الله شرفاً؛ فهی أول بیوت العبادة التی وضعها الله لعبادته:

إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبَارَکًا وَهُدًی لِّلْعَالَمِینَ (۱).

بعد أن بوأه الله تعالی لنبیه وخلیله إبراهیم (ع):

وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِیمَ مَکانَ الْبَیْتِ أَنْ لا تُشْرِکْ بِی شَیْئاً وَ طَهِّرْ بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَ الْقائِمِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ (۲)

والله تعالی هو ربه:

(فَلْیَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَیْتِ الَّذِی أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (۳)

وهوصاحب هذا البیت دون غیره، وهی أی الکعبة أصل الأرض، کما فی روایة عن أهل البیت (علیهم السلام):

إِنَّهُ لَیسَ مِنْ بَیْتٍ وَضَعَهُ اللهُ عَلَی وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا لَهُ رَبٌّ وَ سُکَّانٌ یَسْکُنُونَهُ، غَیْرَ هَذَا الْبَیْتِ، فَإِنَّهُ لَا رَبَّ لَهُ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ، وَ هُوَ الْحُرُّ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَ جَلَّ خَلَقَهُ قَبْلَ الْأَرْضِ، ثُمَّ خَلَقَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِه، فَدَحَاهَا مِنْ تَحْتِهِ.

عَنْ أَبَانِ بْنِ عُثْمَانَ عَمَّنْ أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِی جَعْفَرٍ (ع) قَالَ: قُلْتُ لَهُ: لِمَ سُمِّیَ الْبَیْتُ الْعَتِیقَ؟ قَالَ: هُوَ بَیْتٌ حُرٌّ عَتِیقٌ مِنَ النَّاسِ لَمْ یَمْلِکْهُ أَحَدٌ.

۱- سورة آل عمران: ۹۶.

۲- الحج: ۲۶.

۳- قريش: ۳- ۴.

ص: ۱۵۰

وقد راحت الأحاديث المباركة تبين أهمية الكعبة المشرفة، وأنها أحب البقاع إليه تعالى، وراحت تربط الناس بالكعبة وتشدهم إليها عن طريق بيان ما للإنسان المرتبط بها بأى نوع من الارتباط سواء فى الطواف أم فى غيره من الثواب العظيم، وقوة دافعة لثبات الموقف وتوحيد الصفوف. كما راحت هذه الروايات وغيرها عن أهل البيت (عليهم السلام) تؤكد بكل وضوح أن الترابط بينهم وبينها وثيق ولا يمكن الفصل بينهما.

عَنْ زُرَارَةَ قَالَ: كُنْتُ قَاعِداً إِلَى جَنْبِ أَبِى جَعْفَرٍ (ع) وَ هُوَ مُحْتَبٍ مُسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةِ فَقَالَ: أَمَا إِنَّ النَّظَرَ إِلَيْهَا عِبَادَةٌ فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بجيلَةَ يُقَالُ لَهُ: عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ فَقَالَ لِأَبِى جَعْفَرٍ عليه السلام: إِنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ الْكَعْبَةَ تَسْجُدُ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ فِى كُلِّ غَدَاةٍ.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ (ع): فَمَا تَقُولُ فِيمَا قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ.

فَقَالَ: صَدَقَ الْقَوْلُ مَا قَالَ كَعْبٌ.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ (ع): كَذَبْتَ وَ كَذَبَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ مَعَكَ. وَ غَضِبَ عليه السلام. قَالَ زُرَارَةُ: مَا رَأَيْتُهُ اسْتَقْبَلَ أَحداً بِقَوْلِ كَذَبْتَ غَيْرَهُ. قَالَ: مَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ بُقْعَةً فِى الْأَرْضِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهَا، ثُمَّ أَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحوَ الْكَعْبَةِ، وَ لَا أَكْرَمَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ مِنْهَا، لَهَا حَرَّمَ اللهُ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فِى كِتَابِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ لِلْحَجِّ شَوَّالٌ وَ ذُو الْقَعْدَةِ وَ ذُو الْحِجَّةِ وَ شَهْرٌ مُفْرَدٌ لِلْعُمْرَةِ رَجَبٌ.»

فى الصحيح عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِى عَبْدِ اللهِ (ع) قَالَ:

«أَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَكَّةُ، وَ مَا تُرْبَةٌ أَحبَّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ مِنْ تُرْبَتِهَا، وَ لَا حَجَرٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ حَجَرِهَا، وَ لَا شَجَرٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ شَجَرِهَا، وَ لَا جِبَالٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ جِبَالِهَا، وَ لَا مَاءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ مَائِهَا».

وفى النظر إليها جاء فى الصحيح عَنْ حَرِيزٍ عَنْ أَبِى عَبْدِ اللهِ (ع) قَالَ: «النَّظَرُ إِلَى الْكَعْبَةِ عِبَادَةٌ وَ النَّظَرُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عِبَادَةٌ وَ النَّظَرُ إِلَى الْإِمَامِ عِبَادَةٌ وَ قَالَ: «مَنْ نَظَرَ إِلَى الْكَعْبَةِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ وَ مُحِيَتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ.»

وَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ (ص) قَالَ: «النَّظَرُ إِلَى الْكَعْبَةِ حُبّاً لَهَا يَهْدِمُ الْخَطَايَا هَدْماً.»

ورُوِىَ أَنَّ «النَّظَرَ إِلَى الْكَعْبَةِ عِبَادَةٌ وَ النَّظَرَ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عِبَادَةٌ وَ النَّظَرَ إِلَى الْمُصْحَفِ مِنْ غَيْرِ قِرَاءَةٍ عِبَادَةٌ وَ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ وَ النَّظَرَ إِلَى آلِ مُحَمَّدٍ عليهم السلام عِبَادَةٌ».

وجاء فى الصحيح عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ أَبِى عَبْدِ اللهِ (ع) قَالَ:

«إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى جَعَلَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ عِشْرِينَ وَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، مِنْهَا سِتُّونَ لِلطَّائِفِينَ وَ أَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ وَ عِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ».

وعن الْحَسَنِ بْنِ رَاشِدٍ عَنْ أَبِى عَبْدِاللهِ (ع) قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (ع):

«إِذَا خَرَجْتُمْ حُجَّاجاً إِلَى بَيْتِ اللهِ فَأَكْثِرُوا النَّظَرَ إِلَى بَيْتِ اللهِ، فَإِنَّ لِلهِ مِائَةً وَ عِشْرِينَ رَحْمَةً عِنْدَ بَيْتِهِ الْحَرَامِ سِتُّونَ لِلطَّائِفِينَ وَ أَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ وَ عِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ.

فعَنْ أَبِى عَبْدِ اللهِ الْخَزَّازِ عَنْ أَبِى عَبْدِاللهِ (ع) قَالَ:

«إِنَّ لِلْكَعْبَةِ لَلَحْظَةً فِى كُلِّ يَوْمٍ يُغْفَرُ لِمَنْ طَافَ بِهَا أَوْ حَنَّ قَلْبُهُ إِلَيْهَا أَوْ حَبَسَهُ عَنْهَا عُذْرٌ».

وفى الترابط بينها وبين أهل البيت (عليهم السلام) ولما لهذا الترابط والصلة من جذب للناس نحوها من أهمية ووقع على النفوس وما يستحقه من الثواب.

ص: ۱۵۱

جاء فی الخبر عَنْ عَلِیِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِیزِ عَنْ أَبِی عَبْدِ اللهِ (ع) قَالَ:

«مَنْ نَظَرَ إِلَی الْکَعْبَهْ بِمَعْرِفَهْ فَعَرَفَ مِنْ حَقِّنَا وَ حُرْمَتِنَا مِثْلَ الَّذِی عَرَفَ مِنْ حَقِّهَا وَ حُرْمَتِهَا، غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَ کَفَاهُ هَمَّ الدُّنْیَا وَ الْآخِرَهْ».

هذا وإن للحج أسراراً بدیعهْ، وحکماً متنوعهْ، وبرکاتٍ متعددهْ، ومنافع مشهودهْ، سواء علی مستوی الأفراد أم علی مستوی الأمهْ، قال الله تبارک وتعالی فی محکم التنزیل: وَأَذِّن فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجَالًا وَعَلَی کُلِّ ضَامِرٍ یَأْتِینَ مِن کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ* لِیَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ (۱)

الحج میدان فسیح یتدرب فیه الحاج عملیاً علی اکتساب الأخلاق الجمیلهْ والآداب الحمیدهْ، علی الحلم، والصبر، والمداراهْ، وکظم الغیظ من جراء ما یلقی من الزحام، والتعب، والنصب سواء فی الطریق إلی الحج، أم فی الطواف، أم فی السعی، أم فی رمی الجمار، أم غیرها من المناسک؛ فیتحمل الحاج ما یلقاه من ذلک؛ لعلمه بأن الحج أیام معدودهْ، ولخوفه من فساد حجه إذا هو أطلق لنفسه نوازع الشر، ولإدراکه بأن الحجاج ضیوف الرحمن؛ فإکرامهم، والصبر علی ما یصدر من بعضهم، دلیل علی إجلال الله عز وجل.

فإذا تحمل الحاج تلک المشاق فی أیام الحج صار ذلک دافعاً لأن یتخلق بالأخلاق الجمیلهْ بقیهْ عمره.

والحج یذکّر أصحابه ومریدیه بالآخرهْ؛ فازدحام الناس وهم یموج بعضهم فی بعض، وهم فی صعید واحد، وبلباس واحد، وقد حسروا عن رؤوسهم، وتجردوا من ثیابهم، ولبسوا الأردیهْ والأزر، وتجردوا من ملذات الدنیا، ومتعها، تذکر یوم حشرهم علی ربه؛ فیبعثهم ذلک إلی الاستعداد للآخرهْ، ویقودهم إلی استصغار متاع الحیاهْ الدنیا، ویرفعهم عن الاستغراق فیها، ویکبر بِهِمتهم ویترکوا کل ما یدعو الی السوء والبغضاء وحب الأنا. فیقترب کل واحد منهم من محبهْ إخوانه الآخرین ویستغرق بعضهم فی مودهْ بعضهم الآخر، ویتم الاطلاع علی مشاکلهم وحاجیاتهم، وهذا مدعاهْ لحب الوحدهْ وتقویهْ الصف المسلم والساحهْ المؤمنهْ ..

والحج یعد تجمعاً بشریاً ضخماً، یستقطب الملایین من المسلمین، من مختلف الأقطار والأمصار، فهو ینتج حرکهْ بشریهْ هائلهْ، یتبعها تحرک اقتصادی ومالی ضخم، عن طریق النقل، والاستهلاک، وحمل البضائع وتبادل النقود، وشراء الأضاحی والحاجیات ومستلزمات الحج والإقامهْ والسفر والتنقل، فینتفع العدید من المسلمین بذلک، ویشهد مجتمعهم حرکهْ اقتصادیهْ وتجاریهْ ومالیهْ نشطهْ یکون هذا سبباً فی تعارفهم و تآلفهم وتعاونهم.

الحج مدرسهْ یتعلم فیها الحاج، یتعلم الکرم، والبذل، والإیثار، والبر، والرحمهْ، وذلک من خلال ما یراه من المواقف النبیلهْ الرائعهْ التی تجسد هذه المعانی؛ فهذا سخی یجود بالإنفاق علی المساکین، وذاک کریم بخلقه یعفو عمن أساء إلیه، وأخطأ فی حقه، وذاک رحیم یعطف علی المساکین ویتلطف بهم، وذاک حلیم یصبر علی ما یلقاه من أذی، وذاک برّ بوالده یحمله علی عاتقه، وذاک یحوط أمه العجوز بلطفه ورعایته.

بل ویکتسب الإنسان الحاج الأخلاق الجمیلهْ عند رؤیته من لا یدرکون معنی الحج، وهم الذین یغضبون لأدنی سبب، وتطیش أحلامهم عند أتفه الأمور، کیف یکون اکتسابه؟ بتجنبه ما هم علیه من خلق لا ـ یلیق بآداب وأخلاق هذا الموسم. فإذا رأی العاقل البصیر سوء فعال هؤلاء انبعث إلی ترک الغضب، وتجافی عن مرذول الأخلاق، ونأی عما هم علیه.

إذن، الحج إعداد وتربیهْ لسلوک الفرد ونوازعه بل هو إعداد وتربیهْ لسلوک الجماعهْ ونوازعها، وبالتالی إعداد وتربیهْ لسلوک الأمهْ ونوازعها، ففیه تتعود کل هذه المفاصل

۱- الحج: ۲۷- ۲۸.

ص: ۱۵۲

- بدءاً بالفرد الحاج مروراً بالجماعة الحاجة، فالأمة الحاجة- الصبر وتحمل المشاق وحسن الخلق بدءاً باللطف والتواضع واللين وحسن المحادثة مروراً بالكرم والتعاطف والتراحم وانتهاء بالامتناع عن الكذب والغيبة والجدال والخصومة والتكبر وغير ذلك.

والحج دورة ميدانية يتعود الإنسان الحاج فرداً كان أم جماعة أم أمة، الألفة والتعارف عن طريق السفر والاختلاط فتنمو لديه الروح الاجتماعية وتتهذب عنده الملكات الأخلاقية، كل هذا وهو يشارك فى كل الممارسات التربوية، ويساهم فى التفاعل البشرى الرائع، الذى يشهده فى الحج، فى حضره وفى سفره، فى سكنه وإقامته وفى ترحاله، و بأرقى درجات الالتزام والاستقامة السلوكية.

وقد تحدث الإمام جعفر الصادق (ع) عن منافع الحج وفوائده، بإجابته البليغة عن سؤال أحد أصحابه وهو هشام بن الحكم، فقد سأله ما العلة التى من أجلها كلف الله سبحانه وتعالى العباد بالحج والطواف بالبيت؟

فقال (ع): «إن الله خلق الخلق ... وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة فى الدين، ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا ولينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكارى والجمال، ولتعرف آثار رسول‌الله (ص) وتعرف أخباره ويذكر ولا ينسى» (۱).

وقول الإمام على بن موسى الرضا (ع) يتطابق مع تعليل الإمام الصادق وتحليله لمنافع الحج وآثاره الاجتماعية التى يجنيها الفرد والمجتمع حين قال: «إنما أمروا بالحج لعلة الوفادة إلى الله عز وجل، وطلب الزيادة، والخروج من كل ما اقترف العبد، تائباً مما مضى، مستأنفاً لما يستقبل، مع ما فيه من إخراج الأموال، وتعب الأبدان، والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس عن اللذات، شاخصاً فى الحر والبرد، ثابتاً على ذلك دائماً، مع الخضوع والاستكانة والتذلل، مع ما فى ذلك لجميع الخلق من المنافع، لجميع من فى شرق الأرض وغربها، ومن فى البرّ والبحر ممن يحجّ وممن لم يحجّ، من بين تاجر وجالب وبائع ومشترٍ وكاسب ومسكين ومكار وفقير، وقضاء حوائج أهل الأطراف فى المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه، مع ما فيه من التفقه، ونقل أخبار الأئمة (عليهم السلام) إلى كل صقع وناحية، كما قال الله عزّ وجل:

فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (۲)

لقد شاء الله تعالى أن يكون الحج محراباً للعبادة ... ومدرسة للتربية والتوجيه وموسماً للمنفعة وتحقيق المصالح الاجتماعية. وساحة مباركة لتوحيد الصفوف المؤمنة والأمة المؤمنة بما ذكرناه مما فهمناه وعرفناه وقرأناه عنه .. لتنال بذلك حب الله تعالى ورضاه، ولتحقق ما تصبو إليه من خير عميم وكرامة وعز لا يضام. وهكذا هو الحج وهكذا هى مظاهره، وهكذا هى معانيه ومفاهيمه وأبعاده وآثاره وعطا ءاته: رِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۳)

إنه بحق خير فريضة وأعظم ميدان وأصدق ساحة تطبيقية لمبدأ التعارف الجميل الذى صدعت به الاية الكريمة:

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا. (۴)

۱- وسائل الشيعة ۱۴: ۱۱.

۲- المصدر نفسه ۷: ۸.

۳- التوبة: ۷۲.

۴- الحجرات: ۱۳.

ص: ۱۵۳

قراءة فی آیة من آیات الحج

وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَیْسَرَ مِنَ الْهَدْیِ ولا تحلقوا رؤوسکم حتی یبلغ الهدی محله فَمَن کَانَ مِنکُم مَّرِیضاً أَوْ بِهِ أَذًی مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْیَةٌ مِّن صِیَام أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُکٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَی الْحَجِّ فَمَا اسْتَیْسَرَ مِنَ الْهَدْیِ فَمَن لَّمْ یَجِدْ فَصِیَامُ ثَلاثَةِ أَیَّام فِی الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْکَ عَشَرَةٌ کَامِلَةٌ ذَلِکَ لِمَن لَّمْ یَکُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِی الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِیدُ الْعِقَابِ (۱).

توزعت الآیات الخاصة بالحج علی سور عدیدة کسورة البقرة وآل عمران والمائدة وسورة الحج .. وفی سورة البقرة وبعد أن ذکر سبحانه وتعالی أحکام الصیام، ثم تحدث عن الأهلة وأنها مواقیت للناس والحج، وعطف بذکر الجهاد، فالأشهر الحرم .. شرع فی بیان مناسک الحج بالآیات ۱۹۶- ۲۰۳ فأمر بإتمام الحج والعمرة ..

والآیة المذکورة ۱۹۶ هی أول آیة نزلت فی خصوص الحج، بمقاطعها التی جاءت فی أفعال الحج .. فیما الآیات الأخری نزلت فی حجة الوداع آخر حجة حجها رسول الله (ص) وفیها تشریع حج التمتع، حیث إن أول ما یلاحظ فی بناء هذه الآیات جمیعاً هو تلک الدقة التعبیریة فی معرض التشریع، وتقسیم الفقرات فی الآیة لتستقل کل فقرة ببیان الحکم الذی تستهدفه. ومجیء الاستدراکات علی کل حکم قبل الانتقال إلی الحکم التالی .. ثم ربط هذا کله فی النهایة بالتقوی ومخافة الله سبحانه وتعالی .. وما یهمنا فی هذه المقالة هو أن نقف عند المقطع الأول من الآیة ۱۹۶ وهو: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ و هذه الآیة هی واحدة من آیات الحج التی یستدل بعضها علی وجوبه:

(وَ لِلهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ) (۲).

روی عن ابن عباس: «ومن کفر باعتقاده أنه غیر واجب».

وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَ عَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ* لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ یَذْکُرُوا اسْمَ اللهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَةِ الْأَنْعامِ فَکُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِیرَ* ثُمَّ لْیَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْیُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْیَطَّوَّفُوا بِالْبَیْتِ الْعَتِیقِ (۳)

و الفقرة الأولی فی الآیة التی نقف عندها تتضمن الأمر بإتمام أعمال الحج والعمرة إطلاقاً متی بدأ الحاج أو المعتمر فأهلّ بحج أو بعمرة أو بهما معاً، أو أنها تتضمن الأمر بابتداء مشروعیة الحج والعمرة علی الاختلاف فی المراد من الفعل وَ أَتِمُّوا ... کما یأتی.

و إن هذا المقطع من ضمن الآیة التی نزلت- کما ذکر المفسرون- فی الحدیبیة سنة ست للهجرة، حین صدّ المشرکون المسلمین عن بیت الله الحرام، وذهب بعضهم إلی أن الحج لم یکن قد فرض بعد حیث إنه فرض فی السنة التاسعة للهجرة علی رأیهم بالآیة: وَ لِلهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ (۴) ولهذا فهموا أن المقصود من الکلام فی الآیة وَأَتِمُّوا ... العمرة ولیس الحج، لأن الحج لم یفرض علی رأیهم بعد، وإنما ذکر الحج تبشیراً للمؤمنین بأنهم سیتمکنون من الحج فیما بعد، وعدوا هذا من معجزات القرآن. وبالتالی فإن هذه الآیة لا تدلنا علی تاریخ بدایة إقرار فرض الحج فی الإسلام وأنه فی السنة السادسة، وإلا فإن الحج فرض من عهد نبی الله إبراهیم (ع) قبل ألفی سنة قبل المیلاد تزید أو تنقص قلیلًا فهو الذی شرعه بأمر الله تعالی، وجاء الإسلام وأقرّ فریضة الحج إلی یوم القیامة وطهر رسول الله (ص) البیت من الأوثان وعبادة الأصنام کما طهربیدی نبی الله إبراهیم وابنه إسماعیل (علیهما السلام) من قبل:

وَ عَهِدْنا إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ أَنْ طَهِّرا بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَ الْعاکِفِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ (۵)

وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِیمَ مَکانَ الْبَیْتِ أَنْ لا تُشْرِکْ بِی شَیْئاً وَ طَهِّرْ بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَ الْقائِمِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ (۶)

۱- البقرة: ۱۹۶.

۲- سورة آل عمران: ۹۶.

۳- الحج: ۲۷.

۴- آل عمران: ۹۶.

۵- البقرة: ۱۲۵.

۶- الحج: ۲۶.

ص: ۱۵۴

وأزال رسول الله (ص) عن هذه الفریضة المبارکة کل ما أصابها من شوائب علقت بها وانحرافات أصابتها بما فعلته أیدی الناس ..

کما أن هـذه الآیـة تعـدّ واحـدة من آیتین اثنتین تردد رأیهم بینهما فی إثبات تاریـخ وجوب الحـج فی الإسـلام .. مع أن الآیة: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ .. نزلت فی السـنة السادسـة للهجرة، و الآیة الثانیة ۹۷ من سورة آل عمران المدنیـة: وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا نزلت فی السنة التاسعة للهجرة.

حیث قال جماعة من الصـحابة والتابعین ومن بعدهم آخرون: وإنما وجب علینا فرض الحج بقوله عز وجل: وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.

ففریضـة الحـج لم یأت وجوبها فی سورة الحـج کما یبـدو بل أظهر الأقوال أنه قـد جاء فی قوله تعالی: وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.

وتاریخ فرض الحج فیه اختلاف کما قلنا، بل حتی الآیة ۹۷ من سورة آل‌عمران التی قالوا: إنها تحمل تاریخ الفریضة اختلفوا فی تاریخ نزولها وتبعاً لذلک یختلف تاریخ الفریضة، وقد فصل القول فی ذلک ابن عاشور فی التحریر والتنویر حیث قال:

ویتجه أن تکون هـذه الآیـة هی التی فرض بها الحـج علی المسـلمین، وقد اسـتدل بها علماؤنا علی فریضة الحج، فما کان یقع من حج النبی (ص) والمسـلمین قبل نزولها، فإنما کان تقرباً إلی الله، واستصـحاباً للحنفیة. وقد ثبت أن النبی (ص) حج مرتین بمکة قبل الهجرة ووقف مع الناس، فأما إیجاب الحج فی الشـریعة الإسـلامیة فلا دلیل علی وقوعه إلا هذه الآیة، وقد تمالأ علماء الإسلام علی الاستدلال بها علی وجوب الحـج، فلا یعـد ما وقع من الحـج قبل نزولها وبعـد البعثـة إلا تحنثاً وتقرباً، وقد صح أنها نزلت سـنة ثلاث من الهجرة، عقب غزوة أحد، فیکون الحج فرض یومئذ.

وذکر القرطبی الاختلاف فی وقت فریضة الحج علی ثلاثة أقوالفقیل: سـنة خمس، وقیل: سـنة سبع، وقیل: سـنة تسع، ولم یعز الأقوال إلی أصحابها، سوی أنه ذکر عن ابن هشام، عن أبی عبید الواقدی أنه فرض عام الخندق، بعد انصراف الأحزاب، وکان انصرافهم آخر سنة خمس. قال ابن إسـحاق: وولی تلک الحجة المشـرکون. وفی مقدمات ابن رشد ما یقتضی أن الشافعی یقول: إن الحج وجب سنة تسع، وأظهر من هذه الأقوال قول رابع تمالأ علیه الفقهاء وهو أن دلیل وجوب الحج قوله تعالی: وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وقد اسـتدل الشافعی بها علی أن وجوبه علی التراخی، فیکون وجوبه علی المسـلمین قد تقرر سـنة ثلاث، وأصـبح المسلمون منذ یومئذ محصرین عن أداء هذه الفریضة إلی أن فتح‌الله مکة ووقعت حجة سنة تسع ..

وفی هذه الآیة من صیَغ الوجوب صِیغتان: لام الاستحقاق، وحرف (علی) الدال علی تقرّر حقّ فی ذمة المجرور بها. وقد تعسّر أو تعذّر قیـام المسـلمین بأداء الحـجّ عقب نزولها، لأنّ المشـرکین کانوا لا یسـمحون لهم بـذلک، فلعلّ حکمـة إیجاب الحـجّ یومئـذ أن یکون المسـلمون علی اسـتعداد لأداء الحـجّ مهما تمکّنوا من ذلک، ولتقوم الحجَّة علی المشـرکین بأنَّهم یمنعون هـذه العبادة، ویصـدّون عن المسجد الحرام، ویمنعون مساجد الله أن یذکر فیها اسمه.

إذن ابن عاشور، وکما هو واضـح من کلامه، مع القول الـذی یـذهب إلی أن الحـج تقرر فرضه فی الإسـلام سـنة ثلاث للهجرة النبویة الشریفة بالآیة .. وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ... والتی نزلت فی السنة الثالثة للهجرة.

فیما ذکر الدکتور الزحیلی صاحب الفقه الإسلامی وأدلته:

ص: ۱۵۵

أن الحج فرض فی أواخر سنة تسع من الهجرة، وأن آیة فرضه هی قوله تعالی: وَلِلهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا .... نزلت عام الوفود أواخر سنة تسع وهو رأی أکثر العلماء، وأنه (ص) لم یؤخر الحج بعد فرضه عاماً واحداً، وإنما أخره (ع) للسنة العاشرة لعذر، وهو نزول الآیة بعد فوات الوقت (۱)، فکان حجه بعد الهجرة حجة واحدة سنة عشر، کما روی أحمد ومسلم.

وقد یصح ما یقال: إن ما ذکره ابن قیم الجوزیة فی کتاب: «زاد المعاد» من أن الحج فرض فی السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة، قد یکون ارتکازنا منه إلی أن الرسول (ص) حج حجة الوداع فی السنة العاشرة؛ وأنه أدی الفریضة عقب فرضها إما فی السنة التاسعة أو العاشرة .. ولکن هذا لا یصلح سنداً. فقد تکون هناک اعتبارات أخری هی التی جعلت الرسول (ص) یؤخر حجّه إلی السنة العاشرة. وبخاصة إذا لاحظنا أنه أرسل أبا بکر أمیراً علی الحج فی السنة التاسعة. وقد ورد أن رسول الله (ص) لما رجع من غزوة تبوک همّ بالحج؛ ولأن المشرکین یحضرون موسم الحج علی عادتهم، وأن بعضهم یطوفون بالبیت عراة، فکره مخالطتهم .. ثم نزلت براءة، فأرسل (ص) علی بن أبی طالب (ع) یبلغ مطلع براءة للناس، وینهی بها عهود المشرکین، ویعلن یوم النحر إذا اجتمع الناس بمنی ":أنه لا یدخل الجنة کافر، ولا یحج بعد العام مشرک، ولا یطوف بالبیت عریان. ومن کان له عهد عند رسول الله (ص) فهو إلی مدته ..." ومن ثم لم یحج (ص) حتی تطهر البیت من المشرکین ومن العرایا.

نعم، هناک أمور یستأنس بها علی أن فریضة الحج وشعائره قد یکون الإسلام قد أقرها قبل هذا الوقت. مثل أنها کتبت فی مکة قبل الهجرة. ولکن هذا القول قد لا یجد له سنداً قویاً، اللهم إلا أن یؤخذ بالرأی الذاهب إلی أن سورة الحج نزلت فی مکة فهی سورة مکیة وقد ذکرت معظم شعائر الحج، بوصفها الشعائر التی أمر الله إبراهیم بها.

یقول ابن عاشور فی تفسیره:

ووجه تسمیتها سورة الحج أن الله ذکر فیها کیف أمر إبراهیم (ع) بالدعوة إلی حج البیت الحرام، وذکر ما شرع للناس یومئذ من النسک تنویهاً بالحج وما فیه من فضائل ومنافع، وتقریعاً للذین یصدون المؤمنین عن المسجد الحرام وإن کان نزولها قبل أن یفرض الحج علی المسلمین بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآیات التی فی سورة البقرة وفی سورة آل عمران.

إلی أن قال: وقال الجمهور: هذه السورة بعضها مکی وبعضها مدنی وهی مختلطة، أی لا یعرف المکی بعینه، والمدنی بعینه. قال ابن عطیة: وهو الأصح. (۲)

ومع أن شعائر الحج بینت فی سورة الحج:

وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِیمَ مَکانَ الْبَیْتِ أَنْ لا تُشْرِکْ بِی شَیْئاً وَ طَهِّرْ بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَ الْقائِمِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ* وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَ عَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ* لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ یَذْکُرُوا اسْمَ اللهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَةِ الْأَنْعامِ فَکُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِیرَ* ثُمَّ لْیَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْیُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْیَطَّوَّفُوا بِالْبَیْتِ الْعَتِیقِ* ذلِکَ وَ مَنْ یُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَکُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما یُتْلی عَلَیْکُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ* حُنَفاءَ لِلهِ غَیْرَ مُشْرِکِینَ بِهِ وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللهِ فَکَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّیْرُ أَوْ تَهْوِی بِهِ الرِّیحُ فِی مَکانٍ سَحِیقٍ* ذلِکَ وَ مَنْ یُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَی الْقُلُوبِ* لَکُمْ فِیها مَنافِعُ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی ثُمَّ مَحِلُّها إِلَی الْبَیْتِ الْعَتِیقِ* وَ لِکُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَکاً لِیَذْکُرُوا اسْمَ اللهِ عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِینَ* الَّذِینَ إِذا ذُکِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِینَ عَلی ما أَصابَهُمْ وَ الْمُقِیمِی الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ* وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَکُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَکُمْ فِیها

۱- حاشیة ابن عابدین نقلًا عن ابن القیم ۱۹۰: ۲.

۲- تفسیر التحریر والتنویر: الآیة.

ص: ۱۵۶

خَیْرٌ فَاذْکُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَیْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَکُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ کَذلِکَ سَخَّرْناها لَکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ* لَنْ یَنالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لکِنْ یَنالُهُ التَّقْوی مِنْکُمْ کَذلِکَ سَخَّرَها لَکُمْ لِتُکَبِّرُوا اللهَ عَلی ما هَداکُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِینَ.

فلاحظ أن هذه الآیات بینت الهدی والنحر والطواف والإحلال من الإحرام وذکر اسم الله، وهی شعائر الحج الأساسیة. وکان الخطاب موجهاً إلی الأمة المسلمة موصولة بسیرة أبیهم إبراهیم، مما یشیر إلی أن الحج قد یکون فرضه فی وقت مبکر أو علی الأقل بینت مناسکه أو أحکامه، باعتباره شعیرة إبراهیم الذی إلیه ینتسب المسلمون، فإذا کانت قد وجدت عقبات من الصراع بین المسلمین والمشرکین- وهم سدنة الکعبة إذ ذاک- جعلت أداء الفریضة متعذراً بعض الوقت، فذلک اعتبار آخر. وقد رجح أن بعض المسلمین کانوا یؤدون الفریضة أفراداً فی وقت مبکر؛ بعد تحویل القبلة فی السنة الثانیة من الهجرة ..

ولکن یبقی أن سورة الحج مدنیة، وأن تاریخ فرض الحج متردد بین الآیتین ۱۹۶ من سورة البقرة و ۹۷ من سورة آل عمران.

لقد فرض الحج سنة ست أو سنة تسع من الهجرة علی اختلاف بینهم، و سنة تسع هی سنة الوفود التی نزلت فیها سورة آل عمران، وفیها قول الله تعالی:

وَ لِلهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا.

کما أن تأریخ الحج یعد واحداً من الأدلة التی ساقوها لإثبات أن الحج واجب علی الفوریة أو التراخی، فقد ذهب جمهور الفقهاء من الحنفیة والمالکیة والحنابلة، إلی أن الحج إنما فرض فی السنة التاسعة أو فی أواخر السنة التاسعة، واستدلوا علی ذلک بقوله تعالی: وَلِلهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا وَمَن کَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعَالَمِینَ.

وعلی هذا قالوا: إن الحج علی الفور، والذی منع الحبیب (ع) أن یحج فی السنة التاسعة هو لأجل أن کان فی قریش من یطوف وهو عریان وکان من یطوف وهو مشرک.

فیما ذهب الشافعی إلی أن الحج إنما فرض فی السنة السادسة، قال: لقوله تعالی: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لله (۱)، قال: إن هذه الآیة نزلت مقترنة مع قوله تعالی: فَمَن کَانَ مِنْکُم مَّرِیضًا أَوْ بِهِ أَذًی مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْیَةٌ مِّن صِیَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُکٍ (۲)، قال: ومن المعلوم أن هذه الآیة نزلت فی حق من؟ کعب بن عجرة حینما کان آذاه هوام رأسه، فأمره النبی (ص) أن یفعل الحلق وأن یفتدی، قال الشافعی: وهذا کان فی السنة السادسة وقت الحدیبیة.

وعلی هذا، فإن فریضة الحج علی رأیهم جاءت سنة ست فأخر النبی (ص) الحج إلی سنة عشر من غیر عذر فلو لم یجز التأخیر لما أخره. وبالتالی فالحج عند هذا الفریق مبنی علی التراخی.

هذه خلاصة ما قرأته عنهم. (۳)

بعد هذه المقدمة نعود الی مباحث المقطع الأول من الآیة المذکورة:

وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ (۴)

ففی هذا المقطع مباحث قیمة نتعرض لها:

المقطع إعراباً ولغة ومعنی

الواو عاطفة، وأتموا فی مصادر اللغة: من تم بتشدید المیم تماً وتماماً: کمل، وأتم الشیء: أکمله ..

۱- البقرة: ۱۹۶.

۲- البقرة: ۱۹۶.

۳- انظر الفقه الإسلامی وأدلته للزحیلی، والفقه علی المذاهب الأربعة للجزیری، وغیرهما.

۴- البقرة: ۱۹۶

ص: ۱۵۷

وأتموا فعل أمر مبنی علی حذف النون، والواو فاعل، والحج مفعول به، والعمرة معطوف علی الحج، ولله الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال، أی خالصاً لوجهه، ویصح أن یکون الجار والمجرور فی (لله) متعلقاً بأتموا فتکون اللام هی لام المفعول لأجله، ویجوز أن تتعلق بمحذوف علی أنها حال من الحج والعمرة، تقدیره: أتموها کائنین لله. وقرأ علی وابن مسعود وزید بن ثابت: «والعمرة»: بالرفع علی الابتداء، و «لله» الخبر، علی أنها جملة مستأنفة. وإنما قال فی الحج والعمرة: (لله) ولم یقل ذلک فی الصلاة والزکاة، من أجل أنهم کانوا یتقربون ببعض أفعال الحج والعمرة إلی أصنامهم، فخصّهما بالذکر لله تعالی، حثاً علی الإخلاص فیهما.

وقد اقتبس الشعراء هذا التعبیر الجمیل وصرفوه إلی مناحی التغزل فقال ذو الرمة وأبدع:

تمام الحج أن تقف المطایا علی خرقاء واضعة اللثام

جعل الوقوف علی خرقاء وهی محبوبته من بنی عامر، کبعض مناسک الحج التی لا ندحة عن إتمامها. (۱)

معنی الحج: هو القصد إلی الشیء المعظم. أو هو القصد للزیارة قال الشاعر المُخَبَّلُ السَعدی:

وأشهد من عوف حلولًا کثیرة یحجون سِبَّ الزبرقان المزعفرا

یرید عمامته، وکانت سادة العرب تصبغ عمائمها بالزعفران.

والسِّبُ: العمامة أی یقصدون عمامة الزبرقان المصبوغة بالزعفران. (۲)

وشرعاً: وقوف بعرفة، لیلة عاشر ذی الحجة، وطواف بالبیت سبعاً، وسعی بین الصفا والمروة کذلک، علی وجه مخصوص (الدسوقی)

وشرعاً: قصد البیت الحرام، للتقرب الی الله تعالی، بأفعال مخصوصة، فی زمان مخصوص، ومکان مخصوص من حج أو عمرة (الحسین الصنعانی) ..

و الحج الأکبر هو الذی یسبقه وقوف بعرفة. وفی القرآن الکریم:

وَ أذانٌ مِنَ اللهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی النَّاسِ یَوْمَ الْحَجِّ الأَکْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِیءٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ وَ رَسُولُهُ (۳)

ویوم الحج الأکبر هو یوم النحر، وقیل: یوم عرفة.

معنی العمرة: بضم العین: الزیارة وقیل: القصد إلی مکان عامر، وسمیت بذلک لأنها تفعل فی العمر کله، وکذلک أخذت العمرة من العمارة؛ لأن الزائر للمکان یعمره بزیارته حین تضمه أرضه وسماؤه وأجواؤه، وجمعها عمر بضم العین وفتح المیم، وعمرات بضم العین والمیم، وشرعاً: قصد الکعبة للنسک المعروف (الأنصاری).

وهو الحج الأصغر الذی لیس فیه وقوف بعرفة. والمعتمر: الزائر، القاصد للشیء، من یؤدی العمرة.

ولا یغنی عنها الحج وإن اشتمل علیها. (۴)

۱- ما المراد من الفعل وأتموا؟

لهذا الفعل الوارد فی الآیة مرادان تدور حولهما- کما یبدو- الروایات وتبعاً لها أقوال العلماء من المذاهب الإسلامیة:

الأول: (الإتیان ابتداءاً).

أی وجوب الإتیان بالحج والعمرة ابتداءاً وإن لم یکن شرع فیهما. فالآیة علی هذا الرأی جاءت إنشاء لفریضة الحج.

الثانی: (الإتمام).

أی وجوب إتمامهما بعد الشروع فیهما. أی لا تدل الآیة علی وجوبهما أصالة وقبل الشروع فهما لیسا بواجبین ابتداء حسب هذه الآیة، ولکن إذا ما بدئ بهما جاء وجوب اتمامهما.

۱- انظر إعراب القرآن الکریم وبیانه لمحیی الدین الدرویش، والدر المصون فی علوم الکتاب المکنون للحلبی: الآیة.

۲- تاج العروس ۳۶: ۳.

۳- التوبة: ۳.

۴- انظر القاموس الفقهی لغة واصطلاحاً ۷۶- ۷۷، ۲۶۲. سعدی أبو جیب. الفقه الإسلامی وأدلته للدکتور وهبة الزحیلی ۹: ۳. ومصادر اللغة.

ص: ۱۵۸

إذن الفرق واضح بين الفهمين: (الابتداء والإتمام) وهذان الفهمان لمراد الآية نقف عند أقوال أصحابهما والأدلة التى ساقها كل منهما على ما ذهب إليه:

فبعد أن بين أن المراد بالحج والعمرة معناهما الشرعى المتعارف عند الفقهاء ولهما أفعال مخصوصة معلومة من كتب الفروع قال: وأتموهما: يعنى ائتوا بهما تامين مستجمعين للشرائط مع جميع المناسك وتأدية كل ما فيهما. كذا فى الكشاف وتفسير القاضى ومجمع البيان، أى المراد الإتيان بهما لا الإتمام بعد الشروع فيهما، ويؤيده قراءة: أقيموا الحج والعمرة.

هذا ما ذكره المحقق الأردبيلى فى كتابه زبدة البيان فى أحكام القرآن وفى تفسيره الآية، وواصل كلامه قائلًا:

وقيل: إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك أو تفرد لكل منهما سفراً أو أن تجرده لهما، ولا تشوبه بغرض دنيوى أو أن يكون النفقة حلالًا.

فيما جاء بالخبر الصحيح أن الإحرام من الميقات من تمام الحج، وفى حسنة عمر بن أذينة قال: كتبت إلى أبى عبد الله (ع) بمسائل بعضها مع ابن بكير وبعضها مع أبى العباس وجاء الجواب بإملائه (ع)، سألت عن قول الله عز وجل: وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا قال: «يعنى بهما الحج والعمرة جميعاً لأنهما مفروضان».

وسألت عن قول الله عز وجل: وَأَتِمُّوا الْحَجُّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ.

قال: يعنى بإتمامهما أداءهما واتقاء ما يتقى المحرم فيهما،

وسألت عن قوله تعالى: الْحَجَّ الأَكْبَر ما يعنى بالحج الأكبر؟

فقال: الحج الأكبر الوقوف بعرفة ورمى الجمار. والحج الأصغر العمرة. (۱)

وقال فى مجمع البيان: وقيل معناه أقيموهما إلى آخر ما فيهما، وهو المروى عن أمير المؤمنين وعلى بن الحسين وعن سعيد بن جبير ومسروق والسدى.

ثم يخلص قائلًا:

فعلى هذه التفاسير كلها تدل الآية على وجوب الحج والعمرة ابتداء وإن لم يكن شرع فيهما، والظاهر أنه لا خلاف عندنا فيه، ويدل عليه الأخبار أيضاً وعلى وجوب القربة فى فعلهما، فيفهم وجوب النية فيهما وفى سائر العبادات؛ لعدم القائل بالفصل كما هو مذهبنا، فاندفع بها قول الحنفى بعدم وجوب النية، وعدم وجوب العمرة، وأما دلالتها حينئذ على إتمام الحج المندوب، وإتمام الحج الواجب الفاسد والعمرة كذلك كما قيل، فليست بواضحة إلا بتكلّف، نعم لا يبعد وجوب إتمامهما فى الفاسد بدليل وجوب أصلهما، وأصل عدم سقوط الباقى بالإفساد والأصل بقاؤه.

ثم يقول بعد سرده لكل هذا:

ولكن ظاهر الآية- والقول مازال للمحقق الأردبيلى- مع قطع النظر عن التفاسير التى تقدمت وجوب إتمامهما بعد الشروع، فتفيد وجوب إتمام كل منهما بعد الشروع ندباً أو مع الإفساد، وحينئذ لا تدل على وجوبهما أصالة وقبل الشروع.

من هذا يظهر أن هناك قولين فى المسألة:

الأول: أن الآية تدل على وجوب الحج والعمرة ابتداء وإن لم يشرع فيهما. الثانى: وجوب إتمامهما بعد الشروع.

وإضافة لهذا، فقد بسط المفسرون القول فيما فهموه من مقطع الآية الأول، فقد فهم بعضهم أن الأمر وَأَتِمُّوا أمرٌ بإتمام الحج والعمرة متى بدىء فالعمرة ليست فريضة عند بعضهم، ومع هذا ورد الأمر هنا بإتمامها كالحج. مما يدل على أن المقصود هو الأمر بالإتمام لا إنشاء الفريضة بهذا النص. ويؤخذ من هذا الأمر كذلك أن العمرة- ولو أنها ابتداء ليست واجبة

۱- الکافی ۲۶۴: ۴.

ص: ۱۵۹

- إلا أنه متی أهلّ بها المعتمر فإن اتمامها یصبح واجباً. والعمرة کالحج فی شعائرها ما عدا الوقوف بعرفة. والأشهر أنها تؤدی علی مدار العام. ولیست موقوتة بأشهر معلومات کالحج. فهنا فهمان، ونحن نذکر خلاصة ما صوّبه بعض المفسرین والفقهاء،

فبعد أن اتفقوا علی أن الشروع فی الحج والعمرة یلزم إتمام کل منهما، حتی عند الذین یرون استحباب العمرة لا وجوبها، بمعنی أنه إذا شرع الحاج أو المعتمر فی أعمال أحد النسکین فیتعین علیه إتمامه؛ إلا أن أنظارهم تفاوتت فی المقصود بقوله تعالی: (وَأَتِمُّوا) علی أقوال حاصلها:

القرطبی فی الجامع لأحکام القرآن

اختلف العلماء فی المعنی المراد بإتمام الحج والعمرة لله، فقیل: أداؤهما والإتیان بهما، کقوله: فَأَتَمَّهُنَّ (۱) وقوله: ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّیامَ إِلَی اللَّیْلِ (۲) أی ائتوا بالصیام، وهذا علی مذهب من أوجب العمرة، علی ما یأتی. ومن لم یوجبها قال: المراد تمامها بعد الشروع فیهما، فإن من أحرم بنسک وجب علیه المضی فیه ولا یفسخه، قال معناه الشعبی وابن زید. وعن علی بن أبی طالب رضی الله عنه: إتمامهما أن تحرم بهما من دویرة أهلک. وروی ذلک عن عمر بن الخطاب وسعد بن أبی وقاص، وفعله عمران بن حصین. وقال سفیان الثوری: إتمامهما أن تخرج قاصداً لهما لا لتجارة ولا لغیر ذلک، ویقوی هذا قوله: «لله» وقال عمر: إتمامهما أن یفرد کل واحد منهما من غیر تمتع وقران، وقاله ابن حبیب. وقال مقاتل: إتمامهما ألا- تستحلوا فیهما ما لا ینبغی لکم، وذلک أنهم کانوا یشرکون فی إحرامهم فیقولون: لبیک اللهم لبیک، لا شریک لک إلا شریکاً هو لک، تملکه وما ملک. فقال: فأتموهما ولا تخلطوهما بشیء آخر.

الطوسی فی التبیان

أحدهما: أنه یجب أن یبلغ آخر عمالهما بعد الدخول فیهما وهو قول مجاهد، وأبی العباس المبرد، وأ بی علی الجبائی.

والثانی: قال سعید بن جبیر، وعطاء، والسدی: إن معناه إقامتهما إلی آخر ما فیهما، لأنهما واجبان.

الثالث: قال طاووس: إتمامهما إفرادهما.

الرابع: قال قتادة: الاعتمار فی غیر أشهر الحج.

ثم یقول: وأصحّ الأقوال الأول.

الطبرسی فی مجمع البیان

أی أتموهما بمناسکهما وحدودهما وتأدیة کل ما فیهما عن ابن عباس ومجاهد، وقیل: معناه أقیموهما إلی آخر ما فیهما، وهو المروی عن أمیر المؤمنین وعلی بن الحسین وعن سعید بن جبیر ومسروق والسدی ..

وقد صوَّب الطبری فی "تفسیره "من هذه الأقوال، قول من قال: المراد بالإتمام، إتمام أعمال الحج والعمرة بعد الدخول فیهما، والقیام بهما علی الوجه الذی شرّعا علیه، وهکذا هو ابن کثیر الذی قال:

وظاهر السیاق إکمال أفعالهما بعد الشروع فیهما. ولهذا قال بعده: فإن أحصرتم، أی صددتم عن الوصول إلی البیت ومنعتم من إتمامهما، ولهذا اتفق العلماء علی أن الشروع فی الحج والعمرة ملزم سواء قیل بوجوب العمرة أو باستحبابها ...

۱- البقرة: ۱۲۴.

۲- البقرة: ۱۸۷.

ص: ۱۶۰

الرازی فی التفسیر الکبیر

وهنا ننتقل الی ما یقوله الرازی فی تفسیره للآیة فی التفسیر الکبیر، فله کلام مفصل، فهو یقسم الأمر الوارد فی الآیة: وَأَتِمُّوا قسمین، ویتبنی القسم الأول ویدافع عنه بأدلة قیمة:

القسم الأول: الأمر مطلق.

القسم الثانی: الأمر مشروط بالدخول فیه.

ثم یقول: ذهب أصحابنا إلی أنه مطلق، والمعنی: افعلوا الحج والعمرة علی نعت الکمال والتمام.

والقول الثانی: إن هذا الأمر مشروط، ینسبه إلی أبی حنیفة، والمعنی: أن من شرع فیه فلیتمه. قالوا: ومن الجائز أن لا یکون الدخول فی الشیء واجباً إلا أن بعد الدخول فیه یکون إتمامه واجباً، وفائدة هذا الخلاف أن العمرة واجبة عند أصحابنا، وغیر واجبة عند أبی حنیفة .. ثم یعرض الرازی حجة أصحابه من وجوه. والذی یهمنا منها الوجه الأول، نکتفی به دون ذکر الوجوه الأخری:

الحجة الأولی: قوله تعالی: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ وجه الاستدلال به أن الإتمام یراد به فعل الشیء کاملًا تاماً، ویحتمل أن یراد به إذا شرعتم فی الفعل فأتموه، وإذا ثبت الاحتمال وجب أن یکون المراد من هذا اللفظ هو ذاک، أما بیان الاحتمال فیدل علیه قوله تعالی: وَ إِذِ ابْتَلی إِبْراهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ أی فعلهن علی سبیل التمام والکمال، وقوله تعالی ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّیامَ إِلَی اللَّیْلِ أی فافعلوا الصیام إلی اللیل، وحمل اللفظ علی هذا أولی من قول من قال: المراد فاشرعوا فی الصیام ثم أتموه، لأن علی هذا التقدیر یحتاج إلی الإضمار، وعلی التقدیرالذی ذکرناه لا یحتاج الیه، فیثبت أن قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ یحتمل أن یکون المراد منه الإتیان به علی نعت الکمال والتمام فوجب حمله علیه، أقصی ما فی الباب أنه یحتمل أیضاً أن یکون المراد منه أنکم إذا شرعتم فیه فأتموه، إلا أن حمل اللفظ علی الوجه الأول أولی، ویدل علیه وجوه:

الأول: أن حمل الآیة علی الوجه الثانی یقتضی أن یکون هذا الأمر مشروطاً، ویکون التقدیر: أتموا الحج والعمرة لله إن شرعتم فیهما، وعلی التأویل الأول الذی نصرناه لا یحتاج إلی إضمار هذا الشرط، فکان ذلک أولی.

الثانی: أن أهل التفسیر ذکروا أن هذه الآیة هی أول آیة نزلت فی الحج. فحملها علی إیجاب الحج أولی من حملها علی الإتمام بشرط الشروع فیه.

الثالث: قرأ بعضهم «وَأَقِیمُوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ» وهذا وإن کان قراءة شاذة جاریة مجری خبر الواحد، لکنه بالاتفاق صالح لترجیح تأویل علی تأویل.

الرابع: أن الوجه الذی نصرناه یفید وجوب الحج والعمرة، ویفید وجوب إتمامهما بعد الشروع فیهما، والتأویل الذی ذکرتم لا یفید إلا أصل الوجوب، فکان الذی نصرناه أکبر فائدة، فکان حمل کلام الله علیه أولی.

الخامس: أن الباب باب العبادة فکان الاحتیاط فیه أولی، والقول بإیجاب الحج والعمرة معاً أقرب إلی الاحتیاط، فوجب حمل اللفظ علیه.

السادس: هب أنا نحمل اللفظ علی وجوب الإتمام، لکنا نقول: اللفظ دل علی وجوب الإتمام جزماً، وظاهر الأمر للوجوب، فکان الإتمام واجباً جزماً والإتمام مسبوق بالشروع، وما لا یتم الواجب إلا به وکان مقدوراً للمکلف فهو واجب، فیلزم أن یکون الشروع واجباً فی الحج وفی العمرة.

السابع: روی عن ابن عباس أنه قال: والذی نفسی بیده إنها لقرینتها فی کتاب الله. أی أن العمرة لقرینة الحج فی الأمر بهما فی کتاب الله، یعنی فی هذه الآیة، فکان کقوله: وَ أَقِیمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّکاةَ فهذا تمام تقریر هذه الحجة.

ص: ۱۶۱

روایات مدرسة أهل البیت (علیهم السلام)

لأهل البیت (علیهم السلام) روایات فی خصوص هذه الآیة، منها:

فی تفسیر العیاشی عن أبی جعفر وأبی عبد الله (علیهما السلام) فی قوله تعالی: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ قالا: «فإن تمام الحج أن لا یرفث، ولا یفسق، ولا یجادل».

یبدو أن هذا توضیح لأهم تروک الإحرام لا حصرها بما ذکر.

وفی الکافی: عن الصادق (ع) فی قوله تعالی: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ قال: «یعنی بتمامهما، أداؤهما واتقاء ما یتقی المحرم فیهما»

وفی الکافی عنه (ع) قال: إذا أحرمت فعلیک بتقوی الله، وذکر الله کثیراً، وقلة الکلام إلا بخیر، فإن من تمام الحج والعمرة أن یحفظ المرء لسانه إلا من خیر، کما قال تعالی: فَمَنْ فَرَضَ فِیهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِی الْحَجِّ.

وفی مجمع البیان عن أمیر المؤمنین وعلی بن الحسین (علیهما السلام) ..: «یعنی أقیموهما إلی آخر ما فیهما».

وعن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبی جعفر وأبی عبد الله (علیهما السلام) قالوا: سألناهما عن قوله: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ، قالا: فإن تمام الحج أن لا یرفث ولا یفسق ولا یجادل.

وعن الصادق (ع) فی حدیث قال: یعنی بتمامهما أداءهما، واتقاء ما یتقی المحرم فیهما. (۱)

و بعد أن یستظهر ابن کثیر فی تفسیره- کما ذکرنا- أن الآیة تعنی کما هو ظاهر السیاق، إکمال أفعالهما بعد الشروع فیهما؛ ولهذا قال بعده: فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ أی: صُدِدْتم عن الوصول إلی البیت ومنعتم من إتمامهما. ولهذا اتفق العلماء علی أن الشروع فی الحج والعمرة مُلْزِمٌ، سواء قیل بوجوب العمرة أو باستحبابها، کما هما قولان للعلماء ... شرع فی ذکر روایات عن هذا الموضوع ننقل بعضها:

عن عبد الله بن سلمة، قال: جاء رجل إلی علیّ رضوان الله علیه، فقال: أرأیتَ قَول الله عز وجل: وَأَتِمّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ؟ قال: أن تحرم من دُوَیْرة أهلک.

وکذا عن محمد بن سوقة، عن سعید بن جبیر، قال: من تَمام العُمرة أن تحرم من دُوَیرة أهلک.

وکذا قال ابن عباس، وسعید بن جبیر، وطاوس. وعن سفیان الثوری أنه قال فی هذه الآیة: إتمامهما أن تحرم من أهلک، لا ترید إلا الحج والعمرة، وتُهِلّ من المیقات لیس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتی إذا کنت قریباً من مکة قلت: لو حججت أو اعتمرت، وذلک یجزئ، ولکن التمام أن تخرج له، ولا تخرج لغیره.

وقال مکحول: إتمامهما إنشاؤهما جمیعاً من المیقات.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر عن الزهری قال: بلغنا أنّ عمر قال فی قول الله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ [قال]: من تمامهما أن تُفْرد کُلَّ واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر فی غیر أشهر الحج؛ إن الله تعالی یقول: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ.

وقال هُشَیْم عن ابن عون قال: سمعت القاسم بن محمد یقول: إن العمرة فی أشهر الحج لیست بتامة فقیل له: العمرة فی المحرم؟ قال: کانوا یرونها تامة. وکذا روی عن قتادة بن دعامة، وهنا یقول ابن کثیر: وهذا القول فیه نظر؛ لأنه قد ثبت أن رسول الله (ص) اعتمر أربع عُمَرٍ کلها فی ذی القعدة: عمرة الحدیبیة فی ذی القعدة سنة ست، وعمرة القضاء فی ذی القعدة سنة سبع، وعمرة الجِعرّانة فی ذی القعدة سنة ثمان، وعمرته التی مع حجته أحرم بهما معاً فی ذی القعدة سنة عشر، ولا اعتمر قَطّ فی غیر ذلک بعد هجرته، ولکن قال لأم هانئ: «عُمْرة فی رمضان تعدل حجة معی». وما ذاک إلا لأنها [کانت] قد

۱- انظر التهذیب والکافی وتفسیر العیاشی.

ص: ۱۶۲

عزمت علی الحج معه (ع)، فاعتاقَتْ عن ذلک بسبب الطهر، کما هو مبسوط فی الحدیث عند البخاری، ونَصّ سعید بن جبیر علی أنه من خصائصها، والله أعلم.

وقال السدی فی قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ أی: أقیموا الحج والعمرة. وقال علی بن أبی طلحة عن ابن عباس فی قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ یقول: من أحرم بالحج أو بالعمرة فلیس له أن یحل حتی یتمهما، تمام الحج یوم النحر، إذا رمی جمرة العقبة، وطاف بالبیت، وبالصفا، والمروة، فقد حل.

وقال قتادة، عن زُرَارة، عن ابن عباس أنه قال: الحج عرفة، والعمرة الطواف. وکذا روی الأعمش، عن إبراهیم عن علقمة فی قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ قال: هی [فی] قراءة عبد الله: «وأقیموا الحج والعمرة إلی البیت» لا تُجاوز بالعمرة البیت. قال إبراهیم: فذکرت ذلک لسعید بن جبیر، فقال: کذلک قال ابن عباس.

وقال سفیان عن الأعمش، عن إبراهیم، عن علقمة أنه قال: «وأقیموا الحج والعمرة إلی البیت» وکذا روی الثوری أیضاً عن إبراهیم، عن منصور، عن إبراهیم أنه قرأ: «وأقیموا الحج والعمرة إلی البیت».

وعن ابن عباس: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ یقول: من أحرَم بحجّ أو بعُمْرة فلیس له أن یَحلّ حتی یتمهما، تَمامُ الحجّ یوم النَّحر إذا رَمَی جَمرةَ العَقبة وزار البیت فقد حَلّ من إحرامه کُلّه، وتمامُ العمرة إذا طاف بالبیت وبالصَّفا والمروة، فقد حَلّ. وهذا معناه أن الأمر بالإتمام الذی یحمله الفعل وَأَتمُّوا مشروط بالدخول فی النسک، ولیس مطلقاً. تمامُهما أن تُحرِم بهما مفردین من دُوَیْرة أهلِک.

عن سلیمان بن موسی، عن طاوس، قال: تمامُهما إفرادهما مُؤْتَنَفتین من أهلک.

عن سلیمان بن موسی، عن طاوس: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ قال: تفردهما مؤقتین من أهلک، فذلک تمامهما.

تمام العمرة أن تعمل فی غیر أشهر الحج، وتمامُ الحج أن یُؤتی بمناسکه کلِّها، حتی لا یلزم عَامِلَه دمٌ بسبب قِران ولا متعة.

عن قتادة قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ قال: وتمام العمرة ما کان فی غیر أشهر الحج.

ومن کان فی أشهر الحج، ثم أقام حتی یَحُجّ، فهی مُتعة. علیه فیها الهدی إن وُجد، وإلا صَام ثلاثة أیام فی الحج وسبعةً إذا رَجع.

عن قتادة قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ قال: ما کان فی غیر أشهر الحج فهی عمرة تامة، وما کان فی أشهر الحج فهی مُتعة وعلیه الهدی.

عن ابن عون، قال: سمعت القاسم بن محمد یقول: إنّ العمرة فی أشهر الحج لیست بتامة. قال: فقیل له: العمرة فی المحرَّم؟ قال: کانوا یَرَونها تامَّة.

عن سفیان، قال: هو یعنی تمامهما أن تخرُج من أهلک لا- ترید إلا- الحج والعمرة، وتُهلّ من المیقات. لیس أن تخرُج لتجارةٍ ولا لحاجة، حتی إذا کنت قریباً من مکة قلت: لو حججت أو اعتمرت. وذلک یجزئ، ولکن التمام أن تخرُج له لا تخرُج لغیره. بل معنی ذلک: أتموا الحجَّ والعمرةَ لله إذا دخلتم فیهما. (۱)

۲ الحج:

هو من شعائر الإسلام بل هو من أرکانه الخمسة، شرعه الله تعالی علی یدی نبی الله تعالی إبراهیم الخلیل (ع)، وأقره الإسلام إلی یوم القیامة، وهو ثلاثة أنواع:

۱– انظر کلًا من ابن کثیر وکذا الطبری فی تفسیرهما الآیة، فقد ذکرا العدید من الروایات حول هذه الآیة.

ص: ۱۶۳

حج التمتع وهو أفضلها، ثم حج القران، فحج الإفراد، وقد تکفلت کتب الفقه بتفصیل ما یتعلق بهذه الأنواع أو الأقسام من أحکام، ولا نفصّل فیه.

۳- هل العمرة واجبة؟

فبعد أن اتفقوا على وجوب الحج سواء بهذه الآیة محل البحث أم بغیرها کما علیه بعضهم، اختلفوا فی العمرة هل هی أیضاً واجبة أو لا؟ هذا ما سنراه:

الروایات:

وقد وردت عن مدرسة أهل البیت (علیهم السلام) العدید من الروایات تبین وجوب العمرة ومنها:

ففی التهذیب وتفسیر العیاشی عن الإمام الصادق (ع) فی قوله تعالى: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ قال: هما مفروضان.

وفی العلل عن الصادق (ع): «العمرة واجبة على الخلق بمنزلة الحج على من استطاع، لأن الله یقول: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ قیل: فمن تمتع بالعمرة إلی الحج، أیجزی ذلک عنه؟ قال: نعم.

وفی تفسیر العیاشی عن أبی جعفر (ع): «العمرة واجبة بمنزلة الحج، لأن الله یقول: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ هی واجبة مثل الحج، ومن تمتع أجزأته، والعمرة فی أشهر الحج متعة».

فیما ذکر ابن کثیر وکذا الطبری فی تفسیرهما روایات اختلفت فیما بینها؛ فبعضها یذهب إلی عدم وجوب العمرة فیما ذهب غیره إلی وجوبها، کما أن عدداً روی عنه أن لفظة العمرة الواردة فی الآیة لیست منصوبة للمفعولیة معطوفة على الحج، بل هی مرفوعة على الابتداء و «لله» الخبر، وبالتالی فالجملة مستأنفة وتبعاً لذلک اختلفت أقوال المفسرین والفقهاء فیهما:

قال ابن زید: لیست العمرة واجبة على أحد من الناس. قال: فقلت له: قولُ الله تعالى: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ؟ قال: لیس من الخلقِ أحدٌ ینبغی له إذا دَخَل فی أمر إلا ـ أن یتمّه، فإذا دخل فیها لم یَنْبَغ له أن یهلّ یوماً أو یومین ثم یرجع، کما لو صام یوماً لم ینبغ له أن یفطر فی نصف النهار.

حدثنا ابن المثنی، قال: حدثنا یحیى بن سعید، عن شعبة، قال: حدثنی سعید بن أبی بردة أن الشعبی وأبا بردة تذاکرَا العمرة، قال: فقال الشعبی: تطوّع، وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةُ لِلهِ. وقال أبو بردة: هی واجبة وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ.

حدثنی محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا ابن عون، عن الشعبی أنه کان یقرأ: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةُ لِلهِ. أی کان الشعبی یقرأ العمرة رفعاً.

وقد روی عن الشعبی خلاف هذا القول، وإن کان المشهور عنه من القول هو هذا.

فعن المغیرة، عن الشعبی، قال: العمرةُ واجبةٌ.

فقراءة من قال: العمرة واجبة- نصبها، بمعنى أقیموا فرضَ الحجّ والعمرةَ،

حدثنا محمد بن المثنی، قال: أخبرنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، قال: سمعت أبا إسحاق، یقول: سمعت مسروقاً یقول: أُمرتم فی کتاب الله بأربع: بإقام الصلاة، وإیتاء الزکاة، والحج، والعمرة. قال: ثم تلا هذه الآیة: وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ (۱)، وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ.

حدثنی أبو السائب، قال: ثنا ابن إدریس، قال: سمعت لیثاً یروی عن الحسن، عن مسروق، قال: أمرنا بإقامة أربعةٍ: الصلاة والزکاة، والعمرة والحجّ، فنزلت العُمْرة من الحج منزلةَ الزکاة من الصلاة.

۱- آل عمران: ۹۷.

ص: ۱۶۴

حدثنا ابن بشار، قال: أنبأنا محمد بن بکر، قال: ثنا ابن حریج، قال: قال علی بن حسین وسعید بن جبیر، وسُئِلا: أواجبةٌ العمرة علی الناس؟ فکلاهما قال: ما نعلمها إلا واجبة، کما قال الله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ.

حدثنا سَوَّار بن عبد الله، قال: ثنا یحیی بن سعید القطان، عن عبد الملک بن أبی سلیمان، قال: سأل رجل سعید بن جبیر عن العمرة فریضَةٌ هی أم تطوعٌ؟ قال: فریضةٌ. قال: فإن الشعبی یقول: هی تطوع. قال: کَذَب الشعبی، وقرأ: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ

حدثنا الحسن بن یحیی، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة عمن سمع عطاء یقول فی قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ، قال: هما وَاجبان: الحج، والعمرة.

قال أبو جعفر: فتأویل هؤلاء فی قوله تبارک وتعالی: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ أنهما فرضَان واجبان أمرَ الله تبارک وتعالی بإقامتهما، کما أمر بإقامة الصلاة، وأنهما فریضتان، وأوجب العمرة وجوبَ الحج. وهم عدد کثیر من الصحابة والتّابعین، ومن بعدهم من الخالفین، کرهنا تطویل الکتاب بذکرهم وذکر الروایات عنهم.

وقالوا: معنی قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ وأقیموا الحج والعمرة.

ذکر بعض من قال ذلک:

حدثنا موسی بن هارون، قال: ثنا عمرو بن حماد، قال: ثنا أسباط، عن السدی قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ یقول: أقیموا الحج والعمرة.

حدثنا أحمد بن حازم، قال: ثنا أبو نعیم، قال: ثنا إسرائیل، عن ثُویر، عن أبیه، عن علی: «وأقیموا الحج والعمرة للبیت» ثم هی واجبةٌ مثل الحج.

حدثنا أحمد بن حازم، قال: ثنا أبو نعیم، قال: ثنا إسرائیل، قال: ثنا ثویر، عن أبیه، عن عبد الله: «وأقِیمُوا الحجَّ والعمرةَ إلی البیت» ثم قال عبد الله: والله لولا التحرُّجُ، وأنی لم أسمع من رسول الله (ص) فیها شیئًا، لقلت: إنّ العمرة واجبة مثل الحج.

وقد وردت أحادیث کثیرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة: أن رسول‌الله (ص) جمع فی إحرامه بحج وعمرة، وثبت عنه فی الصحیح أنه قال لأصحابه: «من کان معه هَدْی فلیهل بحج وعمرة».

وقال فی الصحیح أیضاً: «دخلت العمرة فی الحج إلی یوم القیامة». (۱)

إذن «وجوب العمرة وعدم وجوبها» عنوان کلام دار بین علماء التفسیر والفقه وکل واحد منهما راح یدلی بأدلة ما یذهب إلیه، والذی یری عدم وجوبها یتمسک بأدلة منها قراءة الرفع التی نسبت إلی علی وابن مسعود وزید بن ثابت ونسبها القرطبی إلی الشعبی وأبی حیوة، وهی قراءة شاذة. (۲)

ویناقش الرازی فی هذا الخبر حیث یقول:

فإن قیل: قرأ علی وابن مسعود والشعبی: وَالْعُمْرَةَ لله بالرفع، وهذا یدل علی أنهم قصدوا إخراج العمرة عن حکم الحج فی الوجوب،

قلنا: هذا مدفوع من وجوه:

الأول: أن هذه قراءة شاذة فلا تعارض القراءة المتواترة.

الثانی: أن فیها ضعفاً فی العربیة، لأنها تقتضی عطف الجملة الإسمیة علی الجملة الفعلیة.

الثالث: أن قوله: وَالْعُمْرَةُ لِلهِ معناه أن العمرة عبادة الله، ومجرد کونها عبادة الله لا ینافی وجوبها، وإلا وقع التعارض بین مدلول القراءتین وهو غیر جائز.

۱- تفسیر ابن کثیر وکذا تفسیر الطبری، سورة البقرة: ۱۹۶.

۲- انظر الدر المصون فی علوم الکتاب المکنون للسمین الحلبی ۳۱۳: ۲ وذکر فی هامش الصفحة المصادر.

ص: ۱۶۵

الرابع: أنه لما كان قوله: وَالْعُمْرَةُ لِلهِ معناه: والعمرة عبادة الله. وجب أن یكون العمرة مأموراً بها لقوله تعالی: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ والأمر للوجوب، وحینئذ یحصل المقصود. (۱)

أما القرطبی فقال:

الرابعة: فی هذه الآیة دلیل علی وجوب العمرة؛ لأنه تعالی أمر بإتمامها كما أمر بإتمام الحج. قال الصبی بن معبد: أتیت عمر رضی الله عنه فقلت: إنی كنت نصرانیاً فأسلمت، وإنی وجدت الحج والعمرة مكتوبتین علیّ، وإنی أهللت بهما جمیعاً، فقال له عمر: هدیت لسنة نبیك. قال ابن المنذر: ولم ینكر علیه قوله: «وجدت الحج والعمرة مكتوبتین علی»، وبوجوبهما قال علی بن أبی طالب وابن عمر وابن عباس، وروی الدارقطنی عن ابن جریج قال: أخبرنی نافع أن عبد الله بن عمر كان یقول: لیس من خلق الله أحد إلا علیه حجة وعمرة واجبتان من استطاع ذلك سبیلًا، فمن زاد بعدها شیئاً فهو خیر وتطوع. قال: ولم أسمعه یقول فی أهل مكة شیئاً. قال ابن جریج: وأخبرت عن عكرمة أن ابن عباس قال: العمرة واجبة كوجوب الحج من استطاع إلیه سبیلًا،

وممن ذهب إلی وجوبها من التابعین عطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سیرین والشعبی وسعید بن جبیر وأبو بردة ومسروق وعبد الله بن شداد والشافعی وأحمد وإسحاق وأبو عبید وابن الجهم من المالكیین.

وقال الثوری: سمعنا أنها واجبة، وسئل زید بن ثابت عن العمرة قبل الحج، فقال: صلاتان لا یضرك بأیهما بدأت، ذكره الدارقطنی، وروی مرفوعاً عن محمد بن سیرین عن زید بن ثابت قال: قال رسول الله (ص): «إن الحج والعمرة فریضتان لا یضرك بأیهما بدأت» وكان مالك یقول: العمرة سنة ولا نعلم أحداً أرخص فی تركها، وهو قول النخعی وأصحاب الرأی فیما حكی ابن المنذر، وحكی بعض القزوینیین والبغدادیین عن أبی حنیفة أنه كان یوجبها كالحج، وبأنها سنة ثابتة، قال ابن مسعود وجابر بن عبد الله.

روی الدارقطنی حدثنا محمد بن القاسم بن زكریا حدثنا محمد بن العلاء أبو كریب، حدثنا عبد الرحیم بن سلیمان، عن حجاج، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: سأل رجل رسول الله (ص) عن الصلاة والزكاة والحج: أواجب هو؟ قال: (نعم) فسأله عن العمرة: أواجبة هی؟ قال: (لا وأن تعتمر خیر لك).

رواه یحیی بن أیوب عن حجاج وابن جریج عن ابن المنكدر عن جابر موقوفاً من قول جابر، فهذه حجة من لم یوجبها من السنة.

قالوا: وأما الآیة فلا حجة فیها للوجوب؛ لأن الله سبحانه إنما قرنها فی وجوب الإتمام لا فی الابتداء، فإنه ابتدأ الصلاة والزكاة فقال: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ (۲)، وابتدأ بإیجاب الحج فقال: وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ (۳) ولما ذكر العمرة أمر بإتمامها لا بابتدائها، فلو حج عشر حجج، أو اعتمر عشر عمر لزم الإتمام فی جمیعها، فإنما جاءت الآیة لإلزام الإتمام لا لإلزام الابتداء، والله أعلم.

واحتج المخالف من جهة النظر علی وجوبها بأن قال: عماد الحج الوقوف بعرفة، ولیس فی العمرة وقوف، فلو كانت كسنّة الحج لوجب أن تساویه فی أفعاله، كما أن سنّة الصلاة تساوی فریضتها فی أفعالها.

أما الطبری، فیخلص بعد سرده الطویل للأدلة والروایات التی ساقها حول الآیة إلی قوله التالی:

وبما استشهدنا من الأدلة، فإن أولی القراءتین بالصواب فی «العمرة» قراءةُ من قرأها نصباً.

وأنّ أولی التأویلین فی قوله: وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ تأویلُ ابن عباس الذی ذكرنا عنه من روایة علی بن أبی طلحة عنه من أنه أمرٌ من الله بإتمام أعمالهما بعد الدُّخول فیهما وإیجابهما علی ما أمِر به من حدودهما وسنَنِهما.

۱- انظر التفسیر الكبیر للفخر الرازی: الآیة.

۲- المزمل: ۲۰.

۳- آل عمران: ۹۷.

ص: ۱۶۶

وأنّ أولی القولین فی الْعُمْرَةَ بـالصواب قول من قال: «هی تطوّع لا فرض». وإن معنی الآیـة: وأتموا أیها المؤمنون الحجّ والعمرة لله بعد دخولکم فیهما وإیجابکموهما علی أنفسکم، علی ما أمرکم الله من حدودهما. (۱)

المذاهب الإسلامیة

وهنا لا بد لنا من تلخیص آراء المذاهب فقد اختلفوا فی حکم العمرة، هل هی واجبة أم سنَّة؟

فـذهب الحنفیـة والمالکیـة علی أرجح القولین إلی أنها سـنة (مؤکدة) مرة فی العمر؛ لأن الأحادیث المشـهورة الثابتة الواردة فی تعداد فرائض الإسـلام لم یذکر منها العمرة مثل حدیث ابن عمر: «بنی الإسلام علی خمس» فإنه ذکر الحج مفرداً، وروی جابر أن أعرابیاً جاء إلی رسول الله (ص) فقال: یا رسول الله، أخبرنی عن العمرة، أواجبة هی؟ فقال: لا، وأن تعتمر خیر لک وفی روایة: «أولی لک». وروی أبو هریرة: «الحج جهاد والعمرة تطوع».

وهـذا هو مذهب جابر بن عبد الله و ابن مسـعود من الصـحابة، و النخعی من التابعین، ولم یر أصـحاب هذا القول فی الآیة محل البحث حجـة علی القول بوجوب الحـج أو العمرة، بـل رأوا أن دلالتهـا قاصـرة علی وجوب إتمامهمـا لمن أحرم بهما، وقالوا: إن دلیل وجوب الحج لیس مستفاداً من هذه الآیة، وإنما من أدلة أخری، کقوله تعالی:

وَ لِلهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ (۲).

وقال مالک: العمرة سنة، ولا نعلم أحداً أرخص فی ترکها.

وذهب الشافعیـة والحنابلـة إلی القول بوجوب العمرة کالحـج، حیث قـالوا: العمرة فرض کالحـج، و اسـتدلوا بقوله تعالی: وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ أی ائتوا بهما تامین ومقتضـی الأمر الوجوب،. نعم حملوا الأمر بالإتمام فی قوله تعالی: وَأَتِمُّواْ علی معنی وجوب فعل هذین النسکین. ولخبر عائشة قالت: «قلت: یا رسول الله، هل علی النساء جهاد؟ قال: نعم، جهاد لا قتال فیه: الحج والعمرة».

ویستظهر الدکتور الزحیلی صحة هذا الرأی لدلالة هذه الآیة ولضعف أحادیث الفریق الأول.

وذکروا أن هذا هو قول عمر و ابن عمر وبعض الصحابة، ومن التابعین عطاء و مجاهد و الحسن ..

وذکر الحنابلة- وهذا القول للزحیلی- عن أحمد: أنه لیس علی أهل مکة عمرة، بدلیل أن ابن عباس کان یری العمرة واجبة، ویقول: یا أهـل مکـة! لیس علیکم عمرة، إنمـا عمرتکم طوافکم بـالبیت. وروی ذلک عن عطاء، لأن رکن العمرة ومعظمها بالطواف بالبیت وهم یفعلونه، فاجزأ عنهم.

وعند الإمامیة تنقسم العمرة إلی:

عمرة مفردة مستقلة عن الحج ووقتها طوال أیام السنة بالاتفاق، وأفضل أوقاتها شهر رجب وعند غیرهم شهر رمضان.

عمرة التمتع: وهی عمرة منضـمة إلی فریضة الحج یأتی بها المکلف المستطیع أولًا ثم یأتی بأعمال الحج لتکتمل عنده حجة الإسـلام، ووقتها أشـهر الحج الثلاثة: شوال وذو القعدة وذو الحجة، وهناک فروق بین العمرتین وتفصـیل لأحکامهما موکول الی محله فی کتب الفقه. (۳)

۴-- لله:

أی لوجه الله، یعنی اقصدوا الحج والعمرة لله، وافعلوهما له خاصة، أی لامتثال أمره ولموافقة إرادته وثوابه کما قیل فی النیة. هذا ما قاله المحقق الأردبیلی فی زبدة البیان.

۱- انظر تفسیر الطبری: الآیة.

۲- آل عمران: ۹۷.

۳- انظر الفقه الإسلامى وأدلته، تأليف الدكتور وهبة الزحيلى مع إضافة بسيطة. ومصادر هذه الأقوال ذكرها الدكتور فى هامش الجزء الثالث: ۱۸- ۱۹. و ما جاء فى الفقه على المذاهب الخمسة للشيخ محمد جواد مغنية: ۲۰۰.

ص: ۱۶۷

و أهم ما يدل عليه المقطع: وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ هو أهمية أداء عبادتی الحج والعمرة وإتمامهما، وليس هذا فقط بل بتجريد التوجه بهما لله سبحانه وتعالى .. أی بإخلاص النية فيهما لله تعالى لا لغيره وبعيداً عن السمعة والرياء والشك والمعاصی ..

فقد جاء قوله: لله بعد الأمر بالإتمام، وهو ما يشير إلى أن المقصود من أداء هذين النسكين، وجه الله فحسب، وأنه لا ينبغی لمن يقوم بهما أن يقصد غير ذلک من متاع الدنيا، وهذا شأن العبادات خاصة، وأعمال المسلم عامة، فلا ينبغی أن يقصد بها غير وجه الله سبحانه، فهو المقصود أولًا وآخراً، وظاهراً وباطناً، قال تعالى: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (۱) وقال أيضاً: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (۲)

يقول القرطبی فی تفسيره الآية: وفائدة التخصيص بذكر الله هنا أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر والتناضل والتنافر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق، وكل ذلک ليس لله فيه طاعة، ولا حظ بقصد، ولا قربة بمعتقد، فأمر الله سبحانه بالقصد إليه لأداء فرضه وقضاء حقه، ثم سامح فی التجارة ..

ثم واصل كلامه قائلًا: لا خلاف بين العلماء فيمن شهد مناسک الحج وهو لا ينوی حجاً ولا عمرة- والقلم جار له وعليه- أن شهودها بغير نية ولا قصد غير مغن عنه، وأن النية تجب فرضاً، لقوله تعالى: وَأَتِمُّوا ومن تمام العبادة حضور النية، وهی فرض كالإحرام عند الإحرام لقوله (ع) لما ركب راحلته: «لبيک بحجة وعمرة معاً ...» ثم احتج بقوله (ص): «إنما الأعمال بالنيات». انتهى القرطبی من قوله.

يؤيد هذا قوله تعالى: وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (۳)، حيث إن إبطال العمل من أسباب وقوعه عدم صدق النية وعدم إدامتها ما دام العمل قائماً، ويستأنس فی هذا بما خلاصته «إن أحب الدين إليه تعالى ما داوم عليه صاحبه». كما أن إخلاص النية ركن صحة العبادة وقبولها من قبله تعالى، لهذا جاءت الآية: وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ لله فقط لا لغيره، وهذا الإخلاص ينطبق على جميع العبادات كالصلاة والصيام وغيرها.

وختاماً: إن لكل من الحج والعمرة أحكاماً وأجزاء وشروطاً و آداباً وردت فی الشريعة الإسلامية، راح الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق (ع) يشرح خصوصياتهما بما لا مزيد عليه، حتى نسب إلى أبی حنيفة أنه قال:

«لولا جعفر بن محمد ما عرف الناس مناسک حجهم». (۴)

وقد توفرت كتب الحديث والفقه على كل هذه الأمور لهذين المنسكين المباركين اللذين جعلهما الله تعالى محطة خير وعطاء يتزوّد الناس فيهما ومنهما التقوى: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِی الْأَلْبابِ (۵)، وباباً واسعاً لرحمته وغفرانه ورضاه، خصوصاً وقد اجتمعت فيهما أبعاد العبادات الروحية والبدنية والمالية وأهدافها ومقاصدها، مما يجعلهما قادرين على تلبية الزاد بكل مفاصله وأبعاده الروحية والمادية والاجتماعية .. للأفراد والجماعات والأمم ..

۱- الذاريات: ۵۶.

۲- البيّنة: ۵.

۳- محمد: ۳۳.

۴- مواهب الرحمن فی تفسير القرآن للسيد السبزواری ۱۴۱: ۳.

۵- البقرة: ۱۹۷.

ص: ۱۶۸

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ ُبْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا و يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِقِ و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللّهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللّهُ تعالی؛ و اللّهُ ولیّ التوفیق.